

المنتقى

بسم الله الرحمن الرحيم

منه كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى

للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى
اليحصبي رحمه الله



انتقاه وأعداه

مركز المربع

للاستشارات التربوية والتعليمية

المنتقى من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى

المنتقى

من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ

للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى
اليحصبي رحمه الله

انتقاه وأعدّه

مركز المربي

للإستشارات التربوية والتعليمية

(ح) يحيى ابراهيم علي اليحيى ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اليحيى، يحيى إبراهيم

المنتقى من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه

وسلم / يحيى ابراهيم علي اليحيى - المدينة المنورة ١٤٣٦هـ

٢٧٨ ص ،

ردمك: ٨-٨٩٩٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية ٢- الأخلاق الإسلامية ٣- الشمائل المحمدية

ديوي ٢٣٩,٦ ١٤٣٦ / ٨٠٨٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦ / ٨٠٨٤

ردمك: ٨-٨٩٩٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وجعله خاتماً لأنبيائه ورسوله، وجعل الكتاب الذي أنزله معه مهيمناً على كل كتاب قبله، وصلى الله وسلم على سيدنا وقدوتنا رسول الله الذي أعلى الله شأنه بتزكية خلقه ورفع ذكره، حيث قال جل شأنه: ﴿وَأَنَّكَ لَآتَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: ٤]، وقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وعلى أصحابه كلهم وتابعيهم بإحسان، صلاةً وسلاماً دائماً ما كور الليل على النهار وكور النهار على الليل.

أما بعد فإن مقام سيدنا محمد ﷺ في قلوب المؤمنين عظيم، وكيف لا وهو الواسطة بينهم وبين ربهم في تبليغ وحيه سبحانه وهداه لعباده، وهو سيّد ولد آدم، أرسله الله رحمة للعالمين، وله الشفاعة الكبرى يوم البعث، وخصّه ربنا سبحانه بصفاتٍ وخصائص لم يعطها أحداً من الأنبياء قبله.

وقد ألف كثيرٌ من علماء الإسلام في صفاته ﷺ المنصوص عليها في الوحي، أو المنقولة عن صحبوه أو شاهدوه، وفي حقوقه وما يجب على المؤمنين به من طاعته وتبجيله وتوقيره، وما يتعلق بهذه من حرمة جنابه، وحكم من نال منه أو عرض به، ومن أشمل ما صنّف في ذلك كتاب «الشفاء

بتعريف حقوق المصطفى» للعلامة القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي رحمه الله تعالى، وهو كتابٌ جليل القدر، بين فيه القاضي ما أراه وقرّر، وجمع فيه فأكثر حتى إنه ليدكر بعضاً من موضوع الروايات وواهيها.

ولما صار غالب أهل زمننا يشقُّ عليهم التطويل لما يقرأون انتقى هذا الكتاب منه ليكون أقرب مُتناوِلاً؛ فيسهل إدراك مرامه، واستيعاب أخباره وأحكامه، لا سيما ونحن في زمنٍ نواجه فيه حملةً شرسةً منكراً سرّاً وعلانيةً على شريعة الله، وإنّ من تعظيم الله سبحانه تعظيم شريعته ومعرفة حقّ نبيّه ﷺ الذي جاء بها من عند الله.

وقد جرينا في العمل على انتقاء الثابت من الروايات مع حذف الأسانيد والمكرّر من الأخبار إلا ما اقتضت الحال إبقاءه، وعلى الاقتصار على ما كان ظاهر الدلالة من الآيات أو تفسيرها، وعلى ما له تعلق مباشر بالنبي ﷺ، والاكتفاء في الخلاف بالحقيقي مما لا يثير إشكالاً لدى عموم الناس.

وقد اختصرنا بعض ما يذكره المؤلف من مسائل، وبعض ما أطنب فيه، وأضفنا بعض النصوص في الحاشية مما أشار إليه، وشرحنا ما يفتقر إلى شرح من مفردات.

وأما تخريج الأحاديث فقد اتبعنا فيه أنه إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفي بالإشارة إلى ذلك، وإذا كان صاحب الصحيح قد أورداه في أكثر من موضع - كما يفعل ذلك البخاري كثيراً - فإنه يُكتفى بالإشارة إلى أقرب نص إلى ما ساقه صاحب الشفا، فإذا كانت الألفاظ متقاربة فإلى أول

موضع ورد فيه، فإن لم يكن في الصحيحين ولا أحدهما فإنه يُخرَج حسب ما يقتضيه المقام مُراعى في ذلك كله الاختصارُ ما أمكن. ثم المقدم في الذكر الأقدم وفاة على غيره إلا أصحاب السنن الأربعة، فيقدمون على غيرهم حسب مراتب سننهم فيما بينهم (أبو داود ثم النسائي ثم الترمذي ثم ابن ماجه).

هذا وقد استعنا بنسختين نفيستين من نسخ الكتاب المخطوطة، وهما نسخة جامعة ميتشيغان، ونسخة جامعة برنستون، وذلك في مواضع يشكك فيها المعنى أو الإعراب، وقد حرصنا أن يخرج الكتاب على ترتيب يُرجى أن يكون حسناً، ونسأل الله تبارك اسمه وتعالى جده إذ أعان على إتمام هذا العمل أن يرحم القاضي عياضاً رحمة واسعة لقاء ما كتب في جناب النبي ﷺ وجمعه، وأن ينفع بهذا المنتقى عامة المسلمين، فما هو إلا تذكير بالأصل خف محمله، وطوبى لمن ارتفع عند الله قوله وعمله.

مركز المربي للاستشارات التربوية والتعليمية

د/ يحيى بن إبراهيم اليحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد باسمِهِ الأسمى، الذي ليس دونه مُنتهى ولا وراءهُ مرْمى،
وسع كلُّ شيءٍ رحمةً وعلماً، وبعث فيهم رسولاً من أنفسهم أنفَسهم عرباً
وعجمًا، وأرجحهم عقلاً وحلمًا، وأوفرهم علمًا وفهمًا، وأقواهم يقينًا وعزمًا،
وأشدَّهم بهم رافةً ورُحماً، وآتاه حكمةً وحُكماً، وفتح به أعينًا عميًا وقلوبًا غُلْفًا
وآذانًا صُمًّا، فأمن به وعزَّره ونصره مَنْ جعل الله له في مغنم السَّعادة قسَمًا،
وكذَّب به وصدف عن آياته مَنْ كَتَبَ اللهُ عليه الشقاءَ حتمًا، ﴿ وَمَنْ كَانَتْ
فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾، صلى الله تعالى عليه صلاةً تنمو وتُنمى،
وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

أما بعد فلا يخفى على من مارس شيئًا من العلم، أو خُصَّ بأدنى لمحَّة
من الفهم تعظيمُ الله قدرَ نبينا ﷺ وخصوصُهُ إِيَّاه بفضائلٍ ومحاسنٍ؛ فمنها
ما صرَّح به تعالى في كتابه، وحضَّ العباد على التزامه؛ فكان جلَّ جلاله هو
الذي تفضَّل وأولى، ثمَّ طهَّر وزكَّى، ثمَّ مدح بذلك وأثنى، ثمَّ أثاب عليه
الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءًا وعودًا، والحمدُ أولى وأُخرى.

ومنها ما أبرزه للعيانٍ من خلقه على أتمِّ وجوه الكمالِ والجلالِ، وتخصيصه
بالمحاسنِ الجميلةِ والأخلاقِ الحميدةِ والمذاهبِ الكريمةِ والفضائلِ العديدةِ،
وتأييده بالمعجزاتِ الباهرةِ والبراهينِ الواضحةِ والكراماتِ البينةِ التي شاهدها
مَنْ عاصره، ورآها مَنْ أدركه، وعلمها علمٌ يقينٌ مَنْ جاء بعده، حتى انتهى
علمٌ حقيقةً ذلك إلينا، وفاضت أنواره علينا، صلى الله عليه وسلَّم كثيرًا.

الباب الأول في ثناء الله تعالى عليه ﷺ وأظهاره عظيم قدره لديه

اعلم أنّ في كتاب الله العزيز آيات كثيرةً مُفصَّحةً بجميل ذكر المصطفى ﷺ وعدّ محاسنه وتعظيم أمره وتنويه قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه وبان فحواه، وجمعنا ذلك في فصولٍ:

فصل فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وتعداد المحاسن

كقوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] الآية.
وقرئ شاذًّا «من أنفسكم» بفتح الفاء.

أعلم الله تعالى العرب أنّه بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه ويتحققون مكانه ويعلمون صدقه وأمانته، فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم لكونه منهم وأنّه لم تكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة، وهو عند ابن عباسٍ رضي الله عنه وغيره معنى قوله تعالى ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى: ٢٣]، وكونه من أشرفهم وأرفعهم وأفضلهم على قراءة الفتح، هذه نهاية المدح.

ثمَّ وصفه بعدُ بأوصافٍ حميدةٍ، وأثنى عليه بمحامدٍ كثيرةٍ، مِنْ حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يُعنتُّهم ويضربُّ بهم في دنياهم وأخراهم وعزته عليه، ورافته ورحمته بمؤمنيه. قال بعضهم: أعطاه اسمين من أسمائه: رؤوف رحيم.

وقال تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية، وفي الآية الأخرى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢] الآية، وقال تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥١] الآية.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى (من أنفسكم) قال: «نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس في آبائي من لدن آدم سِفَاحٌ كُلُّهَا نِكَاحٌ»^(١). وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٩] قال: من نبيٍّ إلى نبيٍّ حتى أخرجتك نبيًّا^(٢).

وقد زين الله تعالى محمداً ﷺ بزينة الرحمة، فكان هو وجميع شمائله وصفاته رحمةً على الخلق. ألا ترى أن الله تعالى يقول ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، فكانت حياته رحمةً ومماته رحمةً، كما قال ﷺ:

«حياتي خيرٌ لكم وموتي خيرٌ لكم»^(٣)، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

(١) أورده أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» (٤١٧/٣)، وعزاه السيوطي لابن مردويه. الدر المنثور (٣٢٧/٤).
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٥/١)، والبزار (كشف الأستار ٣/١١٠) عن أبي عاصم النبيل عن شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس، وإسناده لا بأس به، وصححه السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا (ص ٣١).

(٣) أخرجه البزار في مسنده (٣٠٨/٥) من حديث ابن مسعود، وفي سنده ضعف من أجل عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وله شاهد عند الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٨٨٤/٢) من حديث بكر بن عبد الله المزني وسنده

«إذا أراد الله رحمةً بأمةٍ قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً» (٤).

وقال السمرقندي : ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني للجن والإنس، قيل : لجميع الخلق ؛ للمؤمن رحمةً بالهداية، ورحمةً للمنافق بالأمان من القتل، ورحمةً للكافر بتأخير العذاب (٦).

قال ابن عباس رضي الله عنه : هو رحمة للمؤمنين والكافرين ؛ إذ عوفوا بما أصاب غيرهم من الأمم المكذبة (٧).

وقد سمّاه الله تعالى في القرآن في غير هذا الموضع نوراً وسراجاً منيراً، فقال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

ومن هذا قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] إلى آخر السورة، شرح : وسّع، والمراد بالصدر هنا: القلب، قال ابن عباس رضي الله عنه : شرحه بنور الإسلام، وقال سهل : بنور الرسالة، وقال الحسن : ملاءه حكماً وعِلماً.

ضعيف، وأورده الألباني في الضعيفة [٩٧٥].

(٤) صحيح مسلم (١٧٩١/٤).

(٦) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي (٤٤٥/٢).

(٧) المصدر السابق.

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۚ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح: ٢-٣] قيل: ما سَلَفَ مِنْ ذَنْبِكَ، يعني قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وقيل: أَرَادَ ثِقَلَ أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، وقيل: أَرَادَ مَا أَثْقَلَ ظَهْرَهُ مِنَ الرِّسَالَةِ حَتَّى بَلَغَهَا، حكاها الماورديُّ والسُّلَمِيُّ (٨).

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤] قال يحيى بن آدم: بالنُّبُوَّةِ، وقيل: إِذَا ذُكِرَتْ ذُكِرْتَ مَعِيَ فِي قَوْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، وقيل في الأذان والإقامة.

وهذا تقريرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ اسْمُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ لَدَيْهِ وَشَرِيفِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ وَكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ بِأَنْ شَرَحَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ وَالهُدَايَةِ، وَوَسَّعَهُ لِوَعْيِ الْعِلْمِ وَحَمَلَ الْحِكْمَةَ، وَرَفَعَ عَنْهُ ثِقَلَ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَيْهِ، وَبَغَّضَهُ لِسَيْرِهَا وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ بِظُهُورِ دِينِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَحَطَّ عَنْهُ عُهْدَةَ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ لِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَتَنوِيهِهِ بِعَظِيمِ مَكَانِهِ وَجَلِيلِ رُتْبَتِهِ وَرِفْعَةِ ذِكْرِهِ وَقِرَانِهِ مَعَ اسْمِهِ اسْمَهُ.

قال قتادة: رفع الله تعالى ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيبٌ ولا متشهدٌ ولا صاحبُ صلاةٍ إلا يقول: «أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ».

وروى أبو سعيدٍ الخُدَريُّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: إنَّ رَبِّي وَرَبُّكَ يَقُولُ: تَدْرِي كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسولُهُ أَعْلَمُ، قال: إِذَا ذُكِرْتَ ذُكِرْتَ مَعِيَ» (٩).

(٨) انظر: النكت والعيون للماوردي (٢٩٧/٦)، وحقائق التفسير للسلمي (٤٠٤/٢).

(٩) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥٢٢/٢) من طريق ابن لهيعة، وابن حبان في صحيحه (١٧٥/٨) من طريق عمرو بن الحارث، كلاهما عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد به، ودراج أبو السمع في حديثه عن أبي الهيثم ضعف

وَمِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَهُ تَعَالَى أَنْ قَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ وَاسْمَهُ بِاسْمِهِ فَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [النساء: ١٣٦]، فجمع بينهما بواو العطف المشتركة، ولا يجوز جمع هذا الكلام في غير حقه ﷺ.

عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ما شاء الله ثمَّ شاء فلان»^(١٠).

قال الخطابي: أرشدهم ﷺ إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه، واختارها بـ«ثمَّ» التي هي للتراخي بخلاف الواو التي هي للاشتراك^(١١).

ومثله الحديث الآخر: أن خطيباً خطبَ عند النبي ﷺ فقال: من يُطع الله ورسوله فقد رَشَدَ، ومن يَعصِهِمَا، فقال له النبي ﷺ: «بِئْسَ خَطِيبٌ الْقَوْمِ أَنْتَ، قُمْ - أَوْ قَالَ - اذْهَبْ»^(١٢). قال أبو سليمان: كَرِهَ مِنْهُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ بِحَرْفِ الْكِنَايَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّسْوِيَةِ^(١٣)، وذهب غيره إلى أنه إنما كَرِهَ لَهُ الْوَقُوفَ عَلَى «يَعصِهِمَا».

كما قال ابن حجر، ولذلك أورده الألباني في الضعيفة .

(١٠) أخرجه أبو داود (٢٩٥/٤)، وأحمد (٣٠٠/٣٨)، و٣٦٤، ٣٩٦)، وغيرهما وهو حديث صحيح.

(١١) معالم السنن (١٣٢/٤).

(١٢) صحيح مسلم (٥٩٤/٢)، ولفظ المصنف من سنن أبي داود (٢٨٨/١).

(١٣) معالم السنن (١٣١/٤).

وقولُ أبي سليمان أصحُّ لما روي في الحديث الصَّحيح أنه قال: «ومن يَعْصِمُهَا فَقَدْ عَوَى»^(١٤)، ولم يذكر الوقوف على «يعصهما».

فصل في وصفه تعالى له ﷺ بالشهادة وما يتعلق بها من الثناء والكرامة

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

جمع الله تعالى له في هاتين الآيتين ضربًا من رتب الأثرية، وجُملة أوصافٍ من المدحة، فجعله شاهدًا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة، وهي من خصائصه ﷺ، ومبشِّرًا لأهل طاعته، ونذيرًا لأهل معصيته، وداعيًا إلى توحيدِه وعبادته، وسِرَاجًا مُنِيرًا يُهْتَدَى به للحقِّ.

عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التَّوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا وحرزًا للأُمِّيِّينَ، أنت عدي ورسولي، سميتك المتوكِّل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سحاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيننا عميًا، وأذاننا صمًا، وقلوبنا غلفًا»^(١٥).

(١٤) صحيح مسلم (٥٩٤/٢).

(١٥) صحيح البخاري (٦٦/٣).

فصل فيما ورد من خطابه تعالى مورد الملاطفة والمبرّة

فمن ذلك قوله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال أبو محمّد مكيّ: قيل هذا افتتاح كلام بمنزلة: أصلحك الله، وأعزك الله. وقال عون بن عبد الله: أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب.

وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إيّاه وبرّه به ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب.

ويجب على المسلم المجاهد نفسه، الرائض بزمام الشريعة خُلُقَه أن يتأدّب بأداب القرآن في قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدنيوية والدنيوية، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من ربّ الأرباب، المنعم على الكلّ، المستغني عن الجميع ويستترّ ما فيها من الفوائد، وكيف ابتداء بالإكرام قبل العتب، وأنس بالعفو قبل ذكر الذنب، إن كان ثمّ ذنب.

وقال تعالى ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

قال بعضهم: عاتب الله الأنبياء صلوات الله عليهم بعد الزلّات، وعاتب نبينا ﷺ قبل وقوعه، ليكون بذلك أشدّ انتهاءً ومحافظةً لشرائط المحبّة، وهذه غاية العناية، ثمّ انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه. ففي أثناء عتبه براءته، وفي طيّ تخويفه تأمينه وكرامته.

ومثله قوله تعالى ﴿ قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] الآية. قال علي رضي الله عنه: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ الآية.

وروي أن النبي ﷺ لما كذبه قومه حزن، فجاءه جبرئيل عليه السلام فقال: ما يحزنك؟ قال: كذبنبي قومي، فقال: إنهم يعلمون أنك صادق، فأنزل الله تعالى الآية (١٨).

ففي هذه الآية منزع لطيف المأخذ من تسليته تعالى له ﷺ، وإطافه في القول بأن قرّر عنده أنه صادق عندهم، وأنهم غير مكذّبين له، معترفون بصدقه قولاً واعتقاداً، وقد كانوا يسمونه قبل النبوة الأمين، فدفع بهذا التقرير ارتماض (١٩) نفسه بسمة الكذب، ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فقال تعالى ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِجَحْدُونَ ﴾، إذ الجحد إنما يكون ممن علم الشيء ثم أنكره كقوله تعالى ﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، ثم عزّاه وأنسه بما ذكره عمّن قبله ووعداه بالنصر بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] الآية، فمن قرأ «لا يكذبونك» بالتخفيف فمعناه لا يجدونك كاذباً، وقال الفراء والكسائي: لا يقولون إنك كاذب، وقيل: لا يحتجون على كذبك ولا يثبتونه، ومن قرأ بالتشديد فمعناه لا ينسبونك إلى الكذب، وقيل: لا يعتقدون كذبك.

(١٨) تفسير الطبري (٣٣٣/١١).

(١٩) ارتضى فلان من كذا وكذا: إذا اشتد عليه وأغضبه. جمهرة اللغة (٧٥١/٢).

ومما ذكر من خصائصه وبرّ الله تعالى به أنّ الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى، يا زكريّا، يا يحيى، ولم يخاطب هو إلا بصفته: يا أيها الرسول، يا أيها النبي، يا أيها المرزمل، يا أيها المدثر.

فصل في قسمه تعالى بعظيم قدره ﷺ

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. هذا قسم من الله جلّ جلاله بمدّة حياة محمّد ﷺ، وأصله ضمّ العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمّد، وقيل: وعيشك، وقيل: وحياتك، وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ما خلق الله تعالى وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمّد ﷺ، وما سمعتُ الله تعالى أقسم بحياة أحدٍ غيره (٢٠).

قال تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢-٣].

قال النقّاش: لم يُقسم الله تعالى لأحدٍ من أنبيائه بالرّسالة في كتابه إلا له.

فصل في قسمه تعالى له ﷺ لتحقّق مكانته عنده

قال جلّ اسمه ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١-٢]. تضمّنت هذه السّورة من كرامة الله تعالى لنبيه ﷺ وتنويهه به وتعظيمه إياه ستة وجوه:

(٢٠) تفسير الطبري (١٧/١١٨).

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى ﴿ وَالصَّحَىٰ ۝١ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ أي وربِّ الصَّحَىٰ، وهذا من أعظم درجات المبرّة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ أي: ما تركك وما أبغضك، وقيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله تعالى ﴿ وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ ﴾ قال ابن إسحاق: أي ما لك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا، وقال سهل: أي ما أدخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خيرٌ لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى ﴿ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴾ وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين والزيادة. قال ابن إسحاق: يرضيه بالفلج^(٢١) في الدنيا والثواب في الآخرة، وقيل يعطيه الحوض والشفاعة.

الخامس: ما عدّه تعالى عليه من نعمه وقرّره من آلائه قبله في بقية السورة من الهداية والإغناء والإيواء.

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه وشكر ما شرفه به بنشره وإشادة ذكره بقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝ ﴾ فَإِنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ التَّحَدُّثُ بِهَا، وهذا خاصٌّ له عامٌّ لأُمَّته.

وقال تعالى ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ١] إلى قوله تعالى ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ

(٢١) قال الخليل بن أحمد: والفلج: الظفر بمن تخاصمه. العين (١٢٨/٦).

الْكُبْرَى ﴿ [النجم: ١٨] . تضمنت هذه الآيات من فضله وشرفه العِدَّة (٢٢) ما يقف
دونه العِدَّة، وأقسم جلَّ اسمه على هداية المصطفى وتنزيهه عن الهوى وصدقه
فيما تلا وأنه وحيُّ يوحى أوصله إليه عن الله جبرئيل وهو الشديد القوى .

ثمَّ أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء وانتهائه إلى سدرة المنتهى
وتصديق بصره فيما رأى وأنه رأى من آيات ربه الكبرى .

وقد نبّه على مثل هذا في أول سورة الإسراء، ولما كان ما كاشفه ﷺ من
ذلك الجبروت وشاهده من عجائب الملكوت لا تُحيط به العبارات ولا تستقلُّ
بحمل سماع أدناه العقول رمز عنه تعالى بالإيماء والكناية الدالة على التعظيم:

فقال تعالى ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾، وهذا النوع من الكلام يسميه
أهل النُّقد والبلاغة بالوحي والإشارة، وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز، ﴿ لَقَدْ
رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾، انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى، وتاهت
الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرى .

اشتملت هذه الآيات على إعلام الله تعالى بتزكيتة ﷺ في هذا المسرى،
فزكى قلبه بقوله تعالى ﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾، ولسانه بقوله ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
الْهَوَىٰ ﴾، وبصره بقوله ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وما هو على الغيب بظنين ﴾ أي بمتهم، ومن قرأها بالضاد فمعناه
ما هو ببخيلٍ بالدُّعاء به والتذكير بحكمه وبعلمه، وهذه لمحمدٍ ﷺ باتِّفاقٍ .

(٢٢) العِدَّة بالكسر الماء الذي له مادة لا تنقطع . الصحاح للجوهري (٥٠٦/٢) .

وقال تعالى ﴿ تَنْزِيلَ الْقَلَمِ ﴾ [القلم: ١] الآيات. أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه على تنزيه المصطفى ﷺ مما غمصته الكفرة به وتكذيبهم له، وأنسه وبسط أمله بقوله محسناً خطابه ﴿ مَا أَنْتَ بِعَمَةٍ رَيْكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: ٢]، وهذه نهاية المبرّة في المخاطبة وأعلى درجات الأداب في المحاورّة، ثم أعلمه بما له عنده من نعيم دائم وثواب غير منقطع لا يأخذه عدو ولا يمينٌ به عليه، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم: ٣].

ثم أثنى عليه بما منحه من هباته وهدايه إليه، وأكد ذلك تتميمًا للتمجيد بحرفي التأكيد، فقال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، قيل: القرآن وقيل: الإسلام وقيل: الطبع الكريم.

ثم سلّاه عن قولهم بعد هذا بما وعده به من عقابهم وتوعدهم بقوله ﴿ فَسَبِّحْهُ وَابْحُرْهُ وَابْصُرْهُ ۝٥ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القلم: ٥-٧].

ثم ذمّ عدوّه وذكر سوء خلقه وعدّ معايبه متولياً ذلك بفضله ومنتصراً لنيّبه ﷺ، فذكر بضع عشرة خصلةً من خصال الذمّ فيه بقوله تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُوا لَوْ نُذِّهْنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَمَّهينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذِ اتَّاتَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [القلم: ٨-١٥]، وختم ذلك بالوعيد الصادق بتمام شقائه وخاتمة بواره بقوله تعالى ﴿ سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرُوطِ ﴾ [القلم: ١٦]، فكانت نصرة الله تعالى لنيّبه أتم من نصرته ﷺ لنفسه وردّه تعالى على عدوّه أبلغ من ردّه وأثبت في ديوان مجده.

فصل فيما ورد من قوله تعالى في جهته ﷺ مورد الشفقة والإكرام

قال تعالى ﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ طه: ١ - ٢ ﴾. نزلت الآية فيما كان النبي ﷺ يتكلفه من السهر والتعب وقيام الليل (٢٣).

ومثل هذا من نمط الشفقة والمبرة قوله تعالى ﴿ فَلَئِكَ بَخِعْنَا نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦] أي قاتل نفسك لذلك غضبًا أو غيظًا أو جزعًا. ومثله قوله تعالى أيضًا ﴿ لَئِكَ بَخِعْنَا نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، ثم قال تعالى ﴿ إِنْ نَشَأْ نُزَلِّ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤].

ومن هذا الباب قوله تعالى ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] إلى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَاكَ يَصِيقًا صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (٩٧) ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٩٨) ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

وقوله ﴿ وَلَقَدْ أَسْهَزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [الأنعام: ١٠]، [الرعد: ٣٢]، [الأنبياء: ٤١] الآية. قال مكِّي: سلاه تعالى بما ذكر وهوّن عليه ما يلقاه من المشركين وأعلمه أنّ من تمادى على ذلك يحلّ به ما حلّ بمن قبله.

ومثل هذه التسلية قوله تعالى ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [فاطر: ٤].

[٤].

(٢٣) قال مجاهد في قوله ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ يعني: «في الصلاة»، وهو كقوله: ﴿ فَأَقْرُبُوا مَا يَسِّرْ مِنْهُ ﴾، قال: «وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة». تفسير مجاهد (ص ٤٦٠). وينظر: تفسير الطبري (٢٦٩/١٨).

ومن هذا قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢]، عزّاه الله تعالى بما أخبر به عن الأمم السالفة ومقاتلتها لأنبيائهم قبله ومحنتهم بهم، وسلاه بذلك عن محنته بمثله من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقي ذلك، ثم طيّب نفسه وأبان عذره بقوله تعالى: ﴿ فَنَوَّلْنَاهُمْ مِنْهُ ﴾، أي: أعرض عنهم ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾، أي: في أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، أي: اصبر على أذاهم، فإنك بحيث نراك ونحفظك، سلاه الله تعالى بهذا في أي كثيرة من هذا المعنى.

فصل فيما أخبر الله تعالى به من عظيم قدره ﷺ وشريف منزلته على الأنبياء عليهم السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبياً إلا ذكر له محمداً ونعته وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به، وقيل: أن يبينه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم.

وقوله ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ ﴾، الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ

عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث وهو حي ليؤمننَّ به ولينصرنَّه ويأخذنَّ العهد بذلك على قومه (٢٤).

قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ۗ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۗ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۗ ﴾ [١١٣] وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ۗ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۗ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۗ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١١٦﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٦].

قال السمرقندي: في هذا تفضيل نبينا ﷺ لتخصيصه بالذكر قبلهم وهو آخرهم بعثًا، المعنى: أخذ الله تعالى عليهم الميثاق إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذر (٢٥).

وقال تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۗ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية. قال أهل التفسير: أراد بقوله ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ محمدًا ﷺ؛ لأنه بعث إلى الأحمر والأسود وأحلت له الغنائم وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحد من الأنبياء أعطي فضيلة أو كرامة إلا وقد أعطى محمدًا ﷺ مثلها.

(٢٤) تفسير ابن كثير (٢/٦٧).

(٢٥) بحر العلوم (٣/٤٦).

فصل في إعلام الله تعالى خلقه بصلاته عليه ﷺ وولايته له ورفع العذاب بسببه

قال الله تعالى ﴿ وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، أي: ما كنت بمكة. فلما خرج النبي ﷺ من مكة وبقي فيها من بقي من المؤمنين نزل ﴿ وَمَا كَانُ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وهذا مثل قوله ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ﴾ [الفتح: ٢٥]، وقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الفتح: ٢٥] في آية ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ۗ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمَّ تَعَلَّمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥]، فلما هاجر المؤمنون نزلت ﴿ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وهذا من أبين ما يظهر مكانته ﷺ ودرأته العذاب عن أهل مكة بسبب كونه ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خلت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم وغلبتهم إياهم وحكم فيهم سيوفهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم

وفي الآية أيضًا تأويل آخر:

عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿ وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ وَمَا كَانُ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فإذا مضيت تركت فيكم الاستغفار»^(٢٦).

(٢٦) أخرجه الترمذي (٢٧٠/٥) بإسناد ضعيف، لكن له شواهد يرقى بها إلى درجة الحسن إن شاء الله، وقد أوردها

ونحوُ منه قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال عليه السلام: «أنا أمان لأصحابي» ^(٢٧)، قيل: من البدع، وقيل من الاختلاف والفتن. قال بعضهم: الرسول عليه السلام هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سنته باقيةً فهو باقٍ، فإذا أميت سنته فانتظروا البلاء والفتن.

وقال الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية.

أبان الله تعالى فضل نبيه عليه السلام بصلاته عليه ثمَّ بصلاة ملائكته وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه. وقد حكى أبو بكر ابن فورك أن بعض العلماء تأوّل قوله عليه السلام: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» على هذا، أي: في صلاة الله تعالى عليّ وملائكته وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة. والصلاة من الملائكة ومنّا له دعاءٌ ومن الله عزّ وجلّ رحمةٌ، وقيل: يصلّون يباركون، وقد فرق النبي عليه السلام حين علّم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة والبركة وسنذكر حكم الصلاة عليه.

وقال تعالى ﴿ إِنَّ نُؤُوبًا إِلَى اللَّهِ فَعَدَّ صَغَتْ قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤] الآية، مولاه أي وليّه وصالح المؤمنين، قيل الأنبياء وقيل الملائكة وقيل أبو بكر وعمر، وقيل عليّ رضي الله عنهم أجمعين، وقيل المؤمنون على ظاهره.

ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤٩/٤).

(٢٧) صحيح مسلم (٤/١٩٦١).

فصل فيما تضمنته سورة الفتح من كراماته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۝٤ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٥ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۝٦ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٨ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ۝٩ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝١١ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۝١٢ وَمَن أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٣ ﴾ [الفتح: ١ - ١٠].

تضمنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه وكرامته عند الله تعالى ونعمته لديه ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه؛ فابتدأ جل جلاله بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين بظهوره وغلبته على عدوه وعلو كلمته وشريعته وأنه مغفور له غير مؤاخذ بما كان وما يكون. قال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع أي أنك مغفور لك، وقال مكِّي: جعل الله المنة سبباً للمغفرة وكل من عنده لا إله غيره، منة بعد منة وفضلاً بعد فضل.

ثم قال: ﴿وَبُيِّنَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ أي: يرفع ذكرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك. فأعلمه تمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له، وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له، ورفع ذكره، وهدايتَه الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة، ونصره النصر العزيز، ومنته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم، وبشارتهم بما لهم عند ربهم بعد وفوزهم العظيم والعفو عنهم والستر لذنوبهم، وهلاك عدوه في الدنيا والآخرة ولعنهم وبُعدهم من رحمته وسوء مُنقلبهم.

ثم قال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية، فعد محاسنه وخصائصه من شهادته على أمته لنفسه بتبليغه الرسالة لهم، ومبشراً لأمته بالثواب، ومنذراً عدوه بالعذاب، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: أي تجلونه، وتنصرونه، وتبالغون في تعظيمه، ﴿وَتُوقِّرُوهُ﴾ أي تعظمونه، والأكثر والأظهر أن هذا في حق محمد ﷺ، ثم قال: ﴿وَسَيِّحُوهُ﴾، فهذا راجع إلى الله تعالى؛ قال ابن عطاء: جمع للنبي ﷺ في هذه السورة نِعَمٌ مختلفة من الفتح المبين وهي من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من أعلام الولاية؛ فالمغفرة تبرئة من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة، والهداية وهي الدعوة إلى المشاهدة.

فصل فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته ﷺ عليه ومكانته عنده وما خصه به

من ذلك عصمته من الناس بقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوا أَوْ يُقْتُلُوا أَوْ يُخْرِجُوا وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴾ [الأفصال: ٣٠] الآية، وقوله ﴿ إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠]، وما دفع الله به عنه في هذه القصة من أذاهم بعد تحريهم لهلكه وخلوصهم نحيًا في أمره، والأخذ على أبصارهم عند خروجه عليهم، وذهولهم عن طلبه في الغار وما ظهر في ذلك من الآيات ونزول السكينة عليه، وقصة سُراقَة بن مالك حسبما ذكره أهل الحديث والسِّيَر في قصة الغار وحديث الهجرة.

ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ۝٢ ۝٣ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ١-٣]. أعلمه الله تعالى بما أعطاه، والكوثر حوضه، وقيل: نهر في الجنة، وقيل: الخير الكثير. ثم أجاب عنه عدوه وردَّ عليه قوله فقال تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ أي عدوك ومبغضك، والأبتر الحقيير الذليل أو المفرد الوحيد أو الذي لا خير فيه.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]، قيل: السبع المثاني السور الطوال الأول، والقرآن العظيم أم القرآن، وقيل: السبع المثاني أم القرآن والقرآن العظيم سائره.

وقال: ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] الآية، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] الآية. فهذه من خصائصه (٢٨).

وقال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فخصهم بقومهم وبعث محمداً ﷺ إلى الخلق كافة كما قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود» (٢٩).

وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]. قال أهل التفسير: ﴿ الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي ما أنفذه فيهم من أمرٍ فهو ماضٍ عليه كما يمضي حكم السيد على عبده، وقيل: اتباع أمره أولى من اتباع رأي النفس، ﴿ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أي هنَّ في الحرمة كالأمهات حرم نكاحهنَّ عليهم بعده تكرمه له وخصوصيةً، ولأنهن له أزواج في الجنة.

وقال الله تعالى ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] الآية، أي: فضله العظيم بالنبوة.

(٢٨) يشير إلى ما جاء في تمام الآية من كونه ﷺ نبياً أمياً.

(٢٩) صحيح مسلم (٣٧٠/١)، وهو في صحيح البخاري (٩٥/١) أيضاً بلفظ: «وبعثت إلى الناس كافة».

الباب الثاني في تكميل الله تعالى له ﷺ المحاسن خلقاً وخلقاً وقرانه جميع الفضائل الدنيوية والدنيوية فيه نسقاً

اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم ﷺ الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله تعالى زلفى، ثم هي على فنين أيضاً؛ منها ما يتخلص لأحد الوصفين ومنها ما يتمازج ويتداخل.

فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان في جملته من كمال خلقتة وجمال صورته، وقوة عقله وصحة فهمه وفصاحة لسانه، وقوة حواسه وأعضائه واعتدال حركاته، وشرف نسبه وعزة قومه وكرم أرضه. ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه، وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخرى إذا قصد بها التقوي ومعونة البدن على سلوك طريقها وكانت على حدود الضرورة وقواعد الشريعة.

وأما المكتسبة الأخرى فسائر الأخلاق العلمية والآداب الشرعية من الدين والعلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة

والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصّمت والتّؤدّة والوقار والرّحمة وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها، وهي التي جماعها: حسن الخلق. وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلّة لبعض النّاس، وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها ولكنّه لا بدّ أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلّة شعبةٌ كما سنبينه إن شاء الله تعالى، وتكون هذه الأخلاق دنيويّةً إذا لم يرد بها وجه الله والدّار الآخرة، ولكنّها كلّها محاسن وفضائل باتّفاق أصحاب العقول السّليمة، وإن اختلفوا في موجب حسنها وتفضيلها.

فصلٌ فيه أنه اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال ما يشرف غيره بواحدة منها

إذا كانت خصال الكمال والجلال ما ذكرناه ورأينا الواحد منّا يتشرف بواحدةٍ منها أو اثنتين إن اتّفتت له في كلّ عصرٍ إمّا من نسبٍ أو جمالٍ أو قوّةٍ أو علمٍ أو حلمٍ أو شجاعةٍ أو سماحةٍ، حتّى يعظم قدره ويضرب باسمه الأمثال ويتقرّر له بالوصف بذلك في القلوب أثرٌ وعظمةٌ، وهو منذ عصورٍ خوالٍ رمم بوالٍ، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كلّ هذه الخصال، إلى ما لا يأخذه عدٌّ ولا يعبر عنه مقالٌ، ولا ينال بكسبٍ ولا حيلةٍ إلاّ بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة التّبوّة والرّسالة، والخلّة والمحبة والاصطفاء، والإسراء والرّؤية والقرب والدّنوّ والوحي، والشفاعة والوسيلة والفضيلة والدّرجة الرّفيعة والمقام المحمود، والبراق والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصّلاة بالأنبياء، والشّهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبشارة والنّذارة، والأمانة والهداية ورحمة للعالمين، وإعطاء

الرّضى والسّؤل والكوثر، وسماع القول وإتمام النّعمة، والعفو عمّا تقدّم وما تأخّر، وشرح الصّدر ووضع الإصر، ورفع الذّكر وعزّة النّصر، ونزول السّكينة والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة والسّبع المثاني والقرآن العظيم، وتزكية الأُمَّة، والدّعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين النّاس بما أراه الله، ووضع الإصر والأغلال عنهم، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات والعجم، ونبع الماء من بين أصابعه وتكثير القليل، وانشقاق القمر، والنّصر بالرّعب، وظلّ الغمام، وتسبيح الحصى وإبراء الآلام، والعصمة من النّاس، إلى ما لا يحويه محتفلٌ ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك ومفضّله به لا إله غيره، إلى ما أعدّ له في الدّار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القدس ومراتب السّعادة، والحسنى والزيادة التي تقف دونها العقول، ويحار دون إدراكها الوهم.

فصل في صفاته ﷺ الخلقية

إن قلت أكرمك الله لا خفاء على القطع بالجملة أنّه ﷺ أعلى النّاس قدرًا، وأعظمهم محلًّا، وأكملهم محاسن وفضلًا، وقد ذهبت في تفاصيل خصال الكمال مذهبًا جميلًا، شوّقني إلى أن أفق عليها من أوصافه ﷺ تفصيلًا.

فاعلم نور الله قلبي وقلبك وضاعف في هذا النّبّي الكريم حبّي وحبّك أنّك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبةٍ وفي جبلّة الخلقة وجدته ﷺ حائزًا لجميعها محيطًا بشتات محاسنها، دون خلافٍ بين نقلة الأخبار لذلك، بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع.

أمّا الصّورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها فقد جاءت الآثار الصّحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنّه ﷺ كان أزهر اللون^(١)، أدعج^(٢)، أنجل^(٣)، أشكل^(٤)، أهدب الأشفار^(٥)، أبلج^(٦)، أزج^(٧)، أقنى^(٨)، أفلج^(٩)، مدوّر الوجه، واسع الجبين.

كثّ اللّحية تملأ صدره، سواء البطن والصّدر، واسع الصّدر، عظيم المنكبين، ضخّم العظام، عبل العضدين والذّراعين والأسافل^(١٠)، رحب الكفّين والقدمين^(١١)، سائل الأطراف^(١٢).

أنور المتجرّد^(١٣)، دقيق المسربة^(١٤)، ربعة القدّ ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردّد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحدٌ ينسب إلى الطّول إلّا طاله

-
- (١) أبيض اللون مشرقه. غريب الحديث لابن قتيبة (٤٩٠/١).
- (٢) أدعج العينين، والدعج شدة سواد العين في شدة البياض. غريب الحديث لابن الجوزي (٣٣٨/١).
- (٣) عظيم المقلتين مع سوادها. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٧٤١/٣).
- (٤) أي: كان لونه ﷺ أبيض مشوباً بحمرة، والشكل اختلاط الحمرة بالبياض. انظر: تهذيب اللغة (١٦/١٠).
- (٥) أي: طويل شعر الأجناف. النهاية في غريب الحديث (٢٤٩/٥).
- (٦) من البلج، وهو ابيضاض ما بين الحاجبين ونقاؤه. الجمهرة لابن دريد (٢٦٩/١).
- (٧) من الزجج، وهو تقوّس في الحاجب مع طول في طرفه. النهاية في غريب الحديث (٢٩٦/٢).
- (٨) من القنا، وهو طول مرسن الأنف ودقة أرنبته وحذب في وسطه. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٤٩١/١).
- (٩) رجل أفلج، أي: المتباعدا ما بين الرّجلين، فأما في الأسنان فلا يقال إلّا أفلج الأسنان ومفلج الأسنان. الجمهرة لابن دريد (٤٨٧/١).
- (١٠) أي عريضها. انظر: غريب الحديث للقاسم بن سلام (٢٨/٣).
- (١١) وفي رواية مشهورة: شثن الكفين، يعني أنهما تميلان إلى الغلظ. انظر: المصدر السابق (٢٦/٣).
- (١٢) يريد الأصابع أنها طوال ليست بمنعقدة ولا متغضنة. غريب الحديث لابن قتيبة (٥٠٢/١).
- (١٣) أي: شديد بياض ما ظهر من بدنه، والمتجرّد ما جرّد عنه الثوب من بدنه، وأنور من النور، يريد شدة بياضه. انظر: المصدر السابق (٥٠٠/١).
- (١٤) المسربة بضم الراء وفتحها: الشعر المستدقّ ما بين اللبة إلى السّرة. غريب الحديث لابن قتيبة (٤٩٧/١).

ﷺ، رجل الشعر، إذا افترّ ضاحكًا افترّ عن مثل سنا البرق وعن مثل حبّ الغمام، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثنياه.

أحسن الناس عنقًا ليس بمطهم^(١٥) ولا مكلثم^(١٦)، متماسك البدن ضرب اللحم^(١٧).

قال البراء رضي عنه: ما رأيت من ذي لمة^(١٨) في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ^(١٩).

وقال أبو هريرة رضي عنه: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه^(٢٠).

وقال جابر بن سمرة رضي عنه وقال له رجل: كان وجهه ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديرًا^(٢١).

وقالت أمّ معبد رضي الله عنها في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيدٍ وأحلاه وأحسنه من قريبٍ^(٢٢).

(١٥) أي لم يكن بالبدان الكثير اللحم. غريب الحديث لابن الجوزي (٤٥/٢).

(١٦) قال أبو عبيد: معناه: لم يكن مستدير الوجه، ولكنه كان أسيلًا، وقال شمر: المكلثم من الوجوه: القصير الحنك، الداني الجهة المستدير الوجه. قال: ولا تكون الكلثمة إلا مع كثرة اللحم. تهذيب اللغة (٢٣٥/١٠).

(١٧) أي خفيف الجسم. انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين لابن فثوح الأزدي (ص ٥٢٣).

(١٨) اللمة الشعر إذا جاوز شحمة الأذنين. الجمهرة لابن دريد (١٦٨/١).

(١٩) صحيح مسلم (١٨١٨/٤).

(٢٠) أخرجه الترمذي (٦٠٤/٥)، وأحمد (٢٥٨/١٤) وابن حبان (٢١٥/١٤) وغيرهم.

(٢١) صحيح مسلم (١٨٢٢/٤).

(٢٢) جزء من حديث طويل يحكي قصة أم معبد، أخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٢٥٢/٦)، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٨٣٢/٢)، والأجري في الشريعة (١٤٩٦/٣)، والطبراني في الكبير (٤٨/٤)، والحاكم

وقال عليٌّ رضي الله عنه في آخر وصفه له: من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبّه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله رضي الله عنه (٢٣).

فصل في نظافة جسمه رضي الله عنه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن عورات الجسد

وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقدار وعورات الجسد فكان قد خصّه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثمّ تمّمها بنظافة الشرع وخصال الفطرة العشر.

عن أنس رضي الله عنه: قال ما شممت عنبراً (٢٤) قطّ ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله رضي الله عنه (٢٥).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أنّه رضي الله عنه مسح خدّه، قال: فوجدت ليده برداً وريحاً كأنّما أخرجها من جؤنة عطار (٢٦).

قال غيره: مسّها بطيبٍ أم لم يمّسّها يصفاح المصافح فيظلّ يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبّيّ فيعرّف من بين الصبيان بريحها (٢٧).

في المستدرک (١٠/٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢٣) أخرجه الترمذي (٥٩٩/٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٨/٦)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٦٠٤/٢)، وغيرهم بإسناد فيه انقطاع.

(٢٤) العنبر الطيب. ينظر: جهمرة اللغة لابن دريد (١١٢٣/٢)، والمحکم لابن سيده (٤٦٨/٢).

(٢٥) صحيح مسلم (١٨١٤/٤).

(٢٦) صحيح مسلم (١٨١٤/٤). والجؤنة بضم الجيم سفت مغشي بجلد، ظرف لطيب العطار. القاموس المحيط (ص ١١٨٥).

(٢٧) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٩٨/١-٣٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها في حديث طويل في صفة رسول الله ﷺ.

ونام رسول الله ﷺ في دار أنسٍ رضي عنه فغرق، فجاءت أمه بقارورةٍ تجمع فيها عرقه، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك، فقالت: نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب ^(٢٨).

وذكر البخاري في تاريخه الكبير عن جابرٍ رضي عنه: لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحدٌ إلا عرف أنه سلكه من طيبه ^(٢٩).

ومنه حديث عليٍّ رضي عنه: غسّلت النَّبِيَّ ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميِّت فلم أجد شيئاً، فقلت: طبت حياً وميِّتاً. قال: وسطعت منه ريحٌ طيبةٌ لم نجد مثلها قطَّ ^(٣٠).

ومثله قال أبو بكرٍ رضي عنه حين قبل النبي ﷺ بعد موته ^(٣١).

فصل في وفور عقله ﷺ وقوة حواسه

وأما وفور عقله وذكاء لُبِّه وقوّة حواسِّه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل النَّاسِ وأذكاهم، ومن تأمّل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلاً عما أفاضه من العلم وقرّره من الشَّرْع دون تعلم سبق ولا ممارسةٍ تقدّمت

(٢٨) صحيح مسلم (١٨١٤/٤).

(٢٩) التاريخ الكبير (٣٩٩/١).

(٣٠) سنن ابن ماجه (٤٧١/١)، وإسناده صحيح.

(٣١) صحيح البخاري (٦/٥).

ولا مطالعة للكتب منه لم يتر في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهته، وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لظهوره.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيه كأنما الأرض تطوى له، إننا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث ^(٣٢).

وفي صفته عليه السلام أن ضحكه كان تبسماً، إذا التفت التفت معاً، وإذا مشى مشى تقلعاً كأنما ينحط من صلب ^(٣٣).

فصل في فصاحة لسانه صلى الله عليه وسلم وبلاغة قوله

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحلّ الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ وجزالة قول، وصحة معانٍ وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم وخصّ بدائع الحكم، وعلم السنة العرب، فكان يخاطب كل قبيلة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطنٍ عن شرح كلامه وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه.

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه الماثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا

(٣٢) أخرجه الترمذي (٦٠٤/٥)، وابن حبان في صحيحه (٢١٥/١٤)، وإسناده على شرط مسلم.

(٣٣) أخرجه الترمذي (٥٩٩/٥)، وابن أبي شيبه في المصنف (٣٢٨/٦)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٦٠٤/٢)، وغيرهم بإسناد فيه انقطاع.

يوازي فصاحةً ولا يبارى بلاغةً. كقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم»^(٣٤). وقوله: «المرء مع من أحب»^(٣٥). و«الناس معادن»^(٣٦). و«المستشار مؤتمن»^(٣٧). و«رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم»^(٣٨). وقوله: «أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين»^(٣٩). و«إن أحببكم إليّ وأقربكم مني مجالسَ يومَ القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون»^(٤٠).

ونهيته عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ومنع وهات وعقوق الأمهات وواد البنات^(٤١). وقوله: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلقٍ حسن»^(٤٢). وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٤٣).

(٣٤) أخرجه أبو داود (٨٠/٣)، وابن ماجه (٨٩٥/٢)، وأحمد (٢٦٨/٢) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

(٣٥) صحيح مسلم (٢٠٣٤/٤).

(٣٦) صحيح البخاري (١٤٩/٤)، صحيح مسلم (١٩٥٨/٤).

(٣٧) أخرجه أبو داود (٣٣٣/٤)، والترمذي (١٢٥/٥)، وابن ماجه (١٢٣٣/٢) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

(٣٨) أخرجه أحمد في الزهد (ص٢٢٤)، وهناد بن السري في الزهد (٥٣٥/٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (ص

٧١)، وابن المقريئ في معجمه (ص٣٩٤)، والبيهقي في الشعب (١٧، ١٩/٧)، والقضاعي في مسند الشهاب

(٣٣٨، ٣٣٩/١) من طريقين عن الحسن مرسلاً ومرفوعاً، وحسنه الألباني في الصحيحة [٨٥٥] بمجموع طرقه.

(٣٩) صحيح البخاري (٨/١)، صحيح مسلم (١٣٩٣/٣).

(٤٠) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٤٤٣/١)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (ص٢٢٦)، ومدارة

الناس (ص٧٢) وذم الغيبة والنميمة (ص٣٥)، والطبراني في المعجم الصغير (٨٩/٢)، ومكارم الأخلاق له

(ص٣١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٠/١٠)، وأورده الألباني في الصحيحة [٧٥١].

(٤١) صحيح البخاري (١٠٠/٨)، صحيح مسلم (١٣٤١/٣).

(٤٢) أخرجه الترمذي (٣٥٥/٤) وصححه، وأحمد (٢٨٤/٣٥)، وأورده الألباني في الصحيحة [١٣٧٣].

(٤٣) صحيح البخاري (١٢٩/٣)، صحيح مسلم (١٩٩٦/٤).

إلى ما روتته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته ومخاطباته وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره وحاز فيها سبقاً لا يقدر قدره.

وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها ولا قدر أحد أن يفرغ في قلبه عليها كقوله: «حمي الوطيس»^(٤٤). و«لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين»^(٤٥). في أخواتها ما يدرك الناظر العجب في مضمونها ويذهب به الفكر في أداني حكمها.

فصل

وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه بما فصلناه فعلى ثلاثة أضرب:
ضربُ الفضل في قلته وضربُ الفضل في كثرته وضربُ تختلف الأحوال فيه.

فأما ما التمدح والكمال بقلته اتفاقاً وعلى كل حال عادةً وشريعةً فكالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء تتمدح بقلتهما وتذم بكثرتيهما لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشهوه وغلبة الشهوة، مسبب لمضار الدنيا والآخرة جالب لأدواء الجسد وخسارة النفس وامتلاء الدماغ، وقلته دليل على القناعة وملك النفس، وقمع الشهوة، مسبب للصحة وصفاء الخاطر وحدة الذهن، كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة والضعف، وعدم

(٤٤) صحيح مسلم (٣/١٣٩٨).

(٤٥) صحيح البخاري (٣١/٨)، صحيح مسلم (٤/٢٢٩٥).

الذكاء والفتنة، مسببٌ للكسل وعادة العجز وتضييع العمر في غير نفعٍ، وقساوة القلب وغفلته وموته.

وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذين الفئتين بالأقل، هذا ما لا يدفع من سيرته وهو الذي أمر به وحض عليه لا سيما بارتباط أحدهما بالآخر.

عن المقدم بن معديكرب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلاتُ يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه»^(٤٦).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط^(٤٧).

وكان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه، ما أطعموه قبل وما سقوه شرب^(٤٨).

ولا يعترض على هذا بحديث بريرة رضي الله عنها وقوله «ألم أر البرمة فيها لحم؟»^(٤٩)، إذ لعل سبب سؤاله ظنه رضي الله عنه اعتقادهم أنه لا يحل له فأراد

(٤٦) أخرجه الترمذي (٥٩٠/٤)، وابن ماجه (١١١١/٢)، وأحمد (٤٢٢/٢٨)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٢٦٥]، وصححه في الإرواء (٤١/٧) ورد على القائلين بالانقطاع.

(٤٧) لم أجده، وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها قولها: «ما شبع آل محمد ثلاثاً من خبز برٍّ حتى قبض»، أخرجه أحمد (١٢٧/٤٢)، وابن سعد في الطبقات (٤٠١/١)، وقولها: «إن كنا ننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ ناز»، أخرجه البخاري (١٥٣/٣)، ومسلم (٢٢٨٣/٤).

(٤٨) قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه». أخرجه البخاري (١٩٠/٤)، ومسلم (١٦٣٢/٣).

(٤٩) صحيح البخاري (٤٧/٧)، وتتمته: «قالوا: بلى، ولكن ذلك لحمٌ تصدق به على بريرة، وأنت لا تأكل الصدقة، قال: «عليها صدقةٌ ولنا هديّة».

بيان سنته، إذ رآهم لم يقدموه إليه مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به، فصدّق عليهم ظنّه وبين لهم ما جهلوه من أمره بقوله «هو لها صدقةٌ ولنا هديّةٌ».

وفي صحيح الحديث قوله ﷺ: «أما أنا فلا أكل متكثراً»^(٥٠). والاتكاء هو التمكن للأكل في الجلوس له كالمترّبّع وشبهه من تمكّن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه، والنبي ﷺ إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعياً، وليس معنى الحديث في الاتكاء الميل على شقّ عند المحققين.

وكذلك نومه ﷺ كان قليلاً شهدت بذلك الآثار الصحيحة.

ومع ذلك فقد قال ﷺ: «إنّ عينيّ تنامان ولا ينام قلبي»^(٥١).

وكان نومه على جانبه الأيمن استظهاراً على قلة النوم؛ لأنّه على الجانب الأيسر أهناً لهدوّ القلب وما يتعلّق به من الأعضاء الباطنة حينئذٍ لميلها إلى الجانب الأيسر، فيستدعي ذلك الاستثقال فيه والطول، وإذا نام النائم على الأيمن تعلق القلب وقلق فأسرع الإفاقة ولم يغمره الاستغراق.

فصل

والضرب الثاني ما يتفق التمدّح بكثرتة والفخر بوفوره كالنكاح والجاه. أمّا النكاح فمتفق فيه شرعاً وعادةً؛ فإنه دليل الكمال وصحة الذكورية ولم يزل التفاخر بكثرتة عادةً معروفةً والتمادح به سيرةً ماضيةً.

(٥٠) صحيح البخاري (٧٢/٧) بلفظ: «لا أكل متكثراً».

(٥١) صحيح البخاري (٥٣/٢)، وصحيح مسلم (٥٠٩/١).

وأما في الشرع فسنةٌ ماثورةٌ.

وقد قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: أفضل هذه الأمة أكثرها نساءً ^(٥٢)، مشيراً إليه

رضي الله عنه.

وقد قال رضي الله عنه: «تناكحوا تناسلوا فإنِّي مباهٍ بكم الأمم» ^(٥٣).

ونهى عن التبتل مع ما فيه من قمع الشهوة وغضّ البصر اللذين نبه عليهما

رضي الله عنه بقوله: «من كان ذا طولٍ فليتزوّج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج» ^(٥٤)،

حتى لم يره العلماء ممّا يقدر في الزهد.

وقد روينا عن أنسٍ رضي الله عنه أنه رضي الله عنه كان يدور على نسائه في الساعة من الليل

والنهار وهنّ إحدى عشرة، قال أنسٌ: وكنا نتحدّث أنه أعطي قوة ثلاثين

رجلاً. خرّجه النسائي ^(٥٥).

وأما الجاه فمحمودٌ عند العقلاء عادةً، وبقدر جاهه عظمه في القلوب، وقد

قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]،

لكن آفاته كثيرةٌ فهو مضرٌ لبعض الناس لعقبى الآخرة؛ فلذلك ذمّه من ذمه

ومدح ضدّه وورد في الشرع مدح الخمول وذمّ العلوّ في الأرض.

وكان رضي الله عنه قد رزق من الحشمة والمكانة في القلوب والعظمة قبل النبوة

عند الجاهليّة وبعدها وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه في نفسه

(٥٢) صحيح البخاري (٣/٧).

(٥٣) لم يصح بهذا اللفظ، وأخرجه أبو داود (٢٢٠/٢) والحاكم في المستدرک (١٧٦/٢) وغيرهما من حديث معقل بن يسار، ولفظه: «تزوجوا الولود الودود فإنني مكاثر بكم الأمم»، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٣٨٤].

(٥٤) صحيح البخاري (٢٦/٣)، وصحيح مسلم (١٠١٩/٢) بلفظ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنه أغضّ..».

(٥٥) سنن النسائي الكبرى (٢٠٧/٨)، وأخرجه البخاري أيضاً (٦٢/١).

خفيةً، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، وأخباره في ذلك معروفةٌ سيأتي بعضها.

وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم يره كما روي عن قيلة أنها لما رآته أرعدت من الفرق فقال: «يا مسكينة عليك السكينة»^(٥٦).

وفي حديث أبي مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قام بين يديه فأرعد فقال له: «هون عليك فإنني لست بملك» الحديث^(٥٧).

فصل

وأما الضرب الثالث فهو ما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله ككثرة المال، فصاحبه على الجملة معظمٌ عند العامة لا اعتقادها توصله به إلى حاجاته وتمكّن أعراضه بسببه، وإلا فليس فضيلةً في نفسه، فمتى كان المال بهذه الصورة وصاحبه منفقاً له في مهمّاته ومهمّات من اعتراه وأمله وتصريفه في مواضعه مشترياً به المعالي والثناء الحسن والمنزلة من القلوب كان فضيلةً في صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرفه في وجوه البرّ وأنفقه في سبل الخير وقصد بذلك الله والدار الآخرة كان فضيلةً عند الكلّ بكلّ حالٍ، ومتى كان صاحبه ممسكاً له غير موجّه وجوهه حريصاً على

(٥٦) قصة قيلة أخرج طرفاً منها أبو داود (٢٦٢/٤)، والترمذي (١٢٠/٥)، وأخرجها بتمامها ابن سعد في الطبقات (٢٤٠/١-٢٤٢)، وابن أبي خيثمة في تاريخه (٨٢٩-٨٣٨)، والطبراني في الكبير (١٠٨/٢٥)، وذكر ابن حجر في الإصابة (٢٨٨/٨) تحسين أبي عمر له، ولعله يقصد ابن عبد البر.
(٥٧) أخرجه ابن ماجه (١١٠١/٢)، وابن سعد في الطبقات (٢١/١) وغيرهما، وأورده الألباني في الصحيحة [١٨٧٦].

جمعه عاد كثره كالعدم، وكان منقصَةً في صاحبه ولم يقف به على جَدَد السَّلامة، بل أوقعه في هوة رذيلة البخل ومذمة النذالة.

فإذا التَّمَدَّحَ بالمال وفضيلته عند مفضله ليس لنفسه، وإنما هو للتَّوصِّلِ به إلى غيره وتصريفه في متصرِّفاته، فجامعه إذا لم يضعه مواضعه ولا وجهه وجوهه غير مليءٍ بالحقيقة ولا غنيٍّ بالمعنى ولا ممتدِّحٍ عند أحدٍ من العقلاء، بل هو فقيرٌ أبداً غير واصلٍ إلى غرضٍ من أغراضه، إذ ما بيده من المال الموصل لها لم يسَلِّط عليه، فأشبهه خازن مال غيره ولا مال له، فكأنه ليس في يده منه شيء، والمنفق مليءٌ غنيٌّ بتحصيله فوائد المال وإن لم يبق في يده من المال شيء.

فانظر سيرة نبينا ﷺ وخلقته في المال تجده قد أوتي خزائن الأرض ومفاتيح البلاد، وأحلَّت له الغنائم ولم تحلَّ لنبيٍّ قبله، وفتح عليه في حياته ﷺ بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب وما داني ذلك من الشام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يجبي للملوك إلا بعضه، وهادته جماعةٌ من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهماً، بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين، وقال: «ما يسرّني أن لي أحداً ذهباً بيت عندي منه دينارٌ إلا دينارٌ أُرصده لدين»^(٥٨)، وأتته دنانير مرّةً فقسمها وبقيت منها ستّة، فدفعها لبعض نساءه، فلم يأخذه نومٌ حتّى قام وقسمها، وقال: «الآن استرحت»، ومات ودرعه مرهونةٌ في نفقة

(٥٨) صحيح البخاري (١١٦/٣)، وصحيح مسلم (٦٨٧/٢).

عياله واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعوه ضرورته إليه وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجدته، فيلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخصوصة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر، إذ المباهاة في الملابس والتزيين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء، والمحمود منها نقاوة الثوب والتوسط في جنسه، وكونه لبس مثله، غير مسقط لمروءة جنسه، مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرفين، وقد ذمّ الشرع ذلك، وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود ووفور الحال، وكذلك التباهي بجودة المسكن وسعة المنزل وتكثير آلاته وخدمته ومركوباته، ومن ملك الأرض وجبى إليه ما فيها وترك ذلك زهداً وتنزهاً فهو حائز لفضيلة المالية ومالك للفخر بهذه الخصلة إن كانت فضيلة، زائدٌ عليها في الفخر ومعرقٌ في المدح بإضرابه عنها وزهده في فانيها وبذلها في مظانها.

فصل في أخلاقه ﷺ

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها فضلاً عما فوقه وأثنى الشرع على جميعها وأمر بها ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة وهي المسماة بحسن الخلق وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها، فجميعها قد كانت خلق نبينا ﷺ على الانتهاء في كمالها والاعتدال

إلى غايتها حتى أثنى الله عليه بذلك فقال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

[القلم: ٤].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه^(٥٩). وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٦٠). وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً^(٦١).

فصل في حلمه ﷺ وعفوه وصبره

وأما الحلم والاحتمال والعمو مع المقدرة والصبر على ما يكره فمن عظيم ما اتصف به ﷺ، وبين هذه الألقاب فرق، فإن الحلم حالة توقّر وثبات عند الأسباب المحرّكات، والاحتمال حبس النفس عند الآلام والمؤذيات، ومثلها الصبر ومعانيها متقاربة، وأما العفو فهو ترك المؤاخذة.

وهذا كله بما آدب الله تعالى به نبيه ﷺ، فقال تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال له ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال تعالى ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال ﴿ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ﴾ [النور: ٢٢]، وقال تعالى ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]، ولا

(٥٩) عزاه ابن حجر في الفتح (٥٧٥/٦) إلى صحيح مسلم، ولم أجده عنده إلا بلفظ: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان

القرآن». انظر: صحيح مسلم (٥١٢/١) وشرح النووي عليه (٢٦/٦).

(٦٠) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٩٢/١)، وأحمد (٥١٣/١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٤٣)، وابن أبي

الدنيا في مكارم الأخلاق (ص ١٣) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

(٦١) صحيح البخاري (٤٥/٨)، وصحيح مسلم (٤٥٧/١).

خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كلَّ حليم قد عرفت منه زلةً وحفظت عنه هفوةً، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خيّر رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها» (٦٢).

وروي أن النبي ﷺ لما كسرت رباعيته وشجَّ وجهه يوم أحد شقَّ ذلك على أصحابه شقاً شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم فقال: «إني لم أبعث لعاناً ولكنني بعثت داعياً ورحمةً، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» (٦٣).

انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم؛ إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم، فقال: «اهد»، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله «لقومي»، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: «فإنهم لا يعلمون».

(٦٢) صحيح البخاري (١٦٠/٨)، وصحيح مسلم (١٨١٣/٤).

(٦٣) لم نجد من أخرجه بهذا السياق، ويشهد للشطر الأول ما أخرجه مسلم (٢٠٠٦/٤) بلفظ: «قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمةً». والشطر الثاني أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٥٤/٣) من حديث سهل بن سعد ؓ، ويشهد له ما في البخاري (١٧٥/٤) ومسلم (١٤١٧/٣) من حديث ابن مسعود ؓ قال: كآني أنظر إلى النبي ﷺ، يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

ولما قال له الرجل: «اعدل، فإنّ هذه قسمة ما أريد بها وجه الله» لم يزد في جوابه أن بين له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له، فقال: «ويحك، فمن يعدل إن لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أعدل»، ونهى من أراد من أصحابه قتله (٦٤).

ولما تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ورسول الله ﷺ متبذ تحت شجرة وحده قائلاً والناس قائلون في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف صلتاً في يده، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله، فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه، فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس (٦٥).

ومن عظيم خبره في العفو عفوّه عن اليهوديّة التي سمّته في الشاة بعد اعترافها على الصحيح من الرواية (٦٦).

وأنه لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره وقد أعلم به وأوحى إليه لشرح أمره، ولا عتب عليه فضلاً عن معاقبته (٦٧).

(٦٤) صحيح البخاري (٢٠٠/٤)، وصحيح مسلم (٧٤٤/٢).

(٦٥) أخرجه أحمد (١٩٣/٢٣)، وأبو يعلى (٣١٢/٣)، وابن حبان في صحيحه (١٣٨/٧)، والحاكم في المستدرک (٣١/٣)، وأصل القصة في الصحيحين، صحيح البخاري (٣٩/٤)، وصحيح مسلم (١٧٨٦/٤) دون ذكر اسم الأعرابي إلى قوله: «فجاء إلى قومه..».

(٦٦) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٤٧/٥)، وفتح الباري لابن حجر (٢٤٥/١٠).

(٦٧) أصل الخبر أخرجه البخاري (١٣٧/٧)، ومسلم (١٧١٩/٤)، وأشار ابن حجر في الفتح (٢٣١/١٠) إلى عفوّه عنه في رواية عمرة عن عائشة، وعلق البخاري (١٠١/٤) عن ابن شهاب، سئل: أعلى من سحر من أهل العهد قتل؟ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب.

وكذلك لم يُؤاخِذْ عبد الله بن أبيّ وأشباؤه مِنَ المنافقينِ بِعظيمِ ما نُقِلَ عنهم في جهته قولاً وفعلاً، بل قال لمن أشار بِقتلِ بعضهم: «لا، لئلا يُتحدّثَ أنّ محمّداً يقتل أصحابه»^(٦٨).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه بردٌ نجرايٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبذه بردائه جبذةً شديدةً، حتّى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثمّ قال: يا محمّد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ ضحك، ثمّ أمر له بعتاءٍ»^(٦٩).

وقال أنسٌ رضي الله عنه: هبط ثمانون رجلاً من التّنعيم صلاة الصّبح ليقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ٢٤]^(٧٠).
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضى صلى الله عليه وسلم.

فصل في جوده صلى الله عليه وسلم وكرمه وسماحته

وأما الجود والكرم والسّخاء والسّماحة فكان صلى الله عليه وسلم لا يوازي فيها ولا يبارى، بهذا وصفه كلّ من عرفه.

(٦٨) صحيح البخاري (١٥٤/٦)، وصحيح مسلم (١٩٩٨/٤).

(٦٩) صحيح البخاري (١٤٦/٧)، ومسلم (٧٣٠/٢).

(٧٠) صحيح مسلم (١٤٤٢/٣).

ومعانيها متقاربة، وقد فرّق بعضهم بينها بفروقٍ فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خَطْرُه ونفعه، وسمّوه أيضًا جرأةً وهو ضدّ النّذالة، والسماحة التجافي عمّا يستحقّه المرء عند غيره بطيب نفسٍ وهو ضدّ الشّكاسة، والسّخاء سهولة الإنفاق وتجنّب اكتساب ما لا يحمد، وهو الجود وهو ضدّ التّقدير.

عن ابن المنكدر سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء فقال لا (٧١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الرّيح المرسله (٧٢).

وعن أنس رضي الله عنه أنّ رجلاً سأله فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه وقال: أسلموا؛ فإنّ محمّداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقةً (٧٣).

وأعطى غير واحدٍ مائةً من الإبل، وأعطى صفوان رضي الله عنه مائةً ثمّ مائةً ثمّ مائةً (٧٤).

(٧١) صحيح البخاري (١٣/٨)، وصحيح مسلم (١٨٠٥/٤).

(٧٢) صحيح البخاري (٨/١)، وصحيح مسلم (١٨٠٣/٤).

(٧٣) صحيح مسلم (١٨٠٦/٤) [٢٣١٢].

(٧٤) صحيح مسلم (١٨٠٦/٤) [٢٣١٣].

وهذه كانت خلقه ﷺ قبل أن يبعث، وقد قال له ورقة بن نوفل رضي الله عنه: إنك تحمل الكلّ وتكسب المعدوم ^(٧٥).

وردّ على هوازن سباياها وكانت ستّة آلاف ^(٧٦). وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله ^(٧٧). وجاءه رجلٌ فسأله فقال: ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناها فقال له عمر رضي الله عنه: ما كلّفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبيّ ﷺ ذلك فقال رجلٌ من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، فتبسّم رضي الله عنه وعرف البشر في وجهه، وقال: بهذا أمرت ^(٧٨).

والخبر بجوده رضي الله عنه وكرمه كثيرٌ.

فصل في شجاعته رضي الله عنه ونجدته

وأما الشجاعة والنّجدة فكان رضي الله عنه منهما بالمكان الذي لا يجهل، قد حضر المواقف الصّعبة وفرّ الكمأة والأبطال عنه غير مرّة وهو ثابت لا يبرح، ومقبلٌ لا يدبر ولا يتزحزح، وما شجاعٌ إلا وقد أحصيت له فرّةٌ وحفظت عنه

(٧٥) هذا قول خديجة رضي الله عنها لا قول ورقة، وهو في الصحيحين: صحيح البخاري (٧/١)، وصحيح مسلم (١٣٩/١).

(٧٦) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٧٩/٥) وأبو عبيد في الأموال (ص ١٥٦)، وغيرهما من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب مرسلًا، وبعضهم يذكر مع ابن المسيب عروة بن الزبير. وهذا وإن كان مرسلًا فهو مرسل قوي، وقد قال الإمام أحمد: مراسلات سعيد بن المسيب صحاح، لا نرى أصح من مراسلاته. ينظر: شرح علل الترمذي (٥٣٩/١).

(٧٧) أخرجه البخاري (٩١/١) معلقاً بصيغة الجزم. ينظر: تعليق التعليق (٢٢٧/٢).

(٧٨) أخرجه الترمذي في الشمائل (ص ٢٠١)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٦٦١]، وصححه بمجموع طرقه.

جولة^(٧٩) سواء ﷺ، والشجاعة فضيلة قوّة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف.

عن أبي إسحاق أنه سمع البراء رضي الله عنه وسأله رجل: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ، ثم قال: لقد رأيتته على بغلته البيضاء وأبو سفيان^(٨٠) أخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول: أنا النبي لا كذب.

وزاد غيره: أنا ابن عبد المطلب^(٨١).

وذكر مسلم عن العباس رضي الله عنه قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطلق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار، وأنا أخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان أخذ بركابه ثم نادى: يا للمسلمين - الحديث -^(٨٢).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ.^(٨٣)

وقال علي رضي الله عنه: إنا كنا إذا حمي البأس - ويروى اشتد البأس - واحمرت

(٧٩) أي: تردد ونفرة. شرح الشف للملا علي قاري (٢٦١/١).

(٨٠) هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته كما جاء مصرحاً في بعض طرق الحديث عند البخاري ومسلم. انظر: صحيح البخاري (٣٢/٤)، وصحيح مسلم (١٤٠٠/٣).

(٨١) صحيح البخاري (٣٠/٤)، وصحيح مسلم (١٤٠٠/٣).

(٨٢) صحيح مسلم (١٣٩٨/٣).

(٨٣) أخرجه الدارمي في سننه (٢٠٤/١)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص ٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢٤٤/٧)، وصححه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص ٨٦٦).

الحدق^(٨٤) اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، كان من أشدّ الناس يومئذٍ بأساً^(٨٥).

وعن أنسٍ رضي الله عنه: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فرغ أهل المدينة ليلةً فانطلق ناسٌ قبل الصّوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصّوت، وقد استبرأ الخبر على فرسٍ لأبي طلحة عُرّي والسيف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا^(٨٦).

فصل في حياته وَاغْضَائِهِ

وأما الحياء والإغضاء فكان النبي ﷺ أشدّ الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إغضاءً، قال الله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِئُ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. والحياء رقةٌ تعترى وجه الإنسان عند فعل ما يتوقّع كراهيته أو ما يكون تركه خيراً من فعله، والإغضاء التّعافل عمّا يكره الإنسان بطبيعته.

(٨٤) جمع حدقة، والحدقة السّواد المستدير وسط بياض العين وقيل: هي في الظاهر سواد العين، وفي الباطن خرزتها. المحكم (٥٦٧/٢).

(٨٥) الشطر الأول أخرجه النسائي في الكبرى (٣٤/٨)، والحاكم في المستدرک (١٥٥/٢) وصححه، وأخرج الشطر الثاني أحمد (٨١/٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤٢٦/٦)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٥٩٩/٢)، وإسناده صحيح.

(٨٦) صحيح البخاري (٣٩/٤)، وصحيح مسلم (١٨٠٢/٤).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه ^(٨٧).

وكان ﷺ لطيف البشرة رقيق الظاهر، لا يشافه أحداً بما يكرهه حياءً وكرم نفسٍ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يقل: ما بال فلانٍ يقول كذا، ولكن يقول: ما بال أقوامٍ يصنعون أو يقولون كذا، ينهى عنه ولا يسمي فاعله ^(٨٨).

وروى أنس رضي الله عنه أنه دخل عليه رجلٌ به أثر صفرةٍ فلم يقل له شيئاً، وكان لا يواجه أحداً بما يكره، فلما خرج قال: لو قلت له يغسل هذا، ويروى ينزعها ^(٨٩).

قالت عائشة رضي الله عنها في الصحيح: لم يكن النبي ﷺ فحاشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ^(٩٠).

فصل في حسن عشرته ﷺ وأدبه

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه ﷺ مع أصناف الخلق فبحيث انتشرت به الأخبار الصحيحة.

(٨٧) صحيح البخاري (٢٦/٨)، وصحيح مسلم (١٨٠٩/٤).

(٨٨) أخرجه أبو داود (٢٥٠/٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٤/١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٠٦٤].

(٨٩) أخرجه أبو داود (٨١/٤)، وأحمد (٣٦٦/١٩)، والطيالسي في مسنده (٥٩٠/٣).

(٩٠) أخرجه الترمذي (٣٦٩/٤)، وأحمد (٢٥٧/٤٢)، وابن حبان في صحيحه (٣٥٥/١٤) بإسناد صحيح.

قال الله تعالى ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وكان يجب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كراعا ويكافئ عليها.

قال أنس رضي الله عنه: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لشيء صنعته: لم صنعته ولا لشيء تركته: لم تركته ^(٩١).

وقال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: ما حجبتني رسول الله صلى الله عليه وسلم قط منذ أسلمت، ولا رأني إلا تبسم ^(٩٢).

وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ^(٩٣). ويداعب صبيانهم ويجلسهم

(٩١) صحيح البخاري (١٤/٨)، وصحيح مسلم (٤/٤٠٤).

(٩٢) صحيح البخاري (٤/٦٥)، وصحيح مسلم (٤/١٩٢٥).

(٩٣) من صور ملاحظته قوله لسفيينة رضي الله عنه: لما رآه يحمل شيئاً كثيراً: «أنت سفينة»، أخرجه أحمد (٣٦/٢٥١)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٤/١٦٧)، وإسناده حسن.

ومن ذلك ما رواه أحمد (٢٠/٩٠) وغيره من أصحاب المسانيد وابن حبان في صحيحه (١٣/١٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً، وكان يهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن زاهراً باديتنا، ونحن حاضر وه». وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه، وكان رجلاً دميماً، فاتاه النبي صلى الله عليه وسلم يوماً وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل، فقال: أرسلني من هذا، فالتفت فعرف النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي صلى الله عليه وسلم حين عرفه، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من يشتري العبد؟» فقال: يا رسول الله، إذا والله تجدني كاسداً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكن عند الله لست بكاسد» أو قال: «لكن عند الله أنت غال»، وإسناده على شرط الشيخين.

ومن ذلك ما رواه أبو داود (٤/٣٠٠)، وأحمد (٣٩/٤٢٣)، والحاكم في المستدرک (٤/٤٦٩) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قبة من آدم، فسلمت فرد وقال: «ادخل» فقلت: أكلني يا رسول الله؟ قال: «كلك» فدخلت. ونقل أبو داود عن ابن أبي عاتكة (راوي الحديث) قوله: «إنما قال: «أدخل كلي» من صغر القبة».

ومن ذلك ما رواه ابن ماجه (٢/١١٣٩)، والحاكم في المستدرک (٣/٤٥١) وصححه ووافقه الذهبي من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم، وبين يديه خبزٌ وتمرٌ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ادن فكل» فأخذت أكل من التمر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تأكل تمرًا وبك رمد؟» قال، فقلت: إني أمضغ من ناحية أخرى، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

في حجره^(٩٤). ويجب دعوة الحرّ والعبد والأمة والمسكين^(٩٥). ويعود المرضى في أقصى المدينة^(٩٦) ويقبل عذر المعتذر.

قال أنس رضي الله عنه: ما التقم أحدُ أذن رسول الله ﷺ فينحني رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحني رأسه، وما أخذ أحدٌ بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ^(٩٧).

(٩٤) من ذلك قصة أبي عمير رضي الله عنه في الصحيحين، البخاري (٣٠/٨)، ومسلم (١٥٩٢/٣)، ومن ذلك ما رواه الشيخان (البخاري ٦٦/٣، ومسلم ١٨٨٢/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في طائفة من النهار، لا يكلمني ولا أكلمه، حتى جاء سوق بني قينقاع، ثم انصرف، حتى أتى خيابة فاطمة فقال: «أَتَمَّ لُكْعُ؟ أَتَمَّ لُكْعُ؟» يعني حسناً، فظننا أنه إنما تحبسه أمه لأن تغسله وتلبسه سخاباً (قلادة من طيب)، فلم يلبث أن جاء يسعى، حتى اعتنق كل واحدٍ منهما صاحبه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أُحِبُّه، فأحِبِّه وأحِبِّ مَنْ يُحِبُّه». ومن ذلك ما رواه مسلم (١٨٠٥/٤) من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت: والله لا أذهب! وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيانٍ وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك؟ قال: قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله.

ومن ذلك ما رواه النسائي في الكبرى (٣٨٦/٧)، وأحمد (٣٤٥/١٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٠٦/٢) من حديث أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم، ويمسح برءوسهم، ويدعو لهم». (٩٥) روى الحاكم في المستدرک (٥٠٦/٢) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم»، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة [٢١١٢] بمجموع طرقه.

وأخرج البخاري (٢٠/٨) تعليقاً مجزوماً به، وأحمد (٩/١٩)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٧/١٠) من حديث أنس رضي الله عنه قال: «إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتطق به في حاجتها حيث شاءت». (٩٦) أخرج مسلم في صحيحه (٦٣٧/٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فسلم عليه، ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة؟»، فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ: «من يعود منكم؟»، فقام، وقمنا معه، ونحن بضعة عشر، ما علينا نعال، ولا خفاف، ولا قلائس، ولا قمص، نمشي في تلك السباح حتى جئناه.

(٩٧) إلى هنا أخرجه أبو داود (٢٥١/٤) وابن الأعرابي في معجمه (٦٦٣/٢) والبيهقي في الشعب (٤٤٨/١٠)، وإسناده حسن.

وقال عبد الله بن الحارث رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩٨).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان خدام المدينة يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة بأنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بأنية إلا غمس يده فيها، وربما كان ذلك في الغداة الباردة» (٩٩)، يريدون به التبرك.

فصل في شفقتة صلى الله عليه وسلم ورأفته ورحمته لجميع الخلق

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوةً وذكر حينئذٍ، قال: فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة. قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إليّ فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليّ (١٠٠).

(٩٨) أخرجه الترمذي (٦٠١/٥)، وفي الشمائل (ص ١٣٦)، وأحمد (٢٤٥/٢٩)، وحسنه السيوطي في مناهل الصفا (ص ٧٠)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (ص ١٢٠) بمجموع طرقه.
(٩٩) صحيح مسلم (١٨١٢/٤)، وأخرجه أحمد (٣٩٣/١٩) بإسناد مسلم.
(١٠٠) صحيح مسلم (١٨٠٦/٤).

وروي أنّ أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً، فأعطاه ثمّ قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفّوا، ثمّ قام ودخل منزله، وأرسل إليه ﷺ وزاده شيئاً، ثمّ قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً، فقال له النبيّ ﷺ: إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ حتّى يذهب ما في صدورهم عليك، قال: نعم. فلمّا كان الغد أو العشيّ جاء فقال ﷺ: إنّ هذا الأعرابيّ قال ما قال فردناه فزعم أنّه رضي أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً. فقال النبيّ ﷺ: مثلي ومثل هذا مثل رجلٍ له ناقةٌ شردت عليه فاتّبعها الناس فلم يزيدها إلّا نفوراً فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي فإنّي أرفق بها منكم وأعلم، فتوجّه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتّى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها، وإنّي لو تركتكم حيث قال الرّجل ما قال فقتلتموه دخل النار^(١٠١).

ومن شفقتة ﷺ على أمّته تخفيفه وتسهيله عليهم، وكرهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم.

(١٠١) أخرجه البزار في مسنده (٢٩٤/١٥)، والروزي في تعظيم قدر الصلاة (٩٢٩/٢)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (٤٧٢/١)، كلهم من حديث أبي هريرة ؓ، وفي إسناده إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو ضعيف. لكن قال الروزي بعد أن ساق متن الحديث: «أخبرني بذلك عدة، منهم: إبراهيم بن الحكم بن أبان». ولم نجد فيما بين أيدينا من المصادر أحداً من هؤلاء المتابعين، وقد احتج الروزي بهذا الحديث على كفر من رد على النبي ﷺ، ولكن يرقى بمن هذا حاله لجهله ولكون فعله لم يصدر من استهانة، وكذلك فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول (ص ١٧٨).

كقولهِ عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم بالسَّواك مع كلِّ وضوءٍ»^(١٠٢). وخبر صلاة الليل ونهيه عن الوصال^(١٠٣). وكرهته دخول الكعبة لثلاثاً تتعنت أمتُه^(١٠٤). وأنه كان يسمع بكاء الصَّبِيِّ فيتجوَّز في صلاته^(١٠٥).

ومن شفقتَه ﷺ أن دعا ربَّه وعاهده فقال: أيُّما رجلٍ سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاةً ورحمةً وصلاته وطهوراً وقربةً تقربه بها إليك يوم القيامة^(١٠٦).

ولما كذبه قومُه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إنَّ الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلّم عليه وقال: مرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، قال النبيّ ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً^(١٠٧).

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما^(١٠٨).

(١٠٢) صحيح البخاري (٣١/٣)، وصحيح مسلم (٢٢٠/١)، وعنده: «عند كل صلاة».

(١٠٣) صحيح البخاري (٣٧/٣)، وصحيح مسلم (٧٧٤/٢).

(١٠٤) أخرج الترمذي (٢١٤/٣)، وابن ماجه (١٠١٨/٢)، وأحمد (٥٠٥/٤١)، وابن خزيمة في صحيحه (٣٣٣/٤)،

والحاكم في المستدرک (٦٥٢/١)، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبيّ ﷺ من عندي وهو

قريب العين، طيب النفس، فرجع إليّ وهو حزينٌ، فقلت له، فقال: «إني دخلت الكعبة، ووددت أني لم أكن فعلت،

إني أخاف أن أكون أتعبت أمتي من بعدي»، وهو حديث حسن بمجموع طرقه.

(١٠٥) صحيح البخاري (١٤٣/١)، وصحيح مسلم (٣٤٣/١).

(١٠٦) صحيح البخاري (٧٧/٨)، وصحيح مسلم (٢٠٠٧/٤).

(١٠٧) صحيح البخاري (١١٥/٤)، وصحيح مسلم (١٤٢٠/٣).

(١٠٨) صحيح البخاري (١٦٠/٨)، وصحيح مسلم (١٨١٣/٤).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا^(١٠٩).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها ركبت بعيراً وفيه صعوبة فجعلت تردده فقال رسول الله ﷺ: عليك بالرّفق^(١١٠).

فصل في وفائه ﷺ وحسن عهده وصلة رحمه

وأما خلقه ﷺ في الوفاء وحسن العهد وصلة الرّحم، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان النّبيّ ﷺ إذا أتى بهديّة قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنّها كانت صديقةً لخديجة، إنّها كانت تحبّ خديجة^(١١١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة لما كنت أسمع يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها^(١١٢). واستأذنت عليه أختها فارتاح لذلك^(١١٣).

ودخلت عليه امرأة فهشّ لها وأحسن السّؤال عنها، فلمّا خرجت قال: إنّها كانت تأتينا أيام خديجة وإنّ حسن العهد من الإيمان^(١١٤).

(١٠٩) صحيح البخاري (٢٥/١)، وصحيح مسلم (٢١٧٢/٤).

(١١٠) صحيح مسلم (٢٠٠٤/٤).

(١١١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٩٠) وابن أبي عاصم في الأحاد والمتاني (٣٨٧/٥)، وابن حبان في صحيحه (٤٦٧/١٥)، وابن بشران في أماليه (ص ١٥٨)، وإسناده حسن.

(١١٢) صحيح البخاري (٩/٨)، وصحيح مسلم (١٨٨٨/٤).

(١١٣) صحيح مسلم (١٨٨٩/٤). قال النووي: «فارتاح لذلك» أي هش لمجيئها وسر بها لتذكره بها خديجة وأيامها.

شرح مسلم (٢٠٢/١٥)

(١١٤) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه (٤٠١/١)، الطبراني في الكبير (١٤/٢٣)، والحاكم في المستدرک (٦٢/١)،

وقال ﷺ: إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، غير أن لهم رحمًا سألها ببلالها^(١١٥).

وقد صلى عليه الصلاة والسلام بأمامة ابنة ابنته زينب يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها^(١١٦).

وفي حديث خديجة رضي الله عنها أنها قالت له ﷺ: أبشر فوالله لا يحزنك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق^(١١٧).

فصل في تواضعه ﷺ

وأما تواضعه ﷺ على علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعًا وأعدمهم كبرًا.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا، فقمنا له فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا^(١١٨).

وصححه، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة [٢١٦].

(١١٥) صحيح البخاري (٦/٨)، وصحيح مسلم (١/١٩٢).

(١١٦) صحيح البخاري (١٠٩/١)، وصحيح مسلم (١/٣٨٦).

(١١٧) صحيح البخاري (٧/١)، وصحيح مسلم (١٣٩/١) بلفظ «لا يخزيك الله»، ولفظ المصنف في صحيح مسلم

(١٤٢/١). ومعنى «تحمل الكل» أي: تعين الضعيف العاجز عن نفسه، وقيل: وترعى البيتيم، ومعنى «تكسب

المعدوم» أي: تعطي العائل وترفده، وتعاونه على جمع المال، ومعنى «وتعين على نوائب الحق» أي: من أصابته

نوائب - وهي المصائب - في حق أعنته في ذلك.

(١١٨) أخرجه أبو داود (٣٥٨/٤)، وأحمد (٥١٥/٣٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٣٣/٥)، وغيرهم، وإسناده ضعيف.

لكن يشهد له ما أخرجه الترمذي (٩٠/٥)، وأحمد (٣٥٠/١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣٢٦) وغيرهم من

وفي حديث عمر رضي عنه عنه رضي الله عنه: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله ^(١١٩).

وعن أنس رضي عنه أن امرأةً كان في عقلها شيء، جاءتة فقالت: إن لي إليك حاجة، قال: اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت اجلس إليك حتى أقضي حاجتك، قال فجلست، فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها ^(١٢٠).

قال أنس رضي عنه: وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب ^(١٢١).
قال: وحج ﷺ على رحلٍ رثٍّ وعليه قطيفةٌ ما تساوى أربعة دراهم، فقال: اللهم اجعله حجًا مبرورًا لا رياء فيه ولا سمعة ^(١٢٢).

هذا، وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجته تلك مائة بدنة ^(١٢٣).
ومن تواضعه ﷺ قوله: «لا تفضلوني على يونس بن متى» ^(١٢٤). «ولا

حديث أنس قال: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك»، وإسناده على شرط مسلم.

(١١٩) صحيح البخاري (٤/١٦٧).

(١٢٠) صحيح مسلم (٤/١٨١٢).

(١٢١) انظر: صحيح البخاري (٥/١٠٨). والإهالة كل ما يؤتدم به من زيت أو شحم مذاب، والسنخة المتغيرة. انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (٣/٢٣٨-٢٣٩)

(١٢٢) أخرجه ابن ماجه (٢/٩٦٥)، والترمذي في الشمائل (ص ١٩٠)، وهناد بن السري في الزهد (٢/٤١٩)، وغيرهم، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة [٢٦١٧].

(١٢٣) صحيح البخاري (٢/١٧٢).

(١٢٤) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٦/٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود، ومن حديث أبي هريرة (٥٧/٦)، وكذا أخرجه هو (٤/١٥٣) ومسلم (٤/١٨٤٦) من حديث ابن عباس، كلهم عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى».

تفضلوا بين الأنبياء ولا تخيروني على موسى»^(١٢٥). وعن عائشة رضي الله عنها في صفته: كان في بيته في مهنة أهله^(١٢٦)؛ يفلي ثوبه ويحلب شاته^(١٢٧). ويرقع ثوبه ويخصف نعله^(١٢٨).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت حتى تقضي حاجتها^(١٢٩).

ودخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة فقال له: هون عليك فإنني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريشٍ تأكل القديد^(١٣٠).

فصل في عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته

وأما عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته، فكان ﷺ آمن الناس وأعدل الناس وأعف الناس، أصدقهم لهجةً منذ كان اعترف له بذلك محادّوه وعداه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين.

(١٢٥) صحيح البخاري (١٢٠/٣).

(١٢٦) صحيح البخاري (٦٥/٧) من حديث عائشة.

(١٢٧) أخرجه أحمد (٢٦٣/٤٣)، وابن حبان في صحيحه (٤٨٩/١٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٩٠) عنها. وقوله: «يفلي ثوبه» أي: يبحث عن القمل فيه. انظر: القاموس المحيط (ص ١٣٢٢).

(١٢٨) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في الفوائد المعللة (ص ١٤٩) من حديث أيضاً عائشة.

(١٢٩) أخرجه البخاري (٢٠/٨) تعليقاً مجزوماً به، ووصله أحمد (٩/١٩)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٧/١٠).

(١٣٠) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢١/١) من حديث قيس بن أبي حازم مرسلًا، والحاكم في المستدرک (٥٠٦/٢) متصلًا عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، وصححه على شرط الشيخين، وأورده الألباني في الصحيحة [١٨٧٦].

قال ابن إسحاق: كان يسمّى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة^(١٣١).

ولما اختلفت قريشٌ وتحازبت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكّموا أوّل داخلٍ عليهم، فإذا بالنبيّ ﷺ داخلٌ وذلك قبل نبوّته، فقالوا: هذا محمّدٌ، هذا الأمين قد رضينا به^(١٣٢).

وعن الرّبيع بن خثيمٍ قال: كان يُتّحاکمُ إلى رسول الله ﷺ في الجاهليّة قبل الإسلام^(١٣٣).

وعن عليّ رضي الله عنه أن أبا جهلٍ قال للنبيّ ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذبُ بما جئت به، فأنزل الله تعالى ﴿فَأَنهَمُ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأعام: ٣٣]^(١٣٤)، وروى غيره: لا نكذبك وما أنت فينا بمكذبٍ.

وسأل هرقل عنه أبا سفيان رضي الله عنه فقال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا^(١٣٥).

(١٣١) سيرة ابن هشام (١/١٦٧).

(١٣٢) أخرجه أحمد (٢٤/٢٦٢)، والحاكم في المستدرک (١/٦٢٨)، وأبو نعيم في الدلائل (١/١٧٥) من حديث عبد الله بن السائب رضي الله عنه قال: «كنت فيمن بنى البيت... فذكره، ورجال إسناده ثقات، وصححه الحاكم.

(١٣٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١٢٧)، والزهد للإمام أحمد (ص ٢٧٤).

(١٣٤) أخرجه الترمذي (٥/٢٦١)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤/١٢٨٢)، والحاكم في المستدرک (٢/٣٤٥) وصححه.

(١٣٥) صحيح البخاري (١/٨)، وصحيح مسلم (٣/١٣٩٣).

فصل في وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه

وأما وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه فكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة، وكان ضحكه تبسماً^(١٣٦)، وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير^(١٣٧)، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم^(١٣٨)، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير^(١٣٩). وفي صفته: يخطو تكفوفاً^(١٤٠) ويمشي هوناً كأنما ينحط من صَبَبٍ^(١٤١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيباً أو ترسيلاً^(١٤٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدّه العادّ أحصاه^(١٤٣).

(١٣٦) أخرج الترمذي (٤٣٧/٤) وصححه، وأحمد (٤٠٥/٣٤)، والطبراني في الأوسط (١٢٠/٧)، وغيرهم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان ﷺ طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر، وأشياء من أمورهم، فيضحكون، وربما تبسم»، وهو في صحيح مسلم (٤٦٣/١) بهذا الإسناد دون قوله: «طويل الصمت قليل الضحك».

(١٣٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يحدث حديثاً، لو عدّه العادّ لأحصاه»، أخرجه البخاري (١٩٠/٤)، ومسلم (٢٢٩٨/٤).

(١٣٨) أي: لا تعرف فيه، يقال: أبنته بكذا من السر إذا رميته به. غريب الحديث لابن قتيبة (٥٠٥/١).

(١٣٩) انظر: مسند أحمد (٣٩٤/٣٠)، وصحيح ابن حبان (١٨٥/١٦).

(١٤٠) التكفو التمايل كما تتكفا السفينة في الماء يميناً وشمالاً. تهذيب اللغة (٢١٢/١٠).

(١٤١) انظر: الترمذي (٥٩٨/٥)، مسند الطيالسي (١٤٢/١)، وأحمد (١٤٤/٢)، وهو حديث صحيح.

(١٤٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠/٤)، وأحمد في الزهد (ص ٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٧٣/٢).

(١٤٣) صحيح البخاري (١٩٠/٤)، وصحيح مسلم (٢٢٩٨/٤).

وكان ﷺ يُحِبُّ الطَّيِّبَ والرَّائِحَةَ الحَسَنَةَ، ويستعملهما كثيراً ويحضُّ عليهما ويقول: حَبِّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءَ وَالتَّيِّبَ وَجَعَلَتْ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ (١٤٤).

ومن مروته ﷺ نهيه عن النَّفْخِ فِي الطَّعَامِ وَالتَّشْرَابِ (١٤٥).
ومنهُ الأَمْرُ بِالْأَكْلِ مِمَّا يَلِي (١٤٦). والأَمْرُ بِالسَّوَاكِ (١٤٧). وإِنْقَاءَ الْبِرَاجِمِ
وَالرَّوَاجِبِ (١٤٨) وَاسْتِعْمَالَ خِصَالِ الْفِطْرَةِ (١٤٩).

فصل في زهده ﷺ في الدنيا

وأما زهده ﷺ في الدنيا فقد تقدّم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفي، وحسبك من تقلله منها وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقّت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها أن توفي ﷺ ودرعه مرهونةً عند يهوديٍّ في نفقة عياله (١٥٠)، وهو يدعو ويقول: اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتاً (١٥١).

(١٤٤) أخرجه النسائي في المجتبى (٦١/٧)، وأحمد (٣٠٥/١٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٨١/١٢) وغيرهم، وحسنه ابن حجر في التلخيص الحبير (٢٥٣/٣).

(١٤٥) أخرجه الترمذي وغيره، وهو حديث صحيح، بل نهى عن التنفس أيضاً فيه، انظر: صحيح البخاري (٤٢/١)، وصحيح مسلم (١٦٠٢/٣).

(١٤٦) صحيح البخاري (٦٨/٧)، وصحيح مسلم (١٥٩٩/٣).

(١٤٧) صحيح البخاري (٤/٢)، وصحيح مسلم (٢٢٠).

(١٤٨) البراجم: رؤوس السلاميات من ظهر الكفّ إذا قبض القابض كفه نشزت وارتفعت، والرواجب: بطون السلاميات. غريب الحديث لابن قتيبة (٤١٠/٢).

(١٤٩) صحيح مسلم (٢٢٣/١).

(١٥٠) صحيح البخاري (٤١/٤).

(١٥١) صحيح البخاري (٩٨/٨)، وصحيح مسلم (٧٣٠/٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيامٍ تبعاً من خبزٍ حتى مضى لسبيله (١٥٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاةً ولا بعيراً (١٥٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كنا آل محمدٍ لنمكثُ شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلا التمر والماء (١٥٤).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يبیت هو وأهله الليالي المتتابعة طويلاً لا يجدون عشاءً (١٥٥).

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خوانٍ ولا في سُكْرَجَةٍ ولا خُبْزٍ له مرَّقٌ ولا رأى شاةً سَمِيطاً قط (١٥٦).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنما كان فراشه الذي ينام عليه آدمًا حَشْوُهُ لَيْفٌ (١٥٧).

(١٥٢) صحيح مسلم (٢٢٨١/٤).

(١٥٣) صحيح مسلم (١٢٥٦/٣).

(١٥٤) صحيح مسلم (٢٢٨٢/٤).

(١٥٥) أخرجه الترمذي (٥٨٠/٤)، وابن ماجه (١١١١/٢)، وأحمد (١٥٠/٤)، وغيرهم، وحسنه الألباني في الصحيحة [٢١١٩].

(١٥٦) صحيح البخاري (٩٧، ٧٥/٧). والسُكْرَجَةُ: ما صغر من الصحاف، والخوان المائدة أو ما يقوم مقامها، والسميط: الشاة المشوية. انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين لأبي عبد الله الحميدي (ص ٢٦٠)، والنهاية في غريب الحديث (٤٠٠/٢).

(١٥٧) صحيح البخاري (٩٧/٨)، وصحيح مسلم (١٦٥٠/٣). والأدم جمع الأديم، وأديم كل شيءٍ ظاهر جلده. تهذيب اللغة (١٥١/١٤).

وكان ينامُ أحياناً على سَرِيرٍ مَرْمُولٍ بِشَرِيطٍ حَتَّى يَؤَثِّرَ فِي جَنْبِهِ (١٥٨).

فصل في خوفه ﷺ ربه وطاعته له وشدة عبادته

وأما خوفه ربه وطاعته له وشدة عبادته فعلى قدر علمه بربه.

ولذلك كان أبو هريرة رضي عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (١٥٩).

زاد في رواية الترمذي عن أبي ذر رضي عنه: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون؛ أظت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» (١٦٠).

وفي حديث المغيرة رضي عنه قال: صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، وفي رواية: كان يصلي حتى ترم قدماه، فقبل له: أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ (١٦١)

(١٥٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٩٨) عن أنس رضي الله عنه، وإسناده جيد، وأصله في الصحيحين (البخاري ١٥٦/٦، مسلم ١١٠٨/٢) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم. قوله: «مرمول بشرط»، قال ابن قتيبة: رملت السرير، وأرملته: إذا نسجته بشرط من خوص أو ليف. انظر: تاج العروس (٩٨/٢٩).

(١٥٩) صحيح البخاري (٥٤/٦)، وصحيح مسلم (٣٢٠/١).

(١٦٠) جامع الترمذي (٥٥٦/٤)، وانظر: السلسلة الصحيحة [١٧٢٢].

(١٦١) صحيح البخاري (١٣٥/٦، ٥٠/٢)، وصحيح مسلم (٢١٧٢، ٢١٧١/٤).

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان عمل رسول الله ﷺ ديمَةً، وأيكم يطيق؟ (١٦٢).

وقالت: كان يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم (١٦٣).
وقال أنس رضي الله عنه: كنت لا تشاء أن تراه في الليل مصلياً إلا رأيتَه مصلياً، ولا نائمًا إلا رأيتَه نائمًا (١٦٤).

وقال عوف بن مالك رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلي، فقممت معه فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمرّ بأية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمرّ بأية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة، يفعل مثل ذلك (١٦٥).

وعن حذيفة رضي الله عنه مثله وقال: سجد نحوًا من قيامه، وجلس بين السجدين نحوًا منه وقام حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة (١٦٦).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ بأية من القرآن ليلة (١٦٧).

(١٦٢) صحيح البخاري (٤٢/٣).

(١٦٣) صحيح البخاري (٣٨/٣)، وصحيح مسلم (٨١٠/٢).

(١٦٤) صحيح البخاري (٥٢/٢).

(١٦٥) أخرجه أبو داود (٢٣٠/١)، والنسائي في المجتبى (٢٢٣/٢)، وأحمد (٤٠٥/٣٩)، وإسناده حسن.

(١٦٦) صحيح مسلم (٥٣٦/١).

(١٦٧) أخرجه الترمذي (٣١٠/٢)، وحسنه، وصححه السيوطي في مناهل الصفا (ص ٨٤)، والألباني في مختصر

الشمائل (ص ١٥٠).

وعن عبد الله بن الشَّخِيرِ رضي الله عنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يصليُّ وجوفه أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ ^(١٦٨).

وقال رضي الله عنه: «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرّة»، وروي «سبعين مرّة» ^(١٦٩).

(١٦٨) أخرجه أبو داود (٢٣٨/١)، والنسائي في المجتبى (١٣/٣)، وأحمد (٢٣٩/٢٦)، وابن خزيمة (٥٣/٢)، وابن حبان (٤٤٠/٢) في صحيحيهما، والحاكم في المستدرک (٣٩٦/١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
وقوله: «كأزيز المرجل» يعني: غليان جوفه بالبكاء. غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٢/١).
(١٦٩) صحيح البخاري (٦٧/٨) «أكثر من سبعين مرّة»، وصحيح مسلم (٢٠٧٥/٤) «مائة مرّة».

الباب الثالث فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها

بعظيم قدره ﷺ عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته

لا خلاف أنه ﷺ أكرمُ البشر، وسيدُ ولد آدم، وأفضلُ الناس منزلةً عند الله، وأعلاهم درجةً، وأقربهم زُلفى.

واعلم أنَّ الأحاديث الواردة في ذلك كثيرةٌ جداً، وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومنتشرها.

عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيلَ واصطفى من ولد إسماعيلَ بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أُسري به، فاستصعب عليه فقال له جبريل: بمحمدٍ تفعل هذا؟ فما ركبك أحدٌ أكرم على الله منه، فارفض عرقاً^(٢).

(١) صحيح مسلم (١٧٨٢/٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠١/٥)، وأحمد (١٠٧/٢٠)، وابن حبان في صحيحه (٢٣٠/١)، وغيرهم، وإسناده على شرط الشيخين. قوله: «فارفض عرقاً» أي: جرى عرقه وسال. النهاية في غريب الحديث (٢٤٣/٢).

وروى عنه عليه السلام جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهَنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةُ فليصل، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلِّ لِنَبِيِّ قَبْلِي، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ»^(٣).

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته»^(٤)، وعدة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم»^(٥).

وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: «نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ، وَأُوتِيَتْ جِوَامِعَ الْكَلِمِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ جِيءَ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي»^(٦).

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه أنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «إني فَرَطُ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيْتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا»^(٧).

(٣) صحيح البخاري (٧٤/١)، وصحيح مسلم (٣٧٠/١).

(٤) أي: مطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد. غريب الحديث للخطابي (١٥٦/٢).

(٥) أخرجه أحمد (٣٧٩/٢٨)، وابن حبان في صحيحه (٣١٣/١٤)، والحاكم في المستدرک (٦٥٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) صحيح البخاري (٣٦/٩)، وصحيح مسلم (٣٧٢/١).

(٧) صحيح البخاري (٩١/٢، ١٠٣/٥، ٩٠/٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحياً أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(٨).

معنى هذا عند المحققين بقاء معجزته ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يُشاهدْها إلا الحاضر لها، ومعجزة القرآن يقف عليها قرن بعد قرن عياناً لا خبراً إلى يوم القيامة.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لا تحل لأحدٍ بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار»^(٩).

وعن خالد بن معدان أن نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، فقال: نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، يعني قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشر بي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نورٌ أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما^(١٠) لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ. وفي حديثٍ آخر: ثلاثة رجالٍ بطستٍ من ذهبٍ مملوءةٍ ثلجًا، فأخذاني فشققا بطني. قال في غير هذا الحديث: من نحري إلى مَراقٍ بطني^(١١)، ثم استخرجا منه قلبي، فشقاها فاستخرجا منه علقةً سوداء

(٨) صحيح البخاري (١٨٢/٦)، (١٣٤/١).

(٩) صحيح البخاري (١٢٥/٣)، وصحيح مسلم (٩٨٨/٢).

(١٠) البهم: صغار الغنم. العين للخليل بن أحمد (٦٢/٤).

(١١) أي: مارق منه ولان، ولا واحد له. مختار الصحاح (ص ١٢٧).

فطرحاها، ثم غسل قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياها.

وفي رواية: ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بهم، فوزنتهم ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنها^(١٢).

فصل في تفضيله ﷺ بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية وإمامة الأنبياء والعروج به إلى سدره المنتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى

ومن خصائصه ﷺ قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرفعة مما نبه عليه الكتاب العزيز وشرحته صحاح الأخبار.

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَمُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١-١٨]، فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به ﷺ، إذ

(١٢) أخرجه ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ١/١٦٦)، والطبري في التاريخ (٢/١٦٥) من حديث خالد بن معدان عن نفر من أصحاب النبي ﷺ، وأخرجه الدارمي وأبو نعيم، وإسماعيل الأصبهانيان في دلائلهم (١/٢٢١)، (ص ٣١) من حديث أبي ذر، وصححه الألباني بمجموع طرقه [١٥٤٥].

هو نصُّ القرآن وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه وخواصِّ نبينا محمدٍ ﷺ فيه أحاديثٌ كثيرةٌ منتشرةٌ رأينا أن نقدّم أكملها ونشير إلى زيادةٍ من غيره يجب ذكرها:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتيتُ بالبراقِ وهو دابةٌ أبيضٌ طويلٌ فوق الحمار ودون البغل، يضعُ حافرَه عند منتهى طرفه. قال: فركبته حتى أتيتُ بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلتُ المسجد فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ فجاءني جبرئيلُ بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللبنَ فقال جبريلُ: اخترتُ الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماءِ فاستفتح جبريلُ فقيل: مَنْ أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ، قيل: وقد بعثَ إليه؟ قال: قد بعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدمٍ عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريلُ، فقيل: مَنْ أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ، قيل: وقد بعثَ إليه؟ قال: قد بعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما، فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير. قال الله تعالى ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ [مريم: ٥٧]، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء

السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال^(١٣)، قال: فلما غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِي تَغَيَّرْتُ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، ففرض عليّ خمسين صلاةً في كل يومٍ وليلةٍ، فنزلتُ إلى موسى، فقال: ما فرض ربُّك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاةً، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإنَّ أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوتُ بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعتُ إلى ربي فقلتُ: يا ربِّ، خَفَّفْ عَن أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِي خَمْسًا، قَالَ: إِنْ أُمَّتِكَ لَا يَطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي تَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرُ، فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةً. قَالَ: فَنَزَلَتْ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلتُ: قد رجعتُ إلى ربي حتى استحيتُ منه»^(١٤).

(١٣) جمع قلة، وهي الحب العظيم، أي الجرة. النهاية في غريب الحديث (١٠٤/٤).

(١٤) صحيح مسلم (١٤٥/١-١٤٦).

وقد وقعت في حديث الإسراء زياداتٌ نذكر منها نكتًا مفيدةً في غرضنا،
منها:

في حديث ابن شهاب، وفيه: قولٌ كلِّ نبيٍّ له: «مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح»، إلا آدم وإبراهيم، فقالا له: «والأبن الصالح»^(١٥).

وفيه من طريق ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوىٍ أسمع فيه صريفَ الأقلام»^(١٦).

وعن أنسٍ رضي الله عنه: «ثم انطلق بي حتى أتيتُ سدرَةَ المنتهى، فغشيها ألوانٌ لا أدري ما هي، قال: ثم أُدخِلْتُ الجنة»^(١٧).

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه: «فلما جاوزته - يعني موسى - بكى، فنودي: ما يُبكيك؟ قال: ربِّ، هذا غلامٌ بعثته بعدي، يدخل من أمتي الجنة أكثر مما يدخل من أمتي»^(١٨).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وقد رأيتني في جماعةٍ من الأنبياء، فحانت الصلاة فأممّتهم، فقال قائلٌ: يا محمدُ، هذا مالكٌ خازنُ النارِ فسلمَ عليه، فالتفتُ فبدأني بالسّلام»^(١٩).

(١٥) صحيح البخاري (٧٨/١)، وصحيح مسلم (١٤٨/١).

(١٦) المصدران السابقان.

(١٧) صحيح البخاري (١٣٥/٤)، وصحيح مسلم (١٤٨/١).

(١٨) صحيح مسلم (١٤٩/١).

(١٩) صحيح مسلم (١٥٦/١).

والحق من هذا والصحيح إن شاء الله أنه إسرائٌ بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدلُّ الآيةُ وصحيحُ الأخبار والاعتبار، ولا يُعدَل عن الظاهرِ والحقيقةِ إلى التأويلِ إلا عند الاستحالة، وليس في الإسرائِ بجسده وحالٍ يقظته استحالةٌ؛ إذ لو كان منامًا لقال: بروح عبده ولم يقل بعبده، وقوله تعالى ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم: ١٧]، ولو كان منامًا لما كانت فيه آيةٌ ولا معجزةً، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته.

فصل في تفضيله ﷺ بالمحبة والخلة

عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكرٍ»^(٢٠). وفي حديثٍ آخر: «وإنَّ صاحبكم خليلُ الله»^(٢١).

واختلف في تفسير الخلة وأصل اشتقاقها، فقيل: الخليل المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلالٌ، وقيل: الخليل المختص واختار هذا القول غير واحدٍ، وقيل فيها غير ذلك.

(٢٠) صحيح البخاري (٤/٥)، صحيح مسلم (٤/١٨٥٤).

(٢١) صحيح مسلم (٤/١٨٥٥).

فصل في ذكر تفضيله ﷺ في القيامة بخصوص الكرامة

عن أبي سعيد الخدري رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» (٢٢).

وعن أبي هريرة رضي عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافعٍ وأول مُشَفَّعٍ» (٢٣).

وعن أنس رضي عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الناس تبعًا» (٢٤).

قوله: «أنا سيّد الناس يوم القيامة»، هو سيدهم في الدنيا ويوم القيامة، ولكن أشار ﷺ لانفراده فيه بالسؤدد والشفاعة دون غيره؛ إذ لجأ الناس إليه في ذلك، فلم يجدوا سواه، والسيد هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم، فكان حينئذٍ سيّدًا منفردًا من بين البشر لم يُزاحمه أحدٌ في ذلك ولا ادّعاه.

وعن أنس رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمدٌ، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحدٍ قبلك» (٢٥).

(٢٢) أخرجه الترمذي (٥٨٧/٥) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٩/١).

(٢٣) صحيح مسلم (١٧٨٢/٤).

(٢٤) صحيح مسلم (١٨٨/١).

(٢٥) صحيح مسلم (١٨٨/١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق وريحه أطيب من المسك، كيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبداً» (٢٦).

وعن أبي ذر رضي الله عنه نحوه، وقال: «طوله ما بين عمّان إلى أيلة، يشخب فيه ميزابان من الجنة» (٢٧).

فصل في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود

قال الله تعالى ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

عن آدم بن عليّ قال: سمعتُ ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إنَّ الناس يصيرون يوم القيامة جثي، كل أمة تتبع نبيّها، يقولون: يا فلان اشفع لنا، يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود (٢٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل عنها رسول الله ﷺ، يعني قوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، فقال: «هي الشفاعة» (٢٩).

(٢٦) صحيح البخاري (١١٩/٨).

(٢٧) صحيح مسلم (١٧٩٨/٤).

(٢٨) صحيح البخاري (٨٦/٦).

(٢٩) أخرجه الترمذي (٣٠٣/٥)، وحسنه، وأحمد (٤٥٨/١٥) وغيرهما، وله شاهد في صحيح البخاري (١٣١/٩) من

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وروى كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمِّي عَلَى تَلٍّ، وَيَكْسُونِي رَبِّي حُلَّةً خَضِرَاءَ، ثُمَّ يُؤَدِّنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَقُولَ، فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ»^(٣٠).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما - وذكر حديث الشفاعة - قال: «فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة، فيومئذ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده»^(٣١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَيْرْتُ بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ؛ لِأَنَّهَا أَعْمُّ، أَتْرُونَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ وَلَكِنهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ»^(٣٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ماذا ورد عليك في الشفاعة؟ فقال: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مُخْلِصًا يُصَدِّقُ لِسَانُهُ قَلْبَهُ»^(٣٣).

وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُرِيتُ مَا تَلْقَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي، وَسَفَكَ بَعْضُهُمْ دِمَاءَ بَعْضٍ، وَسَبَقَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا سَبَقَ لِلْأُمَّمِ قَبْلَهُمْ، فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُؤْتِنِي شَفَاعَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهِمْ، فَفَعَلَ»^(٣٤).

(٣٠) أخرجه ابن أبي داود في البعث (ص ٣١)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/٣٦)، وقال الذهبي: «حديث صالح الإسناد». السير (٦/٣٦٢).

(٣١) صحيح البخاري (٢/١٢٣).

(٣٢) أخرجه ابن ماجه (٢/١٤٤١)، وأحمد (٩/٣٢٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/٣٦٨)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/٢٦٠).

(٣٣) أخرجه أحمد (١٣/٤٣٣)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٣٨٤)، والحاكم (١/١٤١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/٣٧٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/٦٥٧)، والطبراني في مسند الشاميين (٤/١٥٦)، والحاكم في المستدرک (١/٦٨)، وصححه على شرط الشيخين، وأورده الألباني في الصحيحة

[١٤٤٠].

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ليزيد الفقير: سمعت بمقام محمد؟
- يعني الذي يبعثه الله فيه - قال: قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد المحمود
الذي يخرج الله به من يخرج، يعني من النار، وذكر حديث الشفاعة في
إخراج الجهنميين (٣٥).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم ما
لا يطيقون ولا يحتملون، فيقولون: ألا تنظرون من يشفع لكم؟ فيأتون آدم،
فيقولون - زاد بعضهم - أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من
روحه وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء، اشفع
لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا، ألا ترى ما نحن فيه؟، فيقول: إن ربي
غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن
الشجرة فعصيتُ، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون
نوحاً، فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً،
ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن
ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، نفسي
نفسى. - قال في رواية أنس: ويذكر خطيئته التي أصاب، سؤاله ربه بغير علم.
- وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: وقد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، اذهبوا إلى
غيري، اذهبوا إلى إبراهيم؛ فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي
الله وخليئه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول:
إن ربي قد غضب اليوم غضباً، - فذكر مثله، ويذكر ثلاث كلمات كذبهن،

- نفسي نفسي، لست لها، ولكن عليكم موسى؛ فإنه كليمُ الله، - وفي رواية: فإنه عبدُ آتاه الله التوراة وكلمه وقرّبه نجياً - . قال: فيأتون موسى، فيقول: لست لها، - ويذكر خطيئته التي أصاب وقتله النفس -، نفسي نفسي، ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه روحُ الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحُ منه، وكلمتَ الناس في المهد صبياً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمدٍ، فيأتون محمداً، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنتقل فأتيت تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه علي أحدٍ قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك سلّ تعطه، واشفعْ تُشفعْ، فأرفعُ رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حسابَ عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»^(٣٦).

ولم يذكر في رواية أنسٍ هذا الفصل، وقال مكانه: «ثم أحرّج ساجداً فيقال لي يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفعْ تُشفعْ وسلّ تعطه، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برةٍ أو شعيرةٍ من إيمانٍ فأخرجه، فأنتقل فأفعل ثم أرجع إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد.

(٣٦) صحيح البخاري (٨٤/٦)، وصحيح مسلم (١٨٤/١).

وذكر مثل الأول وقال فيه: مثقال حبةٍ من خردلٍ. قال: فأفعل ثم أرجع، وذكر مثل ما تقدم وقال فيه: من كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبةٍ من خردلٍ فأفعل، وذكر في المرة الرابعة: فيقال لي: ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تُشفع وسلِّ تُعطه، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأُخرجَنَّ من النار مَنْ قال: لا إله إلا الله، ومن رواية قتادة عنه قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا مَنْ حبسه القرآن، أي من وجب عليه الخلود»^(٣٧).

فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار أن شفاعته ﷺ ومقامه المحمود من أول الشفاعات إلى آخرها من حين يجتمع الناس للحشر وتضيق بهم الحناجرُ ويبلغ منهم العرقُ والشمسُ والوقوفُ مبلغه، وذلك قبل الحساب، فيشفع حينئذٍ لإراحة الناس من الموقف، ثم يُوضع الصراطُ ويُحاسب الناس، فيشفع في تعجيل مَنْ لا حساب عليه من أمته إلى الجنة، ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم حسبما تقتضيه الأحاديث الصحيحة، ثم فيمن قال: لا إله إلا الله وليس هذا لسواه ﷺ.

وفي الحديث المنتشر الصحيح: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ يدعو بها واختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة»^(٣٨).

(٣٧) صحيح البخاري (١٤٦/٩)، وصحيح مسلم (١٨٢/١).

(٣٨) صحيح البخاري (٦٧/٨، ١٣٩/٩)، وصحيح مسلم (١٩٠/١، ١٨٩).

قال أهل العلم: معناه دعوةٌ أعلم أنها تستجاب لهم ويبلغ فيها مرغوبهم، وإلا فكم لكل نبيٍّ منهم من دعوةٍ مستجابةٍ، ولنبينا ﷺ منها ما لا يُعدُّ، لكن حالهم عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف وضمنت لهم إجابة دعوةٍ فيما شاؤوه يدعون بها على يقينٍ من الإجابة. فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصةً بالأمة مضمونة الإجابة، وإلا فقد أخبر ﷺ أنه سأل لأمته أشياءً من أمور الدين والدنيا أُعطي بعضها ومنع بعضها، وأدّخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقة وخاتمة المحن وعظيم السؤال والرغبة؛ جزاه الله أحسن ما جرى نبياً عن أمته وصلى الله عليه وسلّم كثيراً.

فصل في تفضيله ﷺ في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ، فإنه من صلّى عليّ مرةً صلّى الله عليه عشراً، ثم سلّوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت له الشفاعة» (٣٩).

وفي حديثٍ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «الوسيلةُ أعلى درجةٍ في الجنة» (٤٠).

(٣٩) صحيح مسلم (٢٨٨/١).

(٤٠) أخرجه الترمذي (٥٨٦/٥)، وأحمد (٤٠/١٣)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣١٥/١)، وغيرهم، وأورده

الألباني في صحيح الجامع (٦٧٩/١).

وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا أسيرُ في الجنة إذ عُرِضَ لي نهرٌ حافَّتاهِ قِبابُ اللؤلؤ، قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله، قال: ثم ضرب بيده إلى طينته فاستخرج مسكاً»^(٤١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مثله، قال: «ومجراه على الدرِّ والياقوت، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج»^(٤٢).

وفي روايةٍ عنه: «إِذَا هُوَ يَجْرِي وَلَمْ يُشَقَّ شَقًّا، عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي»، وذكر حديث الحوض^(٤٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه فيما ذكر ﷺ عن ربه: «وأعطاني الكوثر نهرًا من الجنة يسيل في حوضي»^(٤٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ه] قال: أَلْفُ قَصْرٍ مِنْ لَوْلُؤٍ تُرَابُهُنَّ الْمَسْكُ وَفِيهِ مَا يُصْلِحُهُنَّ. وفي روايةٍ أخرى: وفيه ما ينبغي له من الأزواج والخدم^(٤٥).

(٤١) صحيح البخاري (١٢٠/٨).

(٤٢) أخرجه الترمذي (٤٤٩/٥)، وأحمد (١٤٥/١٠)، والدارمي في سننه (١٨٧٤/٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٧١/١٤)، وغيرهم، وإسناده جيد.

(٤٣) أخرجه أحمد (٢٠٠/٢١)، وأبو يعلى في مسنده (٢٣٦/٦)، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (ص ٨٤)، وإسناده على شرط مسلم.

(٤٤) أخرجه أحمد (٣٦٢/٣٨)، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٦٨٢/١)، وفي إسناده ضعف من أجل ابن لهيعة، لكن يشهد له الأحاديث الصحيحة المتقدمة.

(٤٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٨٧/٢٤)، والطبراني في الأوسط (١٧٩/١)، والأجري في الشريعة (١٦٢١/٤)، والحاكم في المستدرک (٥٧٣/٢) وصححه، وتعقبه الذهبي بتفرد أحد رواته، والحق أنه لم يتفرد به، ولذلك صححه الألباني في الصحيحة [٢٧٩٠].

فصل في أسمائه ﷺ وما تضمنته من فضيلته

عن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعِم عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء، أنا محمدٌ وأنا أحمدٌ وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» (٤٦).

وقد سمّاه الله تعالى في كتابه محمدًا وأحمدًا؛ فمما خصّه الله تعالى به أن ضمّن أسماءه ثناءه. فأما اسمه أحمد فأفعلٌ مبالغة من صفة الحمد، ومحمدٌ مفعّلٌ مبالغة من كثرة الحمد، فهو رضي الله عنه أجلُّ من حُمد وأفضل من حُمد من البشر وأكثرهم حمدًا، فهو أحمدُ المحمودين وأحمدُ الحامدين ومعه لواءُ الحمد يوم القيامة، ليتمّ له كمالُ الحمد ويتشهر في تلك العرصات بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقامًا محمودًا كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من المحامد كما قال رضي الله عنه ما لم يُعط غيره، وسمّى أمته في كُتب أنبيائه بالحَمَادِين فحقيقٌ أن يُسمّى محمدًا وأحمد.

ثم في هذين الاسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته فن آخر، هو أن الله جل اسمه حمى أن يُسمّى بهما أحدٌ قبل زمانه؛ أما أحمدُ الذي أتى في الكُتب وبشّرت به الأنبياء فمَنع الله تعالى بحكمته أن يُسمّى به أحدٌ غيره ولا يُدعى به مدعوٌ قبله حتى لا يدخل لبسٌ على ضعيف القلب أو شكٌ.

وكذلك محمدٌ أيضًا لم يُسمَّ به أحدٌ من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده رضي الله عنه وميلاده أن نبيًا يُبعثُ اسمه محمدٌ، فسمّى قومٌ قليلٌ من

(٤٦) صحيح البخاري (١٨٥/٤)، وصحيح مسلم (١٨٢٨/٤).

العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وهم: محمد بن أُحَيحة ابن الجُلاح الأوسي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومحمد بن براء البكري، ومحمد ابن سُفيان بن مجاشع، ومحمد بن حُمران الجعفي، ومحمد بن خزاعي السلمي، لا سابع لهم^(٤٧).

ويقال: أول من سُمي محمدًا محمد بن سفيان، واليمن تقول: بل محمد بن اليعمد من الأزد، ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه سبب يُشكك أحدًا في أمره حتى تحققت السماتان له ﷺ ولم يَنازع فيهما.

وأما قوله ﷺ: «وأنا الماحي الذي يحو الله بي الكفر» ففسر في الحديث، ويكون محو الكفر إما من مكة وبلاد العرب وما زوي له من الأرض ووعد أنه يبلغه ملك أمته، أو يكون المحو عامًا بمعنى الظهور والغلبة كما قال تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، [الفتح: ٢٨]، [الصف: ٩].

وقوله: «وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي» أي: على زماني وعهدي، أي: ليس بعدي نبي كما قال ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].
وسمي عاقبًا لأنه عقب غيره من الأنبياء.

وفي الصحيح: «أنا العاقب الذي ليس بعدي نبي»^(٤٨).

(٤٧) ردّ عليه ابن حجر في الفتح (٥٥٦/٦)، فقال: «وهو حصر مردود، وقد جمعت أسماء من تسمى بذلك في جزء مفرد، فبلغوا نحو العشرين، لكن مع تكرر في بعضهم ووهم في بعض، فيتلخص منهم خمسة عشر نفسًا».
(٤٨) صحيح مسلم (١٨٢٨/٤). وفيه «بعده أحد» مكان «بعدي نبي».

وفي حديثٍ عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه: هي ستٌ: مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَخَاتَمٌ وَعَاقِبٌ وَحَاشِرٌ وَمَاحٍ ^(٤٩).

وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان ﷺ يسمي لنا نفسه أسماءً فيقول: «أنا محمدٌ وأحمدٌ والمقفِي والحاشِرُ ونبيُّ التوبةِ ونبيُّ الملحمة» ^(٥٠).

وكلُّ صحيحٍ إن شاء الله، ومعنى المقفِي معنى العاقب، وأما نبيُّ الرحمة والتوبة فقد قال الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكما وصفه بأنه يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وبالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ، وقد قال في صفة أمته: إنها أمةٌ مرحومةٌ، وقد قال تعالى فيهم ﴿ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصُوا بِالرَّحْمَةِ ﴾ [البلد: ١٧]، أي يرحم بعضهم بعضاً، فبعثه ﷺ ربه تعالى رحمةً لأمته ورحمةً للعالمين ورحيمًا بهم ومترحمًا ومُستغفرًا لهم، وجعل أمته أمةً مرحومةً ووصفها بالرحمة وأمرها ﷺ بالتراحم وأثنى عليه.

فقال: «إن الله يُحِبُّ مَنْ عِبَادَهُ الرَّحْمَاءُ» ^(٥١). وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنَ السَّمَاءِ» ^(٥٢).

(٤٩) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨٥/١)، والبخاري في تاريخه الأوسط (١٠/١)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢٦٦/٣)، والحاكم في المستدرک (٣٠٤/٤)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٥٠) صحيح مسلم (١٨٢٨/٤)، وفيه «نبي الرحمة» بدل «نبي الملحمة»، وبلغظ المؤلف أخرجه أحمد (٣٩٧/٣٢)، (٤٢٠)، والطيلبسي في مسنده (٣٩٦/١)، والبرار (٤٠/٨)، وابن حبان في صحيحه (٢٢١/١٤)، والحاكم وصححه (٦٥٩/٢) ووافقه الذهبي.

(٥١) صحيح البخاري (٧٩/٢)، وصحيح مسلم (٦٣٥/٢).

(٥٢) أخرجه أبو داود (٢٨٥/٤)، والترمذي (٣٢٣/٤) وصححه، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة [٩٢٥].

وأما رواية «نبي الملحمة» فإشارةً إلى ما بعث به ﷺ من القتال والسيف، وهي صحيحةٌ.

وروى حذيفة مثل حديث أبي موسى رضي الله عنهما، وفيه: «ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملاحم»^(٥٣).

وقد جاءت من ألقابه ﷺ وسماته في القرآن عدةٌ كثيرةٌ سوى ما ذكرناه، كالنور والسراج المنير والمنذر والناذير والمبشر والبشير والشاهد والشهيد وخاتم النبيين والرؤوف الرحيم والأمين ورحمة للعالمين والكريم والنبي الأُمي وداعي الله، في أوصافٍ كثيرةٍ وسماتٍ جليّةٍ.

وجرى منها في كتب الله المتقدمة وكتب أنبيائه وأحاديث رسوله وإطلاق الأمة جملةً شافيةً، مثل المصطفى والمجتبى وأبي القاسم ورسول رب العالمين والشفيع المشفع والمتقي والمصلح والصادق والمصدق والهادي وسيد ولد آدم وسيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين وصاحب الحوض المورود والشفاعة والمقام المحمود وصاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وصاحب التاج والمعراج واللواء وصاحب الحجة والخاتم والبرهان.

وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم.

(٥٣) أخرجه أحمد (٤٣٦/٣٨)، والترمذي في الشمائل (ص ٢١٥)، وعمر بن شبة في تاريخ المدينة (٦٣٢/٢)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٢/١٤)، وغيرهم وهو حديث صحيح.

الباب الرابع فيما أظهره الله تعالى على يديه ﷺ من المعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات

وإذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملته كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله لم يمتد في صحة نبوته وصدق دعوته، وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه والإيمان به.

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب^(١).

ولما جاء ضماد رضي الله عنه النبي ﷺ قال له: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، قال له: أعد علي كلماتك هؤلاء فلقد بلغن قاموس البحر^(٢)، هات يدك أبايعك^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٦٥٢/٤)، وابن ماجه (٤٢٣/١)، وأحمد (٢٠١/٣٩)، وغيرهم، وإسناده صحيح.

(٢) في صحيح مسلم: «ناعوس البحر»، وهو بمعنى قاموس البحر. قال أبو عبيد: قاموس البحر وسطه، وقال ابن دريد: لجته، وقال صاحب كتاب العين: قعره الأقصى. ينظر: إكمال المعلم للمؤلف (٢٧٢/٣)، وشرح النووي على مسلم (١٥٧/٦).

(٣) صحيح مسلم (٥٩٣/٢).

فصل في معنى النبوة والرسالة والوحي

النبوءة في لغة من همز مأخوذة من النبا وهو الخبر، وقد لا يهمز على هذا التأويل تسهيلاً، والمعنى أن الله تعالى أطلعه على بعض غيبه وأعلمه أنه نبيه فيكون نبي منبأً فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، أو يكون مُخْبِرًا عما بعثه الله تعالى به ومُنْبِئًا بما أطلعه الله عليه، فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، ويكون عند من لم يهمزه من النبوة، وهو ما ارتفع من الأرض، معناه أن له رتبةً شريفةً ومكانةً نبهيةً عند مولاه مُنيفةً، فالوصفان في حقه مُؤْتلفان.

وأما الرسول فهو المرسل، ولم يأت فعولٌ بمعنى مُفْعَلٍ في اللغة إلا نادرًا، وإرساله أمرُ الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه، واشتقاقه من التابع، ومنه قولهم: جاء الناس أرسالًا إذا تبع بعضهم بعضًا، فكأنه ألزم تكرير التبليغ أو ألزمت الأمة اتباعه.

وأول الرسل آدم وآخرهم محمدٌ ﷺ.

وأما الوحي فأصله الإسراع، فلما كان النبي يتلقى ما يأتيه من ربه بعجلٍ سُمِّيَ وحيًا، وسمّيت أنواع الإلهامات وحيًا تشبيهاً بالوحي إلى النبي، وسمي الخط وحيًا لسرعة حركة يد كاتبه، ووحي الحاجب واللحظ سرعة إشارتهما، ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مرم: ١١]، أي أوماً ورمز، وقيل: كتب، ومنه قولهم: الوحا الوحا أي السرعة السرعة.

وقيل: أصل الوحي السر والإخفاء، ومنه سمي الإلهام وحياً، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي يوسوسون في صدورهم، ومنه قوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧]، أي ألقى في قلبها، وقد قيل ذلك في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]، أي ما يلقى في قلبه دون واسطة.

فصل في معنى المعجزة

اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزةً هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، كإحياء الموتى، وقلب العصا حيةً، وإخراج ناقةٍ من صخرةٍ، وكلام شجرةٍ، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر، مما لا يمكن أن يفعله أحدٌ إلا الله، فيكون ذلك على يد النبي ﷺ من فعل الله تعالى، وتحديه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيزٌ له.

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ - وهو أكثر الرسل معجزةً وأبهرهم آيةً وأظهرهم برهاناً كما سنبينه - هي في كثرتها لا يحيط بها ضبطٌ؛ فإن واحداً منها وهو القرآن لا يحصى عدد معجزاته بألفٍ ولا ألفين ولا أكثر؛ لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورةٍ منه فعجز عنها، قال أهل العلم: وأقصر السور ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ١ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ ٢ ﴿إِن شَاءَ رَبُّكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣]، فكل آيةٍ أو آياتٍ منه بعددها وقدرها معجزةٌ، ثم فيها نفسها معجزاتٌ على ما سنفصله فيما انطوى عليه من المعجزات. وكثيرٌ من هذه المعجزات الماثورة عنه ﷺ معلومةٌ بالقطع.

أما انشقاق القمر فالقرآن نصّ بوقوعه وأخبر عن وجوده، ولا يعدل عن ظاهرٍ إلا بدليلٍ، وجاء برفع احتمالهِ صحيحُ الأخبار من طرقٍ كثيرةٍ، ولا يُوهِن عَزْمَنَا خِلافَ أَخْرَقَ مُنْحَلَّ عُرَى الدِينِ، ولا يَلْتَفِتُ إلى سَخَافَةِ مَبْتَدِعٍ يُلْقِي الشكَّ على قلوبِ ضعفاءِ المؤمنين، بل نُزْعِمُ بِهِذا أَنفَهُ وَنَبْذُ بِالْعَرَاءِ سُخْفَهُ.

وكذلك قصة نبع الماء وتكثير الطعام رواها الثقات والعدد الكثير عن الجَمِّ الغفير عن العدد الكثير من الصحابة، ومنها ما رواه الكافة عن الكافة متصلاً عن حدث بها من جملة الصحابة وأخبارهم أن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم: في يوم الخندق، وفي غزوة بواطٍ، وعمرة الحديبية، وغزوة تبوك، وأمثالها من محافل المسلمين ومجمع العساكر، ولم يُؤَثِّرْ عن أحدٍ من الصحابةِ مُخَالَفَةً لِلرَّائِي فِيمَا حَكَاهُ وَلَا إِنكَارُ عَمَّا ذَكَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ كَمَا رَوَاهُ. فَسَكَوتُ السَّاكِتِ مِنْهُمْ كَنَطْقِ النَّاطِقِ؛ إِذْ هُمُ الْمُنْزَهَوْنَ عَنِ السَّكُوتِ عَلَى بَاطِلٍ وَالْمُدَاهِنَةَ فِي كَذِبٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ رَغْبَةٌ وَلَا رَهْبَةٌ تَمْنَعُهُمْ، وَلَوْ كَانَ مَا سَمِعُوهُ مَنكَرًا عِنْدَهُمْ وَغَيْرَ مَعْرُوفٍ لَدِيهِمْ لِأَنكَرُوهُ، كَمَا أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَشْيَاءَ رَوَاهَا مِنَ السِّنَنِ وَالسَّيْرِ وَحُرُوفِ الْقُرْآنِ، وَخَطَأَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَوَهَّمَهُ فِي ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ. فَهَذَا النُّوعُ كُلُّهُ يُلْحَقُ بِالْقَطْعِيِّ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ لَمَّا بَيَّنَّاهُ.

وأيضاً فإن أمثال الأخبار التي لا أصل لها وبُنِيَتْ عَلَى بَاطِلٍ لَا بُدَّ مَعَ مَرُورِ الْأَزْمَانِ وَتَدَاوُلِ النَّاسِ وَأَهْلِ الْبَحْثِ مِنْ انْكَشَافِ ضَعْفِهَا وَخَمُولِ ذِكْرِهَا،

كما يشاهد في كثيرٍ من الأخبار الكاذبة والأراجيف الطارئة، ومعجزات نبينا ﷺ لا تزداد مع مرور الزمان إلا ظهوراً، ومع تدأول الفرق وكثرة طعن العدو وحرصه على توهينها وتضعيف أصلها وإجهاد الملحد على إطفاء نورها إلا قوةً وقبولاً، ولا للطاعن عليها إلا حسرةً وغليلاً.

وكذلك إخباره عن الغيوب وإنباؤه بما يكون وكان معلومٌ من آياته على الجملة بالضرورة، وهذا حقٌ لا غطاء عليه.

فصل في إعجاز القرآن

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كتاب الله العزيز مُنطوٍ على وجوهٍ من الإعجاز كثيرةً، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حُسن تأليفه، والتَّسَامُ كَلِمَه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب؛ وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأن وفرسانَ الكلام، قد خُصَّوا من البلاغة والحكم ما لم يُخصَّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يُؤتَ إنسانٌ، ومن فَصْل الخطاب ما يقيّد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقاً، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويُدلّون به إلى كل سبب؛ فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسّلون ويتوصّلون، ويرفعون ويضعون، فمراعهم إلا رسولٌ كريمٌ بكتابٍ عزيزٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، أحكمت آياته وفُصّلت كلماته، وبهرت بلاغته العقولَ وظهرت فصاحته على

كلّ مقول، صار خابهم في كل حين ومقرّعا لهم بضعا وعشرين عاما على رؤوس
 الملأ أجمعين: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]، ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ
 مِّن مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا
 فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، ﴿ قُلْ لَّيْنِ
 أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۚ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ
 لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، و﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ ۚ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣]، فلم
 يزل يُقرّعهم ﷺ أشدّ التقريع ويوبّخهم غاية التوبيخ ويسفّه أحلامهم ويحطّ
 أعلامهم ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كلّ هذا ناكصون عن
 معارضته، مُحجّمون عن مماثلته، يُخادِعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والإغراء
 بالافتراء، وقولهم: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٥]، ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴾
 [المدثر: ٢٤]، و﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ٢]، و﴿ إِنْكَ افْتَرَاهُ ﴾ [الفرقان: ٤]، و﴿ أَسَاطِيرُ
 الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١]، والمباهتة والرضى بالدنيئة كقولهم ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة:
 ٨٨]، و﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾
 [فصلت: ٥]، و﴿ لَأَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْفِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، والادّعاء
 مع العجز بقولهم ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ [الأنفال: ٣١]، وقد قال لهم الله
 ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة: ٢٤]، فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سُخفائهم
 كمْسِيَلِمَة كُشِفَ عَوَارُهُ لجميعهم، وسلبهم الله ما أَلْفَوْه مِنْ فَصِيحِ كَلَامِهِمْ،
 وإلا فلم يَخْفَ عَلَىٰ أَهْلِ الْمِيْزِ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَمَطِ فَصَاحَتِهِمْ وَلَا جِنْسِ
 بِلَاغَتِهِمْ، بل ولّوا عنه مُدْبِرِينَ، وَأَتَوْا مُذْعِنِينَ مِنْ بَيْنِ مُهْتَدٍ وَبَيْنِ مَفْتُونٍ.

ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق^(٤) وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر^(٥).

وذكر أبو عبيد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وسمع آخر رجلاً يقرأ ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠]، فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوماً نائماً في المسجد، فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق، فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يُحسِن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها، فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهي قوله ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أويعدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْكَ

(٤) المغدق المروي، والكثير الماء. انظر: غريب الحديث للخطابي (٤٤١/١)، الفائق في غريب الحديث (٣٤١/١).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٥٠/٢)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

الْمُرْسَلِينَ ﴿ [القصص: ٧]؟، فجمع في آيةٍ واحدةٍ بين أمرين ونهيين وخبرين وشارتين، فهذا نوعٌ من إعجازه منفردٌ بذاته غير مضافٍ إلى غيره.

وكون القرآن أتى به النبي ﷺ من عند الله معلومٌ ضرورةً^(٦)، وكونه ﷺ متحدثاً به معلومٌ ضرورةً، وعجز العرب عن الإتيان به معلومٌ ضرورةً، وكونه في فصاحته خارقاً للعادة معلومٌ ضرورةً للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة، وسبيلٌ من ليس من أهلها علمٌ ذلك بعجز المنكرين من أهلها عن معارضته واعترافِ المقرين بإعجاز بلاغته، وأنت إذا تأملت قوله تعالى ﴿ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله ﴿ وَلَو تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قَوتَ وَآخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبا: ٥١]، وقوله ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوةٌ كَأَنَّهُ بُولِئٌ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله ﴿ فَكَلَّمْنَا أَخْذَانًا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وأشباهاها من الآي بل أكثر القرآن حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها، وأن تحت كل لفظةٍ منها جملاً كثيرةً وفصولاً جمّةً وعلومًا زواجر مُلكت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها، ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف - التي يَصْعَفُ في عادة الفصحاء عندها

(٦) أي: بدهاة لا تحتاج إلى فكر وبحث.

الكلامُ ويذهب ماءُ البيان - آيةٌ لتأمله من ربط الكلام بعضه ببعضٍ والتثام سرده وتناصفٍ وجوهه، كقصة يوسف على طولها، ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة تردها حتى تكاد كل واحدة تنسي في البيان صاحبها وتُنَاصِفُ في الحسن وجهَ مقابلتها، ولا نفورَ للنفوس من ترديدها ولا معاداةٍ لمُعَادِها.

فصل

الوجه الثاني من إعجازه صورةٌ نظمه العجيب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها، والأسلوبُ البديع الذي جاء عليه، ووقفت مقاطعُ آيه وانتهت فواصلُ كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظيرٌ له ولا استطاع أحدٌ مماثلةً شيءٍ منه، بل حارت فيه عقولهم وتدلَّهت^(٧) دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثرٍ أو نظمٍ أو سجعٍ أو رجزٍ أو شعرٍ.

ولما سمع كلامه ﷺ الوليد بن المغيرة وقرأ عليه القرآن رَقًّا، فجاءه أبو جهل مُنْكَرًا عليه، قال: والله ما منكم أحدٌ أعلمُ بالأشعارِ مني، والله ما يُشْبِهُ الذي يقول شيئًا من هذا.

وفي خبره الآخر حين جمع قريشًا عند حضور الموسم وقال: إن وفود العرب تَرِدُ فأجمعوا فيه رأيًا لا يُكْذِبُ بعضكم بعضًا، فقالوا: نقول كاهنٌ، قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمرته ولا سجعه، قالوا: مجنونٌ، قال: ما هو بمجنونٍ ولا

(٧) من الدله، وهو ذهاب الفؤاد من هم. انظر: العين للخليل (٢٥/٤).

بخنقه ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعرٌ، قال: ما هو بشاعرٍ، قد عرفنا الشعر كله رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعرٍ، قالوا: فنقول ساحرٌ، قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطلٌ، وإن أقرب القول أنه ساحرٌ؛ فإنه سحرٌ يُفرِّق بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته، فتفرقوا وجلسوا على السُّبُل يحذِّرون الناس، فأنزل الله تعالى في الوليد ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾ [المدثر: ١١-١٧].

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم، قد علمتم أنني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

وفي حديث إسلام أبي ذر رضي الله عنه ووصف أخاه أنيساً فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيسٍ، لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم، وأنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي صلى الله عليه وسلم. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعرٌ كاهنٌ ساحرٌ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقرأء^(٨) الشعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعرٌ وإنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون^(٩).

(٨) أنواعه وطرقه. غريب الحديث لابن قتيبة (١٨٧/٢).

(٩) صحيح مسلم (١٩١٩/٤).

والأخبار في هذا صحيحة كثيرة، والإعجاز بكل واحدٍ من النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها، والأسلوب الغريب بذاته، كل واحدٍ منهما نوع إعجازٍ على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحدٍ منهما؛ إذ كل واحدٍ خارجٌ عن قدرتها مباينٌ لفصاحتها وكلامها، وإلى هذا ذهب غير واحدٍ من أئمة المحققين .

ووجه عجزهم عنه أن ما جمع في قوةٍ جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصحُّ أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها كإحياء الموتى وقلب العصا وتسبيح الحصى.

فصل

الوجه الثالث من الإعجاز ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع، فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر، كقوله تعالى ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقوله تعالى ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، وقوله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، وقوله ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۗ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣-١]، فكان جميع هذا كما قال؛ فغلبت

الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في الإسلام أفواجًا، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضعٌ لم يدخله الإسلام، واستخلف الله المؤمنين في الأرض ومكن فيها دينهم وملكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغرب كما قال ﷺ: «زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ، فَأُرِيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبُلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»^(١٠).

وقوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فكان كذلك لا يكاد يُعَدُّ مَنْ سَعَى فِي تَغْيِيرِهِ وَتَبْدِيلِ مُحْكَمِهِ مِنَ الْمَلْحَدَةِ وَالْمَعْطَلَةِ لَا سِوَا الْقِرَامِطَةِ، فَاجْمَعُوا كَيْدَهُمْ وَحَوْلَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ، فَمَا قَدَرُوا عَلَى إِطْفَاءِ شَيْءٍ مِنْ نُورِهِ وَلَا تَغْيِيرِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِهِ، وَلَا تَشْكِيكَ الْمُسْلِمِينَ فِي حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

ومنه قوله ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]، وقوله ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]، وقوله ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ط وَإِنْ يُقْتَلُوا كُمْ يُؤَلِّمُكُمُ الْآدِبَارَ ثُمَّ لَا يُضُرُّوكُمْ ﴾ [آل عمران: ١١١]، فكان كل ذلك.

وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم في حلفهم وتقريعهم بذلك كقوله ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة: ٨]، وقوله ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية، وقوله ﴿ يَتَأَيُّهَا

(١٠) صحيح مسلم (٤/٢٢١٥).

الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ
وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمِهِ
ءآخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ
وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿ [المائدة: ٤١]، وقوله ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّأُ لِسِنِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ ﴾ [النساء: ٤٦] ،
وقد قال مبدئياً ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى
الطَّائِفَيْنِ أَنَّهَآ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأفغان: ٧].

ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]، ولما نزلت بشر
النبي ﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم، وكان المستهزؤون نفراً بمكة،
ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا، وقوله ﴿ وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة:
٦٧]، فكان كذلك على كثرة من رام ضره وقصد قتله، والأخبار بذلك معروفة
صحيحة.

فصل

الوجه الرابع ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمة البائدة والشرائع
الداثرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب
الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده النبي ﷺ على وجهه ويأتي به على
نصه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد

علموا أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسٍ ولا مثافنةً^(١١) ولم يَغِبْ عنهم ولا جَهَلَ حاله أحدٌ منهم.

وقد كان أهل الكتاب كثيراً ما يسألونه ﷺ عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً، كقصص الأنبياء مع قومهم وخبر موسى والخضر ويوسف وإخوته وأصحاب الكهف وذي القرنين ولقمان وابنه وأشباه ذلك من الأنبياء، وبدء الخلق وما في التوراة والإنجيل والزبور وصُحُف إبراهيم وموسى مما صدَّقه فيه العلماء بها ولم يقدرُوا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن موفقٍ آمن بما سبق له من خيرٍ، ومن شقيٍّ مُعانِدٍ حاسدٍ، ومع هذا لم يُحَكَّ عن واحدٍ من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم وتقريرهم بما انطوت عليه مصاحفهم وكثرة سؤالهم له ﷺ وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صرح بصحة نبوته وصدق مقالته واعترف بعناده وحسده إياه كأهل نجران وابن سوريا وابني أخطب وغيرهم.

ومن باهت في ذلك بعض المباهتة وادَّعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفةً دُعيَ إلى إقامة حجته وكشف دعوته، فقيل له ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّورَةِ فَآتُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١٢) فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿

[آل عمران: ٩٣-٩٤]، فقرَّع ووبَّخ ودعا إلى إحضار ممكنٍ غير ممتنع، فمن مُعترفٍ بما

(١١) ثافن الرجل إذا باطنه ولزمه حتى يعرف دخلته والمثافن المواظب. المحكم لابن سيده (١٦٥/١٠).

جحدته ومُتَوَاقِحٌ يُلْقِي عَلَى فَضِيحَتِهِ مِنْ كِتَابِهِ يَدَهُ، وَلَمْ يُؤَثِّرْ أَنْ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَظْهَرَ خِلَافَ قَوْلِهِ مِنْ كِتَابِهِ وَلَا أَبَدَى صَحِيحًا وَلَا سَقِيمًا مِنْ صَحْفِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٥-١٦﴾.

فصل

هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بيّنة لا نزاع فيها ولا مريّة، ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه أي وردت بتعجيز قوم في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك كقوله لليهود ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ٩٤-٩٥﴾.

قال أبو إسحاق الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة، لأنه قال لهم فتمنوا الموت وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبدًا فلم يتمنه واحد منهم (١٢).

(١٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٧٥/١).

قال أبو محمد الأصيلي: من أعجب أمرهم أنه لا يوجد منهم جماعة ولا واحد من يوم أمر الله بذلك نبيه يقدم عليه ولا يجيب إليه، وهذا موجودٌ مشاهدٌ لمن أراد أن يمتحنه منهم.

وكذلك آية المباهلة من هذا المعنى حيث وفد عليه أساقفة نجران وأبوا الإسلام فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فامتنعوا منها ورَضُوا بأداء الجزية، وذلك أن العاقب عظيمهم قال لهم: قد علمتم أنه نبيٌّ وأنه ما لا عن قومًا نبيٌّ قطُّ فبقي كبيرهم ولا صغيرهم^(١٣). ومثله قوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۗ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، فأخبرهم أنهم لا يفعلون كما كان، وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها.

فصل

ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه والهيبة التي تعتر بهم عند تلاوته لقوة حاله وإنافة خطره، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا كما قال تعالى، ويودون انقطاعه لكراحتهم له.

(١٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥٨٣/١)، تفسير الطبري (٤٧١/٥).

معجزات النبي ﷺ وخصائصه وكراماته

وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته تُولِيهِ المَجْدَابَا وتَكْسِبُهُ هَشَاشَةً لِمَيْلِ قَلْبِهِ إِلَيْهِ وَتَصْدِيقَهُ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿اللَّهُ زَلَّ الْحَدِيثَ كُنْبًا مُنْتَدِبَهَا تَنَائِي نَفْسِعُرْ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقَلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِوَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]

وقال ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ويدل على أن هذا شيءٌ خُصَّ به أنه يعترى من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روي عن نصرانيٍّ أنه مرَّ بقارئٍ فوقف يبكي، فقيل: له م ب كيت؟ قال: للشجا والنظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعةً قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأول وهلةٍ وأمن به ومنهم من كفر. فحكى في الصحيح عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ عَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] إلى قوله ﴿الْمُصَيِّطُونَ﴾ [الطور: ٣٧] كاد قلبي أن يطير^(١٤). وفي رواية: وذلك أول ما قر الإسلام في قلبي^(١٥).

وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه، فتلا عليه ﴿حَمَّ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كُنْتُ بَصِيصَةً فَأَيَّتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا إِنَّنَا عَمِلُونَ ٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ إِلَهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُوا وَيْلٌ

(١٤) صحيح البخاري (١٤٠/٦).

(١٥) صحيح البخاري (٨٦/٥).

لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۜ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِمَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ [فصلت: ١-١٣]، فأمسك عتبة بيده على في النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف. وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يقرأ وعتبة مُضغٌ مُلقٍ يديه خلف ظهره معتمدٌ عليهما حتى انتهى إلى السجدة، فسجد النبي ﷺ وقام عتبة لا يدري بم يُراجعه، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه، فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلمني بكلام، والله ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له (١٦).

وقد حكي عن غير واحدٍ من رام معارضته أنه اعترته روعةٌ وهيبةٌ كفَّ بها عن ذلك، فحكي أن ابن المقفَّع طلب ذلك ورامه وشرع فيه، فمرَّ بصبيٍّ يقرأ ﴿ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَبَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَقَضَى الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤]، فرجع فمحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يُعارض، وما هو من كلام البشر، وكان من أفصح أهلِ وقته (١٧).

(١٦) أخرجه الدوري في تاريخ ابن معين (٥٤/٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٠٣/٢)، وإسماعيل الأصفهاني في دلائل النبوة (٢٢١/١)، وأورده الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص ١٦١).
(١٧) انظر: تفسير الماوردي المسمى بالنكت والعيون (٣١/١).

وكان يحيى بن حكم الغزالي بليغ الأندلس في زمنه، فحكى أنه رام شيئاً من هذا فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها، قال: فاعترتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة.

فصل

ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته الظاهرة معجزاته على ما كان عليه لأول نزوله إلى وقتنا هذا، حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيد، فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته ولا ألف كلمتين في مناقضته، ولا قدر فيه على مطعن صحيح، ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزندٍ شحيح، بل الماثور عن كل من رام ذلك إلقاءه في العجز بيديه والنكوص على عقبيه.

فصل وجوه أخرى للإعجاز

وقد عدَّ جماعةً من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوهاً كثيرةً، منها: أن قارئه لا يَمَلُّه وسامعه لا يَمُجُّه، بل الإكبابُ على تلاوته يزيدُه حلاوةً وترديده يُوجِبُ له محبةً لا يزال غصّاً طريّاً، وغيرُه من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يَمَلُّ مع التردد ويُعادَى إذا أُعيد، وكتابتنا يُستلذُّ به في الخلواتِ ويُؤنَسُ بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكُتُبِ لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لها حُونا وطُرُقاً يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها، أما القرآن فإنه لا يَخْلُقُ على كثرة الردِّ ولا تنقضي عِبرُه ولا تَفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل لا يَشْبَعُ منه العلماء ولا تزيع به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١-٢].

ومنها: جمعه لعلوم ومعارف لم تُعْهَدَ العربُ عامَّةً ولا محمدٌ ﷺ قبل نبوته خاصةً بمعرفتها ولا القيام بها، ولا يُحيط بها أحدٌ من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتابٌ من كتبهم، فجمعَ فيه من بيانِ علمِ الشرائع والتنبيهِ على طرق الحجج العقلية والردِّ على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلة بيّنة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد، رام المتحدِّلقون بعدُ أن ينصبوا أدلةً مثلها، فلم يقدرُوا عليها؛ كقوله تعالى ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى ﴿١﴾﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿١﴾﴾ [يس: ٧٩]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢] إلى ما حواه من علوم

السَّيْرَ وَأَنْبَاءِ الْأُمِّ وَالْمَوَاعِظِ وَالْحِكْمِ وَأَخْبَارِ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَمَحَاسِنِ الْأَدَابِ وَالشَّيْمِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ اسْمُهُ ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْصُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦]، وقال: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، فجمع فيه مع وجازة ألفاظه وجوامع كلمه أضعاف ما في الكتب قبله التي ألفاظها على الضعف منه مراتٍ.

ومنها: جمعه فيه بين الدليل ومدلوله وذلك أنه احتج بنظم القرآن وحسن رصفه وإيجازه وبلاغته وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ووعدته ووعيدته، فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معاً من كلامٍ واحدٍ وسورةٍ منفردةٍ.

ومنها: تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه وتقريبه على متحفظيه قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر: ١٧]، وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم، فكيف الجماء على مرور السنين عليهم والقرآن ميسرٌ حفظه للغلمان في أقرب مدةٍ.

ومنها: مشاكلة بعض أجزائه بعضاً، وحسن ائتلاف أنواعها والتثام أقسامها، وحسن التخلص من قصةٍ إلى أخرى، والخروج من بابٍ إلى غيره على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة إلى أمرٍ ونهيٍ وخبرٍ واستخبارٍ

ووعيدٍ ووعيدٍ وإثبات نبوةٍ وتوحيدٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، إلى غير ذلك من فوائده دون خللٍ يتخلل فصوله.

ومنها: الجملة الكثيرة التي انطوت عليها الكلمات القليلة.

وهذا كله وكثيرٌ مما ذكرنا أنه ذكر في إعجاز القرآن إلى وجوهٍ كثيرةٍ ذكرها الأئمة لم نذكرها، والله ولي التوفيق.

فصل انشقاق القمر

قال الله تعالى: ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ ۗ ﴾ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿ [القمر: ١-٢]. أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي وإعراض الكفرة عن آياته، وأجمع أهل السنة على وقوعه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقةً فوق الجبل وفرقةً دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا^(١٩).

قال علي رضي الله عنه: انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم^(٢٠).

وعن أنس رضي الله عنه قال: سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر مرتين حتى رأوا حراء بينهما^(٢١).

(١٩) صحيح البخاري (١٤٢/٦).

(٢٠) أخرجه الطحاوي في شرح المشكل (١٧٧/٢)، وسنده حسن.

(٢١) صحيح البخاري (١٤٠/٦).

فصل في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته ﷺ

أما الأحاديث في هذا فكثيرةٌ جداً.

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتِيَ رسول الله ﷺ بوضوءٍ فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضؤوا منه. قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم ^(٢٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماءٌ، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اطلبوا من معه فضل ماءٍ»، فأُتِيَ بماءٍ فصبه في إناءٍ، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ^(٢٣).

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوةً، فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماءٌ إلا ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. وفيه: فقلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألفٍ لكفانا، كنا خمس عشرة مائة ^(٢٤).

وفي رواية الوليد بن عباد بن الصامت عنه رضي الله عنه في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواطٍ قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا جابر، نادِ الوضوء، وذكر

(٢٢) صحيح البخاري (٤٥/١)، وصحيح مسلم (١٧٨٣/٤).

(٢٣) صحيح البخاري (٤٥/١)، وصحيح مسلم (١٧٨٣/٤).

(٢٤) صحيح البخاري (١٩٣/٤).

الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قطرةً في عزلاء شَجَبٍ^(٢٥)، فأتى به النبي ﷺ، فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو وقال: نادِ بجفنة الركب، فأتيت فوضعتها بين يديه، وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه، وصبَّ جابراً عليه، وقال: بسم الله. قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة، واستدارت حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء، فاستَقَوْا حتى رَوَوْا، فقلت: هل بقي أحدٌ له حاجةٌ؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي مملأى^(٢٦).

ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به؛ لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل، فهؤلاء قد رَوَوْا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجماء الغفير له ولم ينكر أحدٌ من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له.

ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته وابتعائه بمسه ودعوته.

عن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه في قصة غزوة تبوك وأنهم وردوا العين وهي تبصُّ بشيءٍ من ماءٍ مثل الشراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيءٍ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه وأعادها فيها، فجرت بماءٍ كثيرٍ، فاستقى

(٢٥) عزلاء بفتح العين وإسكان الزاي: فم القرية، والشجب بالإسكان السقاء الذي قد أخلق ويلي وصار شناً. شرح

النووي على صحيح مسلم (١٨/١٤٥).

(٢٦) صحيح مسلم (٤/٢٣٠٧).

الناس. قال في رواية: فانخرق من الماء ما له حسٌ كحسِّ الصواعقِ ثم قال: يُوشِكُ يا معاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما ها هنا قد مُلِيَ جِنَانًا^(٢٧).

وفي حديث البراء وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما في قصة الحديبية: وهم أربع عشرة مائةً وبئرها لا تروي خمسين شاةً، فنزحناها فلم نترك فيها قطرةً فقعده رسول الله ﷺ على جباها^(٢٨). قال البراء: وأتي بدلوا منها فبصق فدعا. وقال سلمة: فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فأزروا أنفسهم وركابهم^(٢٩).

وعن أبي قتادة رضي الله عنه وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ العطش في بعض أسفاره، فدعا بالمِيضَاء فجعلها في ضَبْنِهِ^(٣٠)، ثم التقم فمها، فالله أعلم نفث فيها أم لا، فشرب الناس حتى رَوُوا وَمَلَّؤُوا كل إناءٍ معهم، فخيَّل إلي أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً^(٣١).

ومن ذلك حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما حين أصاب النبي ﷺ وأصحابه عطشٌ في بعض أسفارهم، فوجه رجلين من أصحابه وأعلمهما أنهما يجدان امرأةً بمكان كذا معها بغير عليه مزادتان... الحديث، فوجداها وأتيا بها إلى النبي ﷺ، فجعل في إناءٍ من مزادتيها وقال فيه ما شاء الله أن

(٢٧) الموطأ برواية أبي مصعب الزهري (١٤٣/١)، وهو عند مسلم (١٧٨٤/٤).

(٢٨) بفتح الجيم وتخفيف الباء الموحدة، مقصور: ما حول البئر. شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٥/١٢).

(٢٩) حديث البراء في صحيح البخاري (١٢٢/٥)، وحديث سلمة في صحيح مسلم (١٤٣٣/٣).

(٣٠) قال ابن سيدة: الضبن الإبط وما يليه، وقيل: الضبن ما بين الإبط والكشح، وقيل: ما بين الخاصرة ورأس الورك، وقيل: أعلى الجنب. المحكم (٢١١/٨).

(٣١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٤١٢/٧)، وهو عند مسلم بسياق آخر، وقد أورد بعضه المؤلف بعد هذا الحديث.

يقول، ثم أعاد الماء في المزدتين، ثم فتحت عزاليهما^(٣٢) وأمر الناس فملؤوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئاً إلا ملؤوه. قال عمران: ويخيل إلي أنهما لم تزدادا إلا امتلاءً، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد حتى ملأ ثوبها، وقال النبي ﷺ: فإننا لم نأخذ من مائك شيئاً، ولكن الله سقانا»^(٣٣).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال نبي الله ﷺ: هل من وِضوءٍ؟ فجاء رجلٌ بإداوةٍ فيها نطفةٌ، فأفرغها في قدحٍ، فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقه^(٣٤) أربع عشرة مائة^(٣٥).

وفي حديث عمر رضي الله عنه في جيش العسرة وذكر ما أصابهم من العطش، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، فرغب أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ في الدعاء، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء^(٣٦) فانسكبت، فملؤوا ما معهم من أنيةٍ، ولم تجاوز العسكر^(٣٧).

(٣٢) جمع عزلاء، وهي فم القرية، تقدم.

(٣٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣٢/١)، وأصله في صحيح البخاري (٧٦/١)، وصحيح مسلم (٤٧٤/١).

(٣٤) الدغفقه من دغفق الماء دغفقه، إذا صبه صباً كثيراً. الجمهرة لابن دريد (١١٤٨/٢)

(٣٥) صحيح مسلم (١٣٥٤/٣).

(٣٦) قالت السماء: إذا أمطرت مطراً يسمع صوته. لسان العرب (٢٢٠/٦).

(٣٧) أخرجه البزار (٣٣١/١)، وابن خزيمة في صحيحه (٥٢/١)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٣/٤)، والحاكم في

المستدرک (٢٦٣/١)، وغيرهم، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقواه أيضاً في السير

(٣٣٩/٢) وتاريخ الإسلام (٦٣٥/٢)، وكذا ابن كثير في البداية والنهاية (٩٣/٦).

فصل

ومن معجزاته ﷺ تكثير الطعام ببركته ودعائه، عن جابر رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستطعمه فأطعمه شطرَ وَسْقٍ شعيرٍ فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: لو لم تكله لأكلتم منه ولقाम لكم ^(٣٨).

ومن ذلك حديث أبي طلحة رضي الله عنه المشهور وإطعامه ﷺ ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس رضي الله عنه تحت يده - أي إبطه - فأمر بها ففُتَّتْ وقال فيها ما شاء الله أن يقول ^(٣٩).

وحديث جابر رضي الله عنه في إطعامه ﷺ يوم الخندق ألف رجلٍ من صاع شعيرٍ وعناقٍ، وقال جابرٌ: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجينا ليخبز، وكان رسول الله ﷺ بصق في العجين والبرمة وبارك ^(٤٠).

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ بقصعةٍ فيها لحم فتعاقبوا من غدوةٍ حتى الليل يقوم قومٌ ويقعد آخرون ^(٤١).

(٣٨) صحيح مسلم (١٧٨٤/٤).

(٣٩) صحيح البخاري (١٩٣/٤)، وصحيح مسلم (١٦١٢/٣)، وفيه بعد قوله «ما شاء الله أن يقول»: ثم قال: «أئذن لعشرةٍ فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «أئذن لعشرةٍ فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «أئذن لعشرةٍ فأكل القوم كلهم وشبعوا».

(٤٠) صحيح البخاري (١٠٨/٥)، وصحيح مسلم (١٦١٠/٣).

(٤١) أخرجه الترمذي (٥٩٣/٥) وصححه، وأحمد (٣٦١/٣٣)، والدارمي في سننه (٢٠١/١)، وابن حبان في صحيحه (٤٦٤/١٤)، والحاكم في المستدرک (٦٧٥/٢)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال : كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، وذكر في الحديث أنه عُجِنَ صَاعٌ من طعامٍ وصُنِعَتْ شاةٌ، فشويَ سوادُ بطنها^(٤٢). قال : وايم الله ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حَزَّ له حَزَّةٌ من سوادِ بطنها ثم جعل منها قصعتين، فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين، فحملته على البعير^(٤٣).

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري عن أبيه رضي الله عنه ومثله لسلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن مخمصةً أصابت الناس مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فدعا ببقية الأزواد فجاء الرجل بالحشية من الطعام وفوق ذلك، وأعلاهم الذي أتى بالصاع من التمر، فجمعه على نطع، - قال سلمة: فحزرته كَرَبْضَةَ العنز -، ثم دعا الناس بأوعيتهم، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملأوه، وبقي منه قدر ما جعل وأكثر^(٤٤).

ومن ذلك حديث جابر في دين أبيه رضي الله عنهما بعد موته وقد كان بذل لغرماء أبيه أصل ماله فلم يقبلوه، ولم يكن في ثمرها سنتين كفافٌ دَيْنِهِمْ، فجاء النبي ﷺ بعد أن أمره بجذها وجعلها بيادر في أصولها فمشى فيها ودعا، فأوفى منه جابرٌ غرماء أبيه وفضل مثل ما كانوا يجُدُّون^(٤٥) كل سنة، وفي رواية مثل ما أعطاهم.

(٤٢) سواد البطن هو الكبد. غريب الحديث لابن قتيبة (٣٤٣/١).

(٤٣) صحيح البخاري (٦٩/٧)، وصحيح مسلم (١٦٢٦/٣).

(٤٤) حديث سلمة في صحيح مسلم (١٣٥٤/٣)، وحديث عبد الرحمن بن أبي عمرة أخرجه أحمد (١٨٥/٢٤) وسنده جيد.

(٤٥) من الجداد، وهو صرام النخل وقطع ثمرها. انظر: النهاية في غريب الحديث (٢٤٤/١).

قال: وكان الغرماء يهودَ فعجبوا من ذلك (٤٦).

ومنه أيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين أصابه الجوع فاستتبعه النبي ﷺ فوجد لبناً في قدح قد أهدي إليه وأمره أن يدعو أهل الصفة، قال: فقلت: ما هذا اللبن فيهم؟ كنت أحق أن أصيب منه شربةً أتقوى بها، فدعوتهم وذكر أمر النبي ﷺ له أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يأخذه الآخر حتى روي جميعهم. قال: فأخذ النبي ﷺ القدح وقال: بقيت أنا وأنت، اقعدي فاشربي، فشربت ثم قال: اشربي، وما زال يقولها وأشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلماً، فأخذ القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة (٤٧).

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: تزوج رسول الله ﷺ فصنعت أمي أم سليم حيساً فجعلته في تور، فذهبت به إلى رسول الله ﷺ فقال: ضعه وادع لي فلاناً وفلاناً ومن لقيت، فدعوتهم ولم أدع أحداً لقيته إلا دعوته، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملؤوا الصفة والحجرة، فقال لهم النبي ﷺ: تخلقوا عشرة عشرة، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام فدعا فيه وقال ما شاء الله أن يقول، فأكلوا حتى شبعوا كلهم، فقال لي: ارفع، فما أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت (٤٨).

(٤٦) أخرجه البخاري في صحيحه (١٤/٤) بمعناه. والبيدر الموضع الذي يداس فيه الطعام، قاله الجوهري في الصحاح (٥٨٧/٢)، وقال الثعالبي: «المريد لأهل الحجاز كالأندر لأهل الشام والبيدر لأهل العراق». فقه اللغة (ص ٣٣).

(٤٧) صحيح البخاري (٩٦/٨).

(٤٨) صحيح مسلم (١٠٥١/٢).

فصل في كلام الشجر وشهادتها له ﷺ بالنبوة وإجابتها دعوته

وفي الصحيح في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الطويل قال: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطئي الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش^(٤٩) الذي يصانع قائده، وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك حتى إذا كان بالمنصف بينهما قال: التئما علي بإذن الله فالتأمتا. وفي رواية أخرى: فقال: يا جابر قل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله ﷺ: الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما فزحفت حتى لحقت بصاحبتها فجلس خلفها، فخرجت أحضر وجلست أحدث نفسي فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مقبلاً والشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساقٍ فوق رسول الله ﷺ وقفه فقال برأسه هكذا يمينا وشمالا^(٥٠).

ومن ذلك حديث أنس رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ ورأه حزينا: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم، فنظر رسول الله ﷺ إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، قال: مرها فلترجع، فعادت إلى مكانها^(٥١).

(٤٩) هو البعير الذي يجعل في أنفه خشاش أي: عود إذا كان البعير صعباً، ليذل وينقاد. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٣/١٨).

(٥٠) صحيح مسلم (٢٣٠٦/٤).

(٥١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٦/٢)، وأحمد (١٦٥/١٩)، والبزار في مسنده (٥٦/١٤)، وابن حبان في صحيحه

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأعرابي: أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أنني رسول الله؟ قال نعم، فدعاه فجعل ينقر حتى أتاه فقال ارجع فعاد إلى مكانه^(٥٢).

فصل في قصة حنين الجذع

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان المسجد مستقوفاً على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار^(٥٣).

وفي رواية: حتى ارتج المسجد بخواره^(٥٤)، وفي أخرى: حتى تصدع وانشق حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت^(٥٥).

وفي أخرى: فقال النبي ﷺ: إن هذا بكى لما فقد من الذكر^(٥٦).

وفي رواية: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة»، تحزناً على رسول الله ﷺ^(٥٧).

(٤٣٥/١٤)، وإسناده على شرط مسلم.

(٥٢) جامع الترمذي (٥٩٤/٥) وقال: حسن صحيح، والبخاري في تاريخه الكبير (٣/٣)، والطبراني في الكبير

(١١٠/١٢)، والحاكم في المستدرک (٦٧٦/٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي

(٥٣) صحيح البخاري (١٩٥/٤).

(٥٤) صحيح ابن خزيمة (١٤٠/٣)، وشرح مشكل الآثار (٣٧٨/١٠)، وهو صحيح.

(٥٥) سنن الدارمي (١٨٠/١)، وإسناده حسن.

(٥٦) مسند أحمد (١١٧/٢٢)، وصحيح ابن خزيمة (١٤٠/٣)، وهو صحيح.

(٥٧) سنن الدارمي (١٨٤/١)، وشرح مشكل الآثار (٣٧٨/١٠)، وإسناده صحيح.

وفي رواية عن أبي رضي الله عنه قال: فكان إذا صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلى إليه، فلما هدم المسجد أخذه أبي، فكان عنده إلى أن أكلته الأرض وعاد رفاتاً ^(٥٨).

فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال: يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقاً إليه لمكانه فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه ^(٥٩).

فصل فيما جاء في الطعام والشجر والحجر

عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ^(٦٠).

وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه ^(٦١).

وقال علي رضي الله عنه: كنا بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إلى بعض نواحيها، فما استقبله شجرة ولا جبل إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله ^(٦٢).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي ^(٦٣).

(٥٨) أخرجه ابن ماجه (٤٥٤/١)، وأحمد (١٧٢/٣٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٦/١٠)، وفي إسناده ضعف.

(٥٩) الزهد لابن المبارك (ص ٣٦١)، ومسند أبي يعلى (١٤٢/٥)، وصحيح ابن حبان (٤٣٧/١٤).

(٦٠) صحيح البخاري (١٩٤/٤).

(٦١) أخرجه الترمذي (٥٩٧/٥)، وابن أبي شيبة في مسنده (٢٤٧/١) ومصنفه (٣١٦/٦)، وابن خزيمة في صحيحه (١٠٢/١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥/٩)، وهو صحيح.

(٦٢) أخرجه الترمذي (٢٥/٦)، والحاكم في المستدرک (٦٧٧/٢) وصححه، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة [٢٦٧٠].

(٦٣) صحيح مسلم (١٧٨٢/٤).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحدًا فرجف بهم، فقال: اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان (٦٤).

فصل في الآيات في ضروب الحيوانات

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا داجنٌ (٦٥)، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت مكانه فلم يجئ ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب (٦٦).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما - في قصة شكوى جمل - قال: وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل عليه النبي ﷺ دعاه، فوضع مشفره على الأرض وبرك بين يديه، فخطمه، وقال: ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله ﷺ إلا عاصي الجن والإنس (٦٧). وفي خبرٍ آخر في حديث الجمل أن النبي ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه. وفي رواية: أن النبي ﷺ قال لهم: إنه شكا كثرة العمل وقلة العلف (٦٨).

(٦٤) صحيح البخاري (٩/٥).

(٦٥) هي الشاة التي يعلقها الناس في منازلهم ولا يبعث بها إلى المرعى. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/٥٥٤). (٦٦) أخرجه أحمد (٤١/٣٢٠)، والبزار في مسنده (١٨/٢٣٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/١٩٥)، وغيرهم، وهو صحيح.

(٦٧) أخرجه أحمد (٢٢/٢٣٦)، والدارمي في سننه (١/١٦٩)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٣٣٧)، ومن طريقه ابن حبان في الثقات (٤/٢٢٣)، وأورده الألباني في الصحيحة [١٧١٨].

(٦٨) أخرجه أحمد (٢٩/١٠٦) وغيره، وفي إسناده ضعف، لكن أخرج أبو داود (٣/٢٣) وأحمد (٣/٢٧٤) وغيرهما من حديث عبد الله بن جعفر بسند صحيح على شرط مسلم - وأصله في صحيحه (صحيح مسلم ١/٢٦٨) دون

وعن عبد الله بن قُرْطٍ رضي الله عنه قال: قرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بدناؤُ خمسٍ أو ستٍ أو سبعٍ لينحرها يوم عيد، فزدلفن إليه بأيهن يبدأ ^(٦٩).

ومن هذا الباب ما روي من تسخير الأسد لسفينة صلى الله عليه وسلم مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ وجهه إلى معاذٍ باليمن، فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه كتابه، فهمهم وتنحى عن الطريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك ^(٧٠). وفي روايةٍ أخرى عنه: أن سفينةً تكسرت به فخرج إلى جزيرةٍ، فإذا الأسد فقلت: أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق ^(٧١).

فصل في إبراء المرضى وذوي العاهات

أصيب يوم أحدٍ عين قتادة بن النعمان رضي الله عنه حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه ^(٧٢).

وتفل في عيني عليٍّ رضي الله عنه يوم خيبر وكان رمداً فأصبح بارئاً ^(٧٣). ونفت على ضربةٍ بساق سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يوم خيبر فبرئت ^(٧٤). واشتكى علي بن

قصة الجمل.

(٦٩) أخرجه أبو داود (١٤٨/٢)، وأحمد (٤٢٧/٣١)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٣٦٧/٤)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٥٩/٣)، وشرح المعاني (٥٠/٣)، وإسناده صحيح.

(٧٠) أخرجه الحاكم في المستدرک (٦٧٥/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٩/١)، والبيهقي في الاعتقاد (ص٣١٦).

(٧١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٨١/١١)، والبخاري (٢٨٥/٩)، والرويانى في مسنده (٤٣٦/١)، وغيرهم.

(٧٢) أخرجه ابن إسحاق (ص٣٢٩)، ومن طريقه ابن هشام في السيرة (٨٢/٢) وابن أبي شيبة في المصنف (٤٠٠/٦).

(٧٣) صحيح البخاري (١٣٤/٥)، وصحيح مسلم (١٨٧٢/٤).

(٧٤) صحيح البخاري (١٣٣/٥).

أبي طالب ﷺ فجعل يدعو، فقال النبي ﷺ: اللهم اشفه - أو عافه - ثم ضربه برجله، فما اشتكى ذلك الوجع بعد (٧٥).

فصل في إجابة دعائه ﷺ

وهذا باب واسع جدًا، وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعةٍ بما دعا لهم وعليهم متواترٌ على الجملة معلومٌ ضرورةً.

عن أنسٍ ﷺ قال: قالت أمي: يا رسول الله، خادمك أنسٌ ادع الله له، قال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته (٧٦).

ومن رواية عكرمة قال أنسٌ ﷺ: فو الله إن مالي لكثيرٌ، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون اليوم على نحو المائة (٧٧).

ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوفٍ ﷺ بالبركة، قال عبد الرحمن: فلو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب تحته ذهبًا (٧٨).

ودعا لسعد بن أبي وقاصٍ ﷺ أن يجيب الله دعوته، فكان مجاب الدعوة (٧٩).

(٧٥) أخرجه الترمذي (٥٦٠/٤)، والطيالسي (١٢٢/١)، وأحمد (٢٠٥/٢)، والبخاري (٢٨٧/٢) في مسانيدهم، وابن حبان في صحيحه (٣٨٨/١٥)، وهو حديث حسن.

(٧٦) صحيح البخاري (٧٣/٨)، وصحيح مسلم (١٩٢٨/٤).

(٧٧) صحيح مسلم (١٩٢٩/٤).

(٧٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٢٦/٣)، وأحمد (٣٤٦/٢١)، وعبد بن حميد (ص ٣٩٥)، وإسناده صحيح.

(٧٩) أخرجه الترمذي (٦٤٩/٥)، والبخاري (٥٤/٤)، وابن حبان في صحيحه (٤٥٠/١٥)، والحاكم في المستدرک

(٥٧٠/٣)، وصححه عن سعد بن أبي وقاصٍ أن النبي ﷺ قال لسعد: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك»، وفي بعض

طرقه: «اللهم سدد رميته وأجب دعوته»، وصححه الألباني في تخريجه للمشكاة [٦١١٦]، وفي تعليقاته الحسان على

ودعا لعز الإسلام بعمر رضي الله عنه أو بأبي جهل، فاستجيب له في عمر ^(٨٠).
 وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ^(٨١).
 وأصاب الناس في بعض مغازيه عطشٌ، فسأله أبو بكر رضي الله عنه الدعاء فدعا،
 فجاءت سحابةٌ، فسقتهم حاجتهم ثم أفلعت ^(٨٢).

ودعا في الاستسقاء فسُقوا، ثم شكوا إليه المطر فدعا فصَحوا ^(٨٣).
 وقال للنابغة رضي الله عنه: لا يَفْضُضِ اللهُ فاك، فما سقطت له سنٌ، وفي رواية:
 فكان أحسنَ الناسِ ثغراً، إذا سقطتْ له سنٌ نبتتْ له أخرى، وعاش عشرين
 ومائةً، وقيل أكثر من هذا ^(٨٤).

ودعا لابن عباس رضي الله عنهما فقال: اللهم فقَّهه في الدين وعلمه
 التأويل ^(٨٥)، فسُمِّيَ بعدُ الحبرَ وترجمانَ القرآن.

صحيح ابن حبان (١٠٧/١٠).

(٨٠) حديث صحيح، روي من حديث ابن عمر كما في جامع الترمذي (٦١٧/٥)، ومسند عبد بن حميد (ص ٢٤٥)،
 وصحيح ابن حبان (٣٠٥/١٥)، ومن حديث خباب كما في مسند البزار (٥٧/٦)، وغيرهما من الصحابة، وأورد
 الحافظ ابن حجر للحديث عدة طرق أخرى في الفتح (٤٨/٧) وقواه بها.

(٨١) صحيح البخاري (٢٢/٥).

(٨٢) أخرجه البزار في مسنده (٣٣١/١)، وابن خزيمة في صحيحه (٥٢/١)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٣/٤)،
 والحاكم في المستدرک (٢٦٣/١)، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه الحاكم على شرط الشيخين،
 ووافقه الذهبي، وقال في السير (١٦٢/٢): «حديث حسن قوي».

(٨٣) صحيح البخاري (١٢/٢)، وصحيح مسلم (٦١٢/٢) نحوه.

(٨٤) انظر: الإصابة للحافظ ابن حجر (٢٠٩-٢١٢)، فقد أطال في ذكر طرق هذه القصة.

(٨٥) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٢٣٠/٤)، وأحمد (٢٢٥/٤)، وفي فضائل الصحابة (٩٥٥/٢)، وابن حبان
 في صحيحه (٥٢١/١٥)، وغيرهم، وإسناده على شرط مسلم، وهو في صحيح البخاري (٤١/١) دون لفظ «وعلمه
 التأويل».

ودعا لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهما بالبركة في صفقة يمينه فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه^(٨٦).

ودعا بمثله لعروة بن أبي الجعد رضي الله عنه، فقال: فلقد كنت أقوم بالكناسة، فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً، وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى التراب ربح فيه^(٨٧).

ودعا لأم أبي هريرة رضي الله عنهما فأسلمت^(٨٨).

ودعا لعلي رضي الله عنه أن يكفى الحر والقر، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف وفي الصيف ثياب الشتاء ولا يصيبه حرٌّ ولا بردٌ^(٨٩).

ودعا على مُضَرَ فَأَقْحَطُوا حتى استعظفته قريشٌ فدعا لهم فسُقُوا^(٩٠).

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه^(٩١)، فلم تبق له باقيةٌ ولا بقيت لفارس رياسةٌ في أقطار الدنيا.

(٨٦) أخرجه الطيالسي في مسنده (٢٨٧/٢)، وابن سعد في الطبقات (٢٧/٤)، وأحمد (٢٧٩/٣)، والنسائي في الكبرى (٣١٥/٧)، والطحاوي في شرح المشكل (٣١٥/٧)، وغيرهم، وإسناده صحيح.

(٨٧) صحيح البخاري (٢٠٧/٤).

(٨٨) صحيح مسلم (١٩٣٨/٤).

(٨٩) أخرجه ابن ماجه (٤٣/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٧/٦)، وأحمد (٣٤٢/٢)، وفي فضائل الصحابة

(٥٦٤/٢)، والبخاري في مسنده (١٣٥/٢)، والنسائي في خصائص علي (ص ٣٩)، والطبراني في الأوسط

(٣٨٠/٢)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢/٩)، وكذا الألباني في صحيح سنن ابن ماجه [١١٧].

(٩٠) صحيح مسلم (٢١٥٦/٤).

(٩١) صحيح البخاري (٢٣/١).

وقال لرجلٍ رآه يأكل بشماله: كل بيمينك، فقال: لا أستطيع، فقال: لا استطعت فلم يرفعها إلى فيه^(٩٢).

وقال لعتبة بن أبي لهب: اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك، فأكله الأسد^(٩٣).

وحديثه المشهور من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في دعائه على قريش حين وضعوا السلا على رقبتة - وهو ساجدٌ - مع الفرثِ والدمِ، وسماهم، وقال: فلقد رأيتهم قُتلوا يومَ بدرٍ^(٩٤).

فصل في كرامته رضي الله عنه وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل المدينة فزعوا مرةً، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسًا لأبي طلحة كان يَقْطِفُ - أو به قِطَافٌ^(٩٥) -، وقال غيره: يُبْطَأُ، فلما رجع قال: وجدنا فرسك بحرًا، فكان بعدُ لا يُجَارَى^(٩٦).

ونخس جمل جابر رضي الله عنه وكان قد أعيا، فنشط حتى كان ما يملك زمامه^(٩٧).

وفي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها أخرجت جبة

(٩٢) صحيح مسلم (١٥٩٩/٣).

(٩٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (كما في بغية الباحث (٥٦٢/٢))، ومن طريقه أبو نعيم في معجم الصحابة (٢٤٨٨/٥)، والحاكم في المستدرک (٥٨٨/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى (٣٤٦/٥)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٩/٤).

(٩٤) صحيح البخاري (١١٠/١)، وصحيح مسلم (١٤١٩/٣).

(٩٥) القِطَافُ السير البطيء. غريب الحديث لابن قتيبة (٤٣٦/١).

(٩٦) صحيح البخاري (٢٢/٤)، وصحيح مسلم (١٨٠٢/٤).

(٩٧) صحيح البخاري (١٨٩/٣)، وصحيح مسلم (١٢٢١/٣).

طيارسةٍ وقالت: كان رسول الله ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها^(٩٨).

وكان لأم مالك رضي الله عنها عكةٌ تُهدي فيها للنبي ﷺ سمناً، فأمرها النبي ﷺ أن لا تعصرها ثم دفعها إليها، فإذا هي مملوءةٌ سمناً فيأتيها بنوها يسألونها الأدم وليس عندهم شيء، فتعمد إليها فتجد فيها سمناً، فكانت تقسم أدمها حتى عصرتها^(٩٩).

ومن ذلك بركة يده فيما لمسه وغرسه لسلمان رضي الله عنه حين كاتبه مواليه على ثلثمائة وديّة^(١٠٠) يغرسها لهم، كلها تعلق وتطعم^(١٠١)، وعلى أربعين أوقيةً من ذهبٍ، فقام رضي الله عنه وغرسها له بيده إلا واحدةً غرسها غيره، فأخذت كلها إلا تلك الواحدة، فقلعها النبي رضي الله عنه وردّها فأخذت^(١٠٢).

وفي رواية: فأطعم النخل من عامه إلا الواحدة، فقلعها رسول الله ﷺ وغرستها، فأطعمت من عامها^(١٠٣).

وأعطى قتادة بن النعمان رضي الله عنه - وصلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة - عرجوناً، وقال: انطلق به، فإنه سيضيء لك من بين يديك عشراً ومن

(٩٨) صحيح مسلم (١٦٤١/٣).

(٩٩) صحيح مسلم (١٧٨٤/٤).

(١٠٠) هي الفسيل. انظر: الجمهرة (٦٨٩/٢).

(١٠١) أي: أدرك ثمرها. القاموس المحيط (ص ١١٣٣).

(١٠٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢٠١/١-٢٠٣)، وابن سعد في الطبقات (٤/٥٦-٥٩)، وأحمد (١٤٧/٣٩)

مختصراً، والطحاوي في مشكل الآثار (١٦٣/١١)، وغيرهم، وإسناده حسن.

(١٠٣) مسند البزار (٢٩٣/١٠).

خلفك عشراً، فإذا دخلت بيتك فستري سواداً فاضربه حتى يخرج فإنه الشيطان، فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد فضربه حتى خرج (١٠٤).

ومنه بركته في درور الشياخ الحوائل (١٠٥) باللبن الكثير كقصة شاة أم معبد (١٠٦). وغنم حليلة رضي الله عنها مرضعته وشارفها (١٠٧). وشاة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وكانت لم يَنْزُ عليها فحل (١٠٨). وشاة المقداد (١٠٩).

وكان يوجد لعتبة بن فرقد رضي الله عنه طيبٌ يغلب طيب نسائه؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح بيده على بطنه وظهره (١١٠).

(١٠٤) أخرجه أحمد (١٦٩/١٨)، والبخاري (٢٦١/٣)، وابن خزيمة في صحيحه (٨١/٣)، وإسناده لا بأس به.

(١٠٥) قال الأزهري: «وحدات الناقة... وغيرها إذا لم تحمل، وناقة حائل ونوق حوائل». تهذيب اللغة (١٥٧/٥).
 (١٠٦) القصة أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٣٠/١)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٢٥٢/٦)، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٨٣٢-٨٢٩/٢)، والطبراني في الكبير (٤٨/٤، ١٠٥/٧)، والحاكم في المستدرک (١٠/٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في تعليقه على فقه السيرة (ص ١٦٨).
 (١٠٧) أخرجه ابن هشام في السيرة (١٦٢/١)، وأبو يعلى في مسنده (٩٣/١٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٤٤/١٤)، والطبراني في الكبير (٢١٢/٢٤)، وأبو نعيم في الدلائل (١٥٥/١) وغيرهم. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢١/٨): «رواه أبو يعلى والطبراني.. ورجالهما ثقات».

(١٠٨) أخرج القصة الطيالسي (٢٧٦/١)، وابن أبي شيبه (٢١٥/١)، وأحمد (٨٢/٦، ٤١٦/٧) كلهم في مسانيدهم، والطحاوي في مشكل الآثار (٢٧٨/١١)، وابن حبان في صحيحه (٤٣٢/١٤)، وغيرهم، وهو صحيح بمجموع طرقه.

(١٠٩) القصة في صحيح مسلم (١٦٢٥/٣).

(١١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأحاد والمثاني (٧٢/٣)، وأسلم الواسطي في تاريخ واسط (ص ١٠٠)، والطبراني في الكبير (١٣٣/١٧)، ورجاله ثقات.

ووضع يده على رأس حنظلة بن حذيم وبرك عليه فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه والشاة قد ورم ضرعها، فيوضع على موضع كف النبي ﷺ فيذهب الورم (١١١).

ومَجَّ في دلوٍ من بئرٍ ثم صبَّ فيها، ففاح منها ريح المسك (١١٢).

وأخذ قبضةً من ترابٍ يوم حنينٍ ورمى بها في وجوه الكفار وقال: شاهت الوجوه، فانصرفوا يمسحون القذى عن أعينهم (١١٣).

وشكا إليه أبو هريرة رضي الله عنه النسيان، فأمره ببسط ثوبه وغرف بيده فيه ثم أمره بضمه ففعل، فما نسي شيئاً بعد (١١٤).

وضرب صدر جرير بن عبد الله رضي الله عنه ودعاه، وكان ذكر له أنه لا يثبت على الخيل، فصار من أفرس العرب وأثبتهم (١١٥). وما يروى في هذا كثير.

فصل

ومن ذلك ما أُطلع عليه من الغيوب وما يكون، والأحاديث في هذا الباب بحرٌ لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة

(١١١) أخرجه أحمد (٢٦٣/٣٤) في قصة، وأبو يعلى في مفاريد (ص ١٠٩)، والطبراني في الكبير (١٣/٤)، والأوسط

(١٩١/٣)، والبيهقي في الدلائل (٢١٤/٦)، وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٩٥٥].

(١١٢) أخرجه أحمد (١٣٤/٣١)، وابن قانع في معجم الصحابة (١٨٢/٣)، والطبراني في الكبير (٥١/٢٢)، والبيهقي

في الدلائل (٢٥٧/١)، وإسناده قابل للتحسين.

(١١٣) صحيح مسلم (١٤٠٢/٣).

(١١٤) صحيح البخاري (٢٠٨/٤، ٣٥/١).

(١١٥) صحيح البخاري (٦٥/٤)، وصحيح مسلم (١٩٢٥/٤).

على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الإطلاع على الغيب.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه ^(١١٦).

وقال أبو ذر رضي الله عنه: لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علمًا ^(١١٧).

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم صلى الله عليه وسلم به أصحابه مما وعدهم به؛ من الظهور على أعدائه، وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله ^(١١٨). وأن المدينة ستغزى، وتفتح خيبر على يدي علي رضي الله عنه في غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وما يحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقةً ناجية منها فرقة واحدة ^(١١٩).

(١١٦) صحيح مسلم (٤/٢٢١٧).

(١١٧) أخرجه أحمد (٣٥/٢٩٠)، والبخاري في مسند (٩/٣٤١)، والطبراني في الكبير (٢/١٥٥)، وأبو طاهر المخلص كما في المخلصيات (٣/٣١)، وأورده الألباني في الصحيحة [١٨٠٣].

(١١٨) صحيح البخاري (٤/١٩٧).

(١١٩) أخرجه ابن ماجه (٢/١٣٢٢)، وأحمد (١٩/٢٤١)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٧، ٣٢)، وغيرهم، وهي حديث صحيح.

وقتالهم الترك^(١٢٠) والروم. وذهب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده، وذهب قيصر حتى لا قيصر بعده^(١٢١).

وقال: «ويل للعرب من شرٍ قد اقترب»^(١٢٢). وأنه زويت له الأرض فآري مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمته ما زوي له منها^(١٢٣).

ولذلك امتدت في المشارق والمغرب ما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة، حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم، ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك.

وقوله «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»^(١٢٤). ذهب ابن المديني إلى أنهم العرب؛ لأنهم المختصون بالسقي بالغرب وهي الدلو، وغيره يذهب إلى أنهم أهل المغرب، وقد ورد المغرب كذا في الحديث بمعناه^(١٢٥).

وقال في حنظلة الغسيل رضي الله عنه: «سلوا زوجته عنه، فإني رأيت الملائكة تغسله»، فسألوها فقالت: إنه خرج جنبًا وأعجله الحال عن الغسل، قال أبو سعيد رضي الله عنه: ووجدنا رأسه يقطر ماءً^(١٢٦).

(١٢٠) قتال الترك جاء في صحيح البخاري (٤٣/٤)، وصحيح مسلم (٢٢٣٣/٤).
(١٢١) أخرجه الترمذي (٤٩٧/٤)، والطيالسي (٣٠٦/٤)، والشافعي (١٨٦/٢) بترتيب السندي، والحميدي (٢٥٨/٢)، وإسحاق بن راهويه (٣٩٣/١)، وأحمد (١٠٨/١٢)، كلهم في مسانيدهم، وهو حديث صحيح.

(١٢٢) صحيح البخاري (١٣٨/٤)، وصحيح مسلم (٢٢٠٨/٤).

(١٢٣) صحيح مسلم (٢٢١٥/٤).

(١٢٤) صحيح مسلم (١٥٢٥/٣).

(١٢٥) ينظر: فتح الباري (٢٩٥/١٣).

(١٢٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٩٦/١٥)، والطبراني في الكبير (٣٩١/١١)، والحاكم في المستدرک (٢٢٥/٣)،

وقال: «الخلافة في قريش، ولن يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين»^(١٢٧).

وقال: «يكون في ثقيف كذاب ومبير»، فأوهما الحجاج والمختار^(١٢٨). وأن مسيلمة يعقره الله^(١٢٩). وأن فاطمة أول أهله لحوقاً به^(١٣٠). وأنذر بالردة^(١٣١). وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً^(١٣٢). فكانت كذلك بمدة الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وأخبر بشأن أويس القرني^(١٣٣). وبأمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها^(١٣٤). وسيكون في أمته ثلاثون كذاباً فيهم أربع نسوة^(١٣٥).

وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة [٣٢٦].

(١٢٧) هو في الصحيحين بمعناه (صحيح البخاري (١٧٩/٤)، صحيح مسلم (١٤٥١/٣).

(١٢٨) صحيح مسلم (١٩٧١/٤).

(١٢٩) صحيح البخاري (٢٠٣/٤)، وصحيح مسلم (١٧٨٠/٤).

(١٣٠) صحيح البخاري (٢٠٣/٤)، وصحيح مسلم (١٩٠٥/٤).

(١٣١) مثل قوله في الصحيحين (صحيح البخاري ٥٨/٩، صحيح مسلم ٢٢٣٠/٤): «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس، حول ذي الخلصة» وكانت صنماً تعبدها دوس في الجاهلية بتبالة». وينظر: شرح الشفا (٦٩١/١).

(١٣٢) أخرجه الترمذي (٥٠٣/٤)، وعلي بن الجعد في مسنده (ص ٤٧٩)، وأحمد (٢٥٦/٣٦) وفي فضائل الصحابة (ص ٤٨٨)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٢٩/١)، والنسائي في الكبرى (٣١٣/٧)، وابن حبان في صحيحه (٣٩٢/١٥)، وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة [٤٥٩].

(١٣٣) صحيح مسلم (١٩٦٨/٤).

(١٣٤) صحيح مسلم (٤٤٩، ٤٤٨/١).

(١٣٥) صحيح البخاري (٢٠٠/٤)، وصحيح مسلم (٢٢٣٩/٤) دون قوله: «فيهم أربع نسوة»، من غير جزم بأنهم ثلاثون، ولفظهما: «... قريب من ثلاثين»، ويؤيد ذلك ما أخرجه أحمد (٣٨٠/٣٨) وغيره بإسناد صحيح من حديث حذيفة مرفوعاً: «في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون: منهم أربع نسوة، وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي».

وقال: لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجلٌ من قحطان^(١٣٦).
وقال: خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم، ثم يأتي بعد ذلك قومٌ يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن^(١٣٧).

وقال: «هالك أمتي على يدي أغيلمة من قريش»، وقال أبو هريرة راويه رضي الله عنه: لو شئت سميتهم لكم: بنو فلان وبنو فلان^(١٣٨).

وأخبر بقلّة الأنصار حتى يكونوا كالمالح في الطعام^(١٣٩) فلم يزل أمرهم يتبدّد حتى لم يَبْقَ لهم جماعةٌ، وأنهم سيَلْقَوْنَ بعده أثره^(١٤٠).
وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم والمُخَدَّج الذي فيهم^(١٤١). وأن سيماهم التحليق^(١٤٢).

وِيرَى رِعاءِ الغنمِ رُؤوسَ النَّاسِ، والعُراة الحفاة يَتَبَارَوْنَ في البنيان، وأن تَلِدَ الأمةُ رَبَّتَها^(١٤٣).

وأن قريشًا والأحزاب لا يغزونه أبدًا، وأنه هو يغزوهم^(١٤٤).

(١٣٦) صحيح البخاري (١٨٣/٤)، وصحيح مسلم (٢٢٣٢/٤).

(١٣٧) صحيح البخاري (١٧١/٤)، وصحيح مسلم (١٩٦٤/٤).

(١٣٨) صحيح البخاري (٤٧/٩، ١٩٩/٤).

(١٣٩) صحيح البخاري (٣٥/٥).

(١٤٠) صحيح البخاري (٩٨/٤)، وصحيح مسلم (٧٣٨/٢).

(١٤١) صحيح مسلم (٧٤٧/٢).

(١٤٢) صحيح البخاري (١٦٢/٩).

(١٤٣) صحيح البخاري (١١٥/٦)، وصحيح مسلم (٣٦/١).

(١٤٤) صحيح البخاري (١١٠/٥).

وأخبر بالموتان الذي يكون بعد فتح بيت المقدس ^(١٤٥). وما وعد من سُكنى
البصرة ^(١٤٦)، وأنهم يغزون في البحر كالمملوك على الأسيرة ^(١٤٧)، وأن الدين لو
كان منوطاً بالثريا لناله رجالٌ من أبناء فارس ^(١٤٨).

وهاجت ريحٌ في غزاته، فقال: هاجت لموت منافقٍ، فلما رجعوا إلى المدينة
وجدوا ذلك ^(١٤٩).

وأعلم بالذي غل خرزاً من خرز يهود، فوجدت في رحله ^(١٥٠)، وبالذي غل
الشملة وحيث هي ^(١٥١)، وبشأن كتاب حاطبٍ إلى أهل مكة ^(١٥٢).

وأخبر بالمال الذي تركه عمه العباس رضي الله عنه عند أم الفضل رضي الله عنها
بعد أن كتّمه، فقال: ما علمه غيرى وغيرها فأسلم ^(١٥٣).

(١٤٥) صحيح البخاري (١٠١/٤).

(١٤٦) يشير إلى ما أخرجه أبو داود (١١٣/٤) وغيره من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أنس، إن
الناس يمصرون أمصاراً، وإن مصراً منها يقال له: البصرة - أو البصيرة - فإن أنت مررت بها، أو دخلتها، فإياك
وسباخها، وكلاءها، وسوقها، وباب أمرائها، وعليك بضواحيها، فإنه يكون بها خسفٌ وقذفٌ ورجفٌ، وقومٌ يبيتون
يصبحون قردهً وخنازير». وقوى إسناده العلائي في النقد الصحيح (ص ٤٨)، وأورده الألباني في صحيح الجامع
(١٢٩٧/٢).

(١٤٧) صحيح مسلم (١٥١٩/٣).

(١٤٨) صحيح البخاري (١٥١/٦)، وصحيح مسلم (١٩٧٢/٤).

(١٤٩) صحيح مسلم (٢١٤٥/٤).

(١٥٠) أخرجه أبو داود (٦٨/٣)، والنسائي (٦٤/٤)، وابن ماجه (٩٥٠/٢)، وأحمد (٢٥٧/٢٨)، وابن حبان في
صحيحه (١٩١/١١)، والحاكم في المستدرک (١٣٨/٢)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(١٥١) صحيح البخاري (١٣٨/٥)، وصحيح مسلم (١٠٧/١).

(١٥٢) صحيح البخاري (٥٩/٤)، وصحيح مسلم (١٩٤١/٤).

(١٥٣) أخرجه أحمد (٣٣٥/٥)، والحاكم في المستدرک (٣٦٦/٣)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وفي
إسناده أحمد رجل لم يسم، وإسناده الحاكم حسن.

وفي عتبة بن أبي لهب أنه يأكله كلب الله^(١٥٤)، وعن مصارع أهل بدر^(١٥٥)، فكان كما قال .

وقال في الحسن رضي الله عنه: «إن ابني هذا سيّدٌ وسيُصلحُ الله به بين فئتين»^(١٥٦)،
ولسعدٍ رضي الله عنه: «لعلك تُخلفُ حتى ينتفع بك أقوامٌ ويستضربَ بك آخرون»^(١٥٧).

وأخبر بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهرٍ أو أزيد^(١٥٨)، وموت
النجاشي رحمه الله يوم مات وهو بأرضه^(١٥٩).

وأخبر فيروز رحمه الله إذ ورد عليه رسولاً من كسرى بموت كسرى ذلك
اليوم فلما حقق فيروز القصة أسلم^(١٦٠).

وأخبر أن أسرعَ أزواجه به لحوقاً أطولهن يداً، فكانت زينب رضي الله عنها
لطول يدها بالصدقة^(١٦١).

(١٥٤) مضى تخريجه في فصل إجابة دعائه، فلتراجعه.

(١٥٥) صحيح مسلم (١٤٠٣/٣).

(١٥٦) صحيح البخاري (١٨٦/٣).

(١٥٧) صحيح البخاري (٨١/٢)، وصحيح مسلم (١٢٥٠/٣).

(١٥٨) صحيح البخاري (٢٧/٥).

(١٥٩) صحيح البخاري (٧٢/٢)، وصحيح مسلم (٢٥٧/٢).

(١٦٠) أخرج أحمد (٨٥/٣٤)، والبخاري (١٠٦/٩)، وغيرهما «أن رجلاً من أهل فارس أتى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «إن ربي قتل ربك» يعني كسرى»، وصححه الألباني في الصحيحة [١٤٢٩] بمجموع طرقه، ولم نقف في طريقه أنه فيروز ولا أنه أسلم بعد ذلك.

(١٦١) صحيح البخاري (١١٠/٢)، وصحيح مسلم (١٩٠٧/٤).

وأخبر بقتل الحسين عليه السلام بالطَّف^(١٦٢)، وأخرج بيده تربةً وقال فيها مضجعه^(١٦٣).

وقال في الذين كانوا معه على حراءٍ: اثبت فإنما عليك نبئٌ وصديقٌ وشهيدٌ، فقتل عليٌّ وعمر وعثمان وطلحة والزبير وطعن سعدٌ عليه السلام^(١٦٤).

وقال: لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة^(١٦٥).

إلى ما أخبر به جلساءه من أسرارهم وبواطنهم وأطلع عليه من أسرار المنافقين وكفرهم وقولهم فيه وفي المؤمنين.

وإعلامه بصفة السحر الذي سحره به لبيد بن الأعصم وكونه في مشطٍ ومُشاطةٍ في جُفٍّ^(١٦٦) طَلَعِ نَحْلَةَ ذَكَرَ وَأَنَّهُ أَلْقَى فِي بَثْرِ ذَرَّوَانَ^(١٦٧)، فكان كما قال، ووُجِدَ على تلك الصفة.

إلى ما أخبر به من الحوادث التي تكون ولم تَأْتِ بَعْدُ منها، فظهرت مقدماتها كقوله «عِمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابٌ يَثْرِبُ، وَخَرَابٌ يَثْرِبُ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتَحُ الْقِسْطَنْطِينِيَّةَ»^(١٦٨).

(١٦٢) والطَّفُ ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق. الجمهرة (١٤٩/١).

(١٦٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٧/٣) والأوسط (٢٤٩/٦)، وغيرهما، وأورده الألباني في الصحيحة [١١٧١].

(١٦٤) أخرجه أبو داود (٢١١/٤)، والترمذي (٦٥١/٥)، وابن ماجه (٤٨/١)، وأبو داود الطيالسي (١٩١/١)، وأحمد

(١٨١/٣)، وفي فضائل الصحابة (ص ١١٣)، والنسائي في الكبرى (٣١٣/٧)، وابن حبان (٤٥٨/١٥) في

صحيحه والحاكم في المستدرک (٥٠٩/٣)، وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة [٨٧٥].

(١٦٥) صحيح البخاري (٢٠٠/٤)، وصحيح مسلم (٢٢١٤/٤).

(١٦٦) الجُفُّ (وكذا الجب) وعاء طلع النخل وهو الغشاء الذي يكون عليه. شرح النووي على مسلم (١٧٧/١٤).

(١٦٧) صحيح البخاري (١٣٦/٧)، وصحيح مسلم (١٧١٩/٤).

(١٦٨) أخرجه أبو داود (١١٠/٤)، وعلي بن الجعد في مسنده (ص ٤٨٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٩٠/٧)،

ومن أشراط الساعة وآيات حلولها وذكر النسر والحشر وأخبار الأبرار والفجار والجنة والنار وعرصات القيامة، وبحسب هذا الفصل أن يكون ديواناً مفرداً يشتمل على أجزاءٍ وحده، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرناها كفايةً وأكثرها في الصحيح وعند الأئمة.

فصل في عصمة الله تعالى له ﷺ من الناس وكفايته من آذاه

قال الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، وقال ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦]، قيل: بكافٍ محمداً ﷺ أعداءه المشركين، وقيل غير هذا، وقال ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]، وقال ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُحْرَسُ حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني ربي عز وجل (١٦٩).

[وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العِصاه،

وأحمد (٣٥٢/٣٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٥٠/١)، والطبراني في الكبير (١٠٨/٢٠)، وفي مسند الشاميين (١٢٢/١)، وغيرهم، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٧٥٤/٢).
(١٦٩) أخرجه الترمذي (٢٥١/٥)، وسعيد بن منصور في سننه (كتاب التفسير، تحقيق د. سعد الحميد) (١٥٠٣/٤)، والحاكم في المستدرک (٣٤٢/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ في الفتح (٩٦/٦)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٤٨٩].

فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سمرةٍ وعلق بها سيفه، ومنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا، وإذا عنده أعرابيٌّ، فقال: «إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائمٌ، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، - ثلاثاً -»، ولم يعاقبه وجلس (١٧٠).

ومنه حمايته ﷺ عن رؤيتهم في الغار بما هيا الله له من الآيات ومن العنكبوت الذي نسج عليه، حتى قال أمية بن خلف حين قالوا ندخل الغار: ما أربكم فيه؟ وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمدٌ، ووقفت حمامتان على فم الغار، فقالت قريش: لو كان فيه أحدٌ لما كانت هناك الحمام (١٧١).

وقصته مع سراقه بن مالك بن جعشم رضي الله عنه حين الهجرة وقد جعلت قريش فيه وفي أبي بكر رضي الله عنه الجعائل، فأندر به فركب فرسه وأتبعه، حتى إذا قرب منه دعا عليه النبي ﷺ فساخت قوائم فرسه فخر عنها، واستقسم بالأزلام فخرج له ما يكره، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر رضي الله عنه يلتفت، وقال للنبي ﷺ: أتيننا، فقال: لا تحزن إن الله معنا، فساخت ثانيةً إلى ركبته وخر عنها، فزجرها فنهضت ولقوائمها مثل الدخان، فناداهم

(١٧٠) صحيح البخاري (٤/٣٩-٤٠)، وصحيح مسلم (٤/١٧٨٦). وقد حذفنا ما أورده المؤلف هنا من طرق الحديث المختلفة من خارج الصحيحين، واكتفينا بإيراد النص من الصحيحين بين معقوفين.
(١٧١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/٣٨٤-٣٩٥)، وأحمد (٥/٣٠١)، والطبري في تفسيره (١١/١٣٦)، والطبراني (١١/٤٠٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٣/١٩١)، وغيرهم، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٣٩): «هذا إسناد حسن»، وكذا حسنه الحافظ في الفتح (٧/٢٧٨).

بالأمان، فكتب له النبي ﷺ أماناً، كتبه ابن فهيرة رضي الله عنه، وقيل: أبو بكر رضي الله عنه وأخبرهم بالأخبار، وأمره النبي ﷺ أن لا يترك أحداً يلحق بهم، فانصرف يقول للناس: كُفَيْتُمْ ما ههنا. وقيل: بل قال لهما: أراكما دعوتما عليّ فادُعُوا لي فنجا ووقع في نفسه ظهورُ النبي ﷺ ^(١٧٢).

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق في قصته رضي الله عنه إذ خرج إلى [بني النضير] ^(١٧٣) في أصحابه فجلس إلى جدار بعض أطامهم فانبعث عمرو بن جحاش أحدهم لي طرح عليه رَحْيٌ، فقام النبي ﷺ فانصرف إلى المدينة وأعلمهم بقصتهم ^(١٧٤).

وقد قيل: إن قوله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَبْسُطُوٓا۟ اِلَيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاَتَقُوا۟ اللّٰهَ وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾ [المائدة: ١١] في هذه القصة نزلت، وحكى السمرقندي أنه خرج إلى بني النضير يستعين في عقل الكلابيين اللذين قتلها عمرو بن أمية، فقال له حبيبي بن أخطب: اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا، فجلس النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وتأمّر حبيبي معهم على قتله، فأعلم جبريل عليه السلام النبي ﷺ بذلك، فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة ^(١٧٥).

(١٧٢) صحيح البخاري (٦٠/٥)، وصحيح مسلم (١٥٩٢/٣) بمعناه.

(١٧٣) في الشفا: «بني قريظة»، والتصويب من سيرة ابن هشام.

(١٧٤) سيرة ابن هشام (١٩٠/٢، ١٩٢) دون إسناد.

(١٧٥) بحر العلوم (٤٢٤/٣).

وذكر أهل التفسير معنى الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا جهل وعد قريشاً: لئن رأى محمداً يصلي ليظاناً رقبته، فلما صلى النبي صلى الله عليه وسلم أعلموه فأقبل، فلما قرب منه ولى هارباً ناكصاً على عقبه متقياً بيديه، فسئل فقال: لما دنوتُ منه أشرفتُ على خندقٍ مملوءٍ ناراً كدتُ أهوي فيه وأبصرتُ هولاً عظيماً وخفتُ أجنحةً قد ملأتِ الأرضَ فقال صلى الله عليه وسلم: تلك الملائكة لو دنا لاختطفته عضواً عضواً. ثم أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ۚ﴾ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْعَى ۗ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۗ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۗ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطْعَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿﴾ (١٧٦)

[العلق: ٦-١٩]

ومن عصمته تعالى له صلى الله عليه وسلم أن كثيراً من اليهود والكهنة أنذروا به وعينوه لقريش وأخبروهم بسطوته بهم وحضوهم على قتله، فعصمه الله تعالى حتى بلغ فيه أمره.

ومن ذلك نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر كما قال صلى الله عليه وسلم (١٧٧).

(١٧٦) صحيح مسلم (٤/٢١٥٤).

(١٧٧) صحيح البخاري (١/٧٤)، وصحيح مسلم (١/٣٧٠).

الباب الخامس في فرض الإيمان به ﷺ ووجوب طاعته واتباع سنته

إذا تقرّر بما قدّمناه ثبوت نبوّته وصحّة رسالته وجب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به

قال الله تعالى: ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨]، وقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٨) ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الفتح: ٨-٩]، وقال ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فالإيمان بالنبي محمد ﷺ واجب متعيّن لا يتم إيمان إلا به ولا يصحّ إسلام إلا معه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(١).

والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوّته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنّه رسول الله ﷺ،

(١) صحيح البخاري (٤/٤٨)، وصحيح مسلم (١/٥٢).

فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والتطيق بالشهادة بذلك باللسان تمّ الإيمان به والتصديق له.

كما ورد في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله»^(٢).

وقد زاده وضوحاً في حديث جبريل إذ قال: أخبرني عن الإسلام، فقال النبي ﷺ: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله»، وذكر أركان الإسلام ثمّ سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله..» الحديث^(٣)، فقد قرّر أنّ الإيمان به محتاج إلى العقد بالجنان، والإسلام به مضطّر إلى النطق باللسان، وهذه هي الحالة المحمودة.

وأما الحال المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق القلب، وهذا هو النفاق، قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، أي: كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم وهم لا يعتقدونه، فلمّا لم تصدّق ذلك ضمائرهم لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فخرجوا عن اسم الإيمان ولم يكن لهم في الآخرة حكمه، إذ لم يكن معهم إيمان، ولحقوا بالكافرين في الدرك الأسفل من النار، وبقي عليهم حكم الإسلام بإظهار شهادة اللسان في أحكام الدنيا المتعلقة بالأئمة وحكام المسلمين الذين أحكامهم على الظواهر بما أظهره

(٢) صحيح البخاري (١٤/١)، وصحيح مسلم (٥٣/١).

(٣) صحيح مسلم (٣٦/١).

مِنْ علامةِ الإسلامِ؛ إذ لم يجعل للبشر سبيلٌ إلى السَّرَائِرِ، ولا أمروا بالبحث عنها، بل نهى النَّبِيَّ ﷺ عن التَّحَكُّمِ عَلَيْهَا^(٤) وذمَّ ذلك، وقال: «هَلَّا شَقَّقْتَ عن قلبه؟»^(٥).

والفرق بين القول والعقد ما جعل في حديث جبريل: الشهادة من الإسلام والتَّصديق من الإيمان.

فصل في وجوب طاعته ﷺ

وأما وجوب طاعته ﷺ: فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأنَّ ذلك ممَّا أتى به. قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وقال ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقال ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وقال ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال ﴿وَمَا ءَأَنتُمْ بِالرَّسُولِ فَخُذُوهُ وَمَانَهُمْ عَنْهُ فَأَنهٖمُ﴾ [الحشر: ٧]، وقال ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وقال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزييل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيهِ.

(٤) أي: الحكم عليها دون دليل.

(٥) صحيح مسلم (٩٦/١).

قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم لما جاء به، وقالوا: ما أرسل الله من رسولٍ إلا فرض طاعته على من أرسله إليه، وقالوا: من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه.

وقال الله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، أي ينقادوا لحكمك، يقال: سلم واستسلم وأسلم إذا انقاد.

وقال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، قال محمد بن علي الترمذي: الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قولٍ أو فعلٍ.

فأمرهم الله تعالى بذلك ووعدهم الاهتداء باتباعه؛ لأنه تعالى أرسله بالهدى ودين الحق ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم، ووعدهم محبته تعالى في الآية الأخرى ومغفرته إذا اتبعوه وأثروه على أهوائهم وما تجنح إليه نفوسهم، وأن صحة إيمانهم بانقيادهم له ورضاهم بحكمه وترك الاعتراض عليه.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»^(٦).

فطاعة الرسول من طاعة الله، إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له.

وقد حكى الله عن الكفار في دركات جهنم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦]، فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني.

وقال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٧).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كل أمي يدخلون الجنة إلا من أباي، قالوا: يا رسول الله ومن أباي؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أباي»^(٨).

وفي الحديث الآخر الصحيح عنه ﷺ قال: «مثلِّي ومثلي ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: يا قوم، إنني رأيت الجيش بعيني وإنني أنا النذير العريان فالتجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم

(٦) صحيح البخاري (٦١/٩)، وصحيح مسلم (١٤٦٦/٣).

(٧) صحيح البخاري (٩٤/٩)، وصحيح مسلم (١٨٣٠/٤).

(٨) صحيح البخاري (٩٢/٩).

فَجَبَّوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ
وَاجْتَا حَهُمُ، فَذَلِكَ مَثَلٌ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلٌ مَنْ عَصَانِي
وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»^(٩).

وفي الحديث الآخر في مثله ﷺ: «كَمَثَلِ مَنْ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدِبَةً
وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ المَأْدِبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْ
الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ المَأْدِبَةِ، فَالِدَّارُ الجَنَّةُ وَالدَّاعِيَ مُحَمَّدٌ
ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا فَقَدْ عَصَى اللَّهَ،
وَمُحَمَّدٌ فَرَّقَ بَيْنَ النَّاسِ»^(١٠).

وروي عن الحسن أن أقوامًا قالوا: يا رسول الله، إنا نحب الله فأنزل الله
تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
[آل عمران: ٣١]^(١١).

وقال القائل:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه؟ هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إنَّ المحبَّ لمن يُحبُّ مطيعٌ^(١٢)

(٩) صحيح البخاري (٩٣/٩)، وصحيح مسلم (٤/١٧٨٨).

(١٠) صحيح البخاري (٩٣/٩).

(١١) انظر: أسباب النزول للواحدى (ص ١٠٣).

(١٢) البيتان من مقطوع الكامل، نسبهما أكثر أهل الأدب كالشعالبي في الإعجاز ص ١٦٣، والتمثيل والمحاضرة ص ١٢،
وأبي العباس المبرد في الكامل ٤/٢، وأبي إسحاق القيرواني في زهر الآداب ص ١٣٩، وابن قطلوبغا في روض
الأخبار ص ٢٦ لمحمود الوراق من شعراء القرن الثالث.

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه في حديثه في موعظة النبي ﷺ أنه قال: «فعلیکم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَصُوا عليها بالنواجد وإيّاكم ومحدثات الأمور فإنّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ» (١٣).

زاد في حديث جابر رضي الله عنه بمعناه: «وكلَّ ضلالةٍ في النار» (١٤).

وفي حديث أبي رافع رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُم مُّتَكِنًا على أريكتيه يأتيه الأمر من أمري بما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه» (١٥).

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخص فيه فتنزهه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله ثم قال: «ما بال قوم ينتزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إنني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشيةً» (١٦).

قال الله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿ [الحشر: ٧].

(١٣) أخرجه أبو داود (٢٠٠/٤)، وابن ماجه (١٥/١)، وأحمد (٣٧٣/٢٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٩/١)، والبخاري في مسنده (١٣٧/١٠)، وابن حبان في صحيحه (١٧٩/١)، والحاكم في المستدرک (١٧٤/١) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر السلسلة الصحيحة [٣٠٠٧].

(١٤) أخرجه النسائي (١٨٨/٣)، وابن خزيمة في صحيحه (١٤٣/٣)، وأبو نعيم في مستدرجه على صحيح مسلم (٤٥٥/٢)، وأصل الحديث في صحيح مسلم (٥٩٢/٢) دون قوله: «وكل ضلالة في النار».

(١٥) أخرجه أبو داود (٢٠٠/٤)، والترمذي (٣٧/٥) وحسنه، وابن ماجه (٦/١)، والشافعي في مسنده (ص ٢٣٣)، وأحمد (٣٠٢/٣٩)، والحاكم في المستدرک (١٩٠/١)، وصححه على شرط الشيخين وقال: «والذي عندي أنهما تركاه لاختلاف المصربين في هذا الإسناد»، ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في صحيح الجامع (١٢٠٤/٢).

(١٦) صحيح البخاري (٢٦/٨).

وقال عليه السلام: «من اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني» (١٧).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن أحسن الحديث كتاب الله
وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها» (١٨).

فصل فيما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهديه وسيرته

وقال عليه السلام: «هلك المتنطعون» (١٩).

قال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الأمر بعده سنناً الأخذ
بها تصديق بكتاب الله واستعمال طاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد
تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتد
ومن انتصر بها فهو منصور ومن خالفها وأتبع غير سبيل المؤمنين وآله الله ما
تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً (٢٠).

وقال الحسن بن أبي الحسن: عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في
بدعة (٢١).

-
- (١٧) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٤٥٧/٣٨)، وانظر: شرح مشكل الآثار (٢٦٧/٣)، وسنده صحيح.
(١٨) الحديث في صحيح البخاري (٩٢/٩) عن عبد الله بن مسعود، وفي صحيح مسلم (٥٩٢/٢) عن جابر بن عبد
الله، ولم نقف على رواية أبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.
(١٩) صحيح مسلم (٥٥/٢٠).
(٢٠) أخرجه الخلال في السنة (١٢٧/٤)، وابن بطة في الإبانة (٢٥٢/١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد
(١٠٥/١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٤٣٥/١) وغيرهم.
(٢١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٩١/١١)، ومحمد بن نصر المروزي في السنة (ص ٣٠)، وابن بطة في الإبانة
(٣١٥/١)، وغيرهم كلهم عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً.

وقال ابن شهاب: بلغنا عن رجال من أهل العلم قالوا: الاعتصام بالسنة نجاه^(٢٢).

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللحن أي اللغة، وقال: إن ناسًا يجادلونكم - يعني بالقرآن - فخذوهم بالسنة، فإن أصحاب السنة أعلم بكتاب الله^(٢٣).

وفي خبره حين صلى بذي الحليفة ركعتين فقال: أصنع كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع^(٢٤).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة^(٢٥).

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه ففاضت عيناه من خشية ربه فيعذبه الله أبدًا، وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلداه من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها فهي كذلك إذ أصابتها ريح شديدة فتحات عنها ورقها إلا حط عنه خطاياها كما تحاتت عن الشجرة ورقها، فإن اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في

(٢٢) أخرجه الدارمي في السنن (٢٣٠/١)، والدينوري في المجالسة (٢٣٥/٢)، وابن بطة في الإبانة (٣١٩/١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢٠٦/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٩/٣)، وغيرهم.

(٢٣) الشريعة للأجري (٤٠٨/١)، والإبانة لابن بطة (٣٥١/١).

(٢٤) أخرجه ابن أبي شعبة في المصنف (٢٠٢/٢)، والطبري في تهذيب الآثار (٢٠٩/١).

(٢٥) سنن الدارمي (٢٩٦/١)، شرح أصول الاعتقاد لللالكائي (٦١/١)، الإبانة لابن بطة (٣٢٠/١)، جامع بيان العلم لابن عبد البر (١١٧٩/٢).

خلاف سبيلٍ وسنةٍ وموافقة بدعةٍ، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً أو اقتصاداً أن يكون على منهاج الأنبياء وسنتهم^(٢٦).

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إلى عمر بحال بلده وكثرة لصوصه: هل يأخذهم بالظنّة أو يحملهم على البيّنة وما جرت عليه السنّة؟ فكتب إليه عمر: خذهم بالبيّنة وما جرت عليه السنّة، فإن لم يصلحهم الحقّ فلا أصلحهم الله.

وعن عطاءٍ في قوله تعالى ﴿فَإِنْ نُنزِعُكَ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ^(٢٨).

وقال الشافعي: ليس في سنة رسول الله ﷺ إلا أتباعها^(٢٩).

وقال عمر رضي الله عنه - ونظر إلى الحجر الأسود -: إنك حجرٌ لا تنفع ولا تضرّ ولولا أنّي رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك، ثم قبله^(٣٠).

وقال أبو عثمان الحيريّ: من أمر السنّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة^(٣١).

(٢٦) الزهد لابن المبارك (٢١/٢)، مصنف ابن أبي شيبة (٢٢٤/٧)، الزهد لأبي داود (ص ١٨٣)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٥٩/١).

(٢٨) الشريعة للأجري (٤٢٢/١)، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٧٦٥/١).

(٢٩) الشريعة للأجري (١١٢٧/٣)، الإبانة لابن بطة (٢٤٠/٧)، الاستذكار (٥٢٩/٢).

(٣٠) صحيح البخاري (١٤٩/٢)، وصحيح مسلم (٩٢٥/٢).

(٣١) من فوائد أبي عثمان الحيري (ص ٩٣)، حلية الأولياء (٢٤٤/١٠)، الجامع لأخلاق الراوي للخطيب (١٤٥/١).

وقال سهل التستري: أصول مذهبنا ثلاثة؛ الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال.

فصل

ومخالفة أمره ﷺ وتبديل سنته ضلالٌ وبدعةٌ متوعدٌ من الله عليه بالخذلان والعذاب، قال الله تعالى ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [النور: ٦٣]، وقال: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولاه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ [النساء: ١١٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة، وذكر الحديث في صفة أمته، وفيه: «فليؤدبن رجالاً عن حوضي كما يؤدب البعير الضالُّ، فأناديهم: ألا هلم، ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: فسحقاً فسحقاً» (٣٢).

وروى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «فمن رغب عن سنتي فليس مني» (٣٣) وقال «من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو رد» (٣٤).

(٣٢) صحيح مسلم (٢١٨/١).

(٣٣) صحيح البخاري (٢/٧)، وصحيح مسلم (١٠٢٠/٢).

(٣٤) صحيح البخاري (١٨٤/٣)، وصحيح مسلم (١٣٤٣/٣)، بلفظ: «من أحدث..».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به، إنني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ (٣٥).

(٣٥) صحيح البخاري (٧٩/٤)، وصحيح مسلم (١٣٨١/٣).

الباب السادس في لزوم محبته ﷺ

قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِمَّنْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، فكفى بهذا حُضًا وتنبيهًا ودلالةً وحجةً على إلزام محبته ﷺ ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها، إذ قرع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴾ [التوبة: ٢٤]، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم من ضلّ ولم يهده الله .

عن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »^(١).

وعن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَقْذَفَ فِي النَّارِ»^(٢).

(١) صحيح البخاري (١٢/١)، وصحيح مسلم (٦٧/١).

(٢) صحيح البخاري (١٢/١)، وصحيح مسلم (٦٦/١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر ^(٣).

فصل في ثواب محبته صلى الله عليه وسلم

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنني أحب الله ورسوله قال: «أنت مع من أحببت» ^(٤).

وروي أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، وإنني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك، وإنني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فدعا به فقرأها عليه ^(٥).

(٣) صحيح البخاري (١٢٩/٨).

(٤) صحيح البخاري (٤٠/٨)، وصحيح مسلم (٢٠٣٣/٤).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٢/١)، والصغير (ص ٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٩/٤)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٩٣٣].

فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم له

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مِنَ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يُوَدُّ أَحَدَهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»^(٦).

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه: ما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ مِن رسول الله ﷺ.^(٧)

وعن ابن إسحاق أن امرأةً من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحدٍ مع رسول الله ﷺ، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا خيراً، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرنيه حتى أنظر إليه، فلمَّا رأته قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَلٌ^(٨).

ووقف ابن عمر رضي الله عنهما على ابن الزبير رضي الله عنهما بعد قتله، فاستغفر له وقال: كنتَ والله ما علمتُ صَوَامًا قَوَامًا تحبُّ الله ورسوله^(٩).

فصل في علامة محبته ﷺ

اعلم أن من أحبَّ شيئاً أثره وأثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه وكان مدعيًا، فالصَّادق في حبِّ النَّبِيِّ ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه.

(٦) صحيح مسلم (٢١٧٨/٤).

(٧) صحيح مسلم (١١٢/١).

(٨) أخرجه ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام ٩٩/٢)، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٣٠١/٣) من حديث إسماعيل بن محمد بن (تصحَّف في مطبوع سيرة ابن هشام إلى «عن») سعد بن أبي وقاص مرسلًا.

(٩) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٢٠/٢ الجزء المتمم)، وهو في صحيح مسلم (١٩٧١/٤) دون قوله «تحبُّ الله ورسوله».

وأولها: الاقتداء به واتباع أقواله وأفعاله وامتهال أوامره واجتناب نواهيه والتأدب بأدابه في عُسره ويُسرهِ ومَنْشَطِه ومَكْرَهِه، وشاهدُ هذا قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وإيثارُ ما شرعه وحضُّ عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته، قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

فمن اتَّصف بهذه الصِّفة فهو كامل المحبَّة لله ورسوله، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبَّة ولا يخرج عن اسمها.

ودليله قوله ﷺ للذي حدَّه في الخمر فلعنه بعضهم وقال: ما أكثر ما يُؤتَى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله»^(١٠).

ومن علامات محبَّة النبي ﷺ كثرةُ ذكره له، فمن أحبَّ شيئاً أكثر ذكره. ومنها كثرة شوقه إلى لقائه ﷺ، فكلُّ حبيبٍ يحبُّ لقاء حبيبه، وفي حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون:

غدا نلقى الأحبَّه محمّداً وصحبته

ومنها محبَّته لمن أحبَّ النبي ﷺ ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم وبُغض من أبغضهم وسبَّهم.

(١٠) صحيح البخاري (١٥٨/٨).

وقد قال ﷺ في الحسن والحسين رضي الله عنهما: «اللهم إني أحبهما فأحبهما»^(١١).

وفي رواية في الحسن رضي الله عنه: «اللهم إني أحبُّه فأحبَّ مَنْ يُحِبُّه»^(١٢).

وقال: «من أحبهما فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضهما فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله»^(١٣).

وقال في فاطمة رضي الله عنها: «إنها بضعة مني، يُغضبني ما أغضبها»^(١٤).

وقال لعائشة في أسامة بن زيد رضي الله عنه: «أحبيته، فإنني أحبُّه»^(١٥).

وقال: «آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغضهم»^(١٦).

فبالحقيقة مَنْ أحبَّ شيئاً أحبَّ كل شيءٍ يُحِبُّه، وهذه سيرة السلف حتَّى في المباحات وشهوات النفس.

وقد قال أنس رضي الله عنه حين رأى النبي ﷺ يتتبع الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالِي القِصْعَةِ: فما زلتُ أحبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ^(١٧).

(١١) صحيح البخاري (٢٦/٥).

(١٢) صحيح البخاري (١٥٩/٧)، وصحيح مسلم (١٨٨٢/٤).

(١٣) أخرجه ابن راهويه في مسنده (٢٤٨/١)، وأحمد (٢٦٠/١٣)، وفي فضائل الصحابة (٧٧٧/٢)، والبخاري (٢٤٠/١٦) والطبراني في الكبير (٤٨/٣) والحاكم في المستدرک (١٨٢/٣) وصححه ووافقه الذهبي، إلى قوله:

«فقد أبغضني»، وقواه محققو المسند بإشراف الأرئوط.

(١٤) صحيح البخاري (٢١/٥)، وصحيح مسلم (١٩٠٣/٤).

(١٥) أخرجه الترمذي (٦٧٧/٥)، وابن أبي الدنيا في النفقة على العيال (ص٣٩٧)، وابن حبان في صحيحه (٥٣٤/١٥)، وحسنه الألباني في تخريجه للمشكاة (١٧٤٠/٣).

(١٦) صحيح البخاري (١٢/١)، وصحيح مسلم (٨٥/١).

(١٧) صحيح البخاري (٦١/٣)، وصحيح مسلم (١٦١٥/٣).

وهذا الحسن بن عليّ وعبد الله بن عباس وابن جعفر رضي الله عنهم أتوا أمّ سلمة رضي الله عنها وسألوها أن تصنع لهم طعاماً مما كان يُعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يلبس النعال السَّبْتِيَّةَ ويصبغ بالصفرة إذ رأى النبي صلى الله عليه وسلم يفعل نحو ذلك.

ومنها بَعْضُ مَنْ أَبْغَضَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمُعَادَاةَ مَنْ عَادَاهُ وَمِجَانِبَةَ مَنْ خَالَفَ سُنَّتَهُ وَابْتَدَعَ فِي دِينِهِ وَاسْتَثْقَالَهُ كُلَّ أَمْرٍ يُخَالِفُ شَرِيعَتَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، وهؤلاء أصحابه صلى الله عليه وسلم قد قتلوا أحبائهم وقاتلوا أباءهم وأبناءهم في مرضاته.

وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبي رضي الله عنه: لو شئت لأتيتك برأسه يعني أباه ^(١٨).

ومنها أن يحبَّ القرآنَ الذي أتى صلى الله عليه وسلم به وهدى به واهتدى وتخلّق به، حتّى قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن» ^(١٩). وحبّه للقرآن تلاوته والعملُ به وتفهمه.

ويحبّ سنّته ويقف عند حدودها.

(١٨) أخرجه البزار (٣٢٢/١٤)، والطبراني في الكبير (١٢٥/٢٣)، وأورده الألباني في الصحيحة [٣٢٢٤].

(١٩) صحيح مسلم (٥١٢/١).

قال سهل بن عبد الله: علامة حبّ الله حبّ القرآن، وعلامة حبّ القرآن حبّ النبي ﷺ، وعلامة حبّ النبي ﷺ حبّ السنّة، وعلامة حبّ السنّة حبّ الآخرة وعلامة حبّ الآخرة بغضّ الدنيا، وعلامة بغضّ الدنيا أن لا يدّخر منها إلا زادًا وبلغَةً إلى الآخرة (٢٠).

ومن علاماتِ حبه للنبي ﷺ شفقتُه على أمته ونصحه لهم وسعيه في مصالحهم ورفع المضار عنهم، كما كان ﷺ بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا.

فصل في معنى المحبة للنبي ﷺ وحقيقتها

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي ﷺ وكثرت عباراتهم في ذلك، وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف أحوال.

فقال سفيان: المحبة اتباع الرسول ﷺ، كأنه التفت إلى قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] الآية، وقال بعضهم: محبة الرسول ﷺ العزم على نصرته والذبّ عن سنته، والانقياد لها وهيبة مخالفته، وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب لمراد الربّ، يحبّ ما أحبّ ويكره ما كرهه (٢١).

(٢٠) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١٠٤/١)

(٢١) انظر في ذلك كتابي أبي إسحاق الختلى وابن تيمية «المحبة لله»، و«قاعدة في المحبة».

فصل في وجوب مناصحته ﷺ

قال الله تعالى ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُوثُ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩١]. قال أهل التفسير: ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾: إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية.

عن تميم الداربي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم» (٢٢).

قال أئمتنا: النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة. قال الإمام أبو سليمان البستي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها، ومعناها في اللغة الإخلاص من قولهم: «نصحت العسل» إذا خلصته من شمعه (٢٣). فنصيحة الله تعالى: صحة الاعتقاد له بالوحدانية ووصفه بما هو أهله وتنزيهه عما لا يجوز عليه والرغبة في محابه والبعد من مساخطه والإخلاص في عبادته.

(٢٢) صحيح مسلم (١/٧٤) بلفظ: «الدين النصحية» دون تكرار.

(٢٣) معالم السنن لأبي سليمان الخطابي البستي (٤/١٢٥-١٢٦).

والنصيحة لكتابه: الإيمان به والعمل بما فيه وتحسين تلاوته والتخشع عنده والتعظيم له^(٢٤) وتفهمه والتفقه فيه والذب عنه من تأويل الغالين وطعن الملحدين .

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه قاله أبو سليمان^(٢٥) .

وقال أبو بكر: وموازرتة ونصرتة وحمايته حيًا وميتًا، وإحياء سنته بالطلب والذب عنها ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة وأدابه الجمالية^(٢٦) .

وقال أبو إبراهيم إسحاق التّجيبّي: نصيحة رسول الله ﷺ التصديق بما جاء به والاعتصام بسنته ونشرها والحض عليها والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى سنة رسوله .

وقال أبو بكر الأجرّي: نصيحة المسلمين له بعد وفاته التزام التّوقير والإجلال وشدة المحبة له والمثابرة على تعلّم سنته والتفقه في شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة مَنْ رغب عن سنته وانحرف عنها وبغضه والتّحذير منه، والشفقة على أمته والبحث عن تعرّف أخلاقه وسيره وأدابه، والصّبر على ذلك؛ فعلى ما ذكره تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة وعلامة من علاماتها كما قدّمناه .

(٢٤) في مطبوع الشفا (٧٣/٢): «التعظم له»، والتصويب من مخطوطة جامعة الملك سعود، الرقم العام ٣٧٥٨، رقم الصنف: ٢١٩/ش.ق، صفحة (لوحة) ١٨٣/ب، ومن نسخة جامعة ميتشيغان، رقم المخطوط: ٢٠٩، ص ٣٥٣، ومن نسخة جامعة برنستون، رقم ٣٨٢، لوحة ١٢٠/ب .

(٢٥) معالم السنن لأبي سليمان الخطابي البستي (١٢٦/٤) .

(٢٦) لم نقف عليه، وينظر في شرح الحديث إلى تعظيم قدر الصلاة للمروري (٦٩١/٢-٦٩٤)، ففيه زيادات مفيدة .

الباب السابع في تعظيم أمره ﷺ ووجوب توقيره وبره

قال الله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٨-٩]، وقال ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١]، وقال: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢-٤]، وقال تعالى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣].

فأوجب تعالى تعزيره وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تعزروه تُجلُّوه، وقال المبرد: تعزروه تُبالغوا في تعظيمه ^(١).

ونهى عن التَّقدُّم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبِّقه بالكلام على قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

(١) تفسير الطبري (٨/٢٠٦-٢٠٨).

قال سهل بن عبد الله: لا تقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، ونهوا عن التقدّم والتعجل بقضاء أمرٍ قبل قضائه وأن يفتتاوا بشيءٍ في ذلك من قتالٍ أو غيره من أمرٍ دينهم إلا بأمره، ولا يسبقوه به.

ثمّ وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك فقال ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]. قال الماوردي: اتقوه يعني في التقدّم (٢)، وقال السلميّ: اتقوا الله في إهمال حقّه وتضييع حرّمته؛ إنّه سميعٌ لقولكم عليهم بفعلكم (٣).

ثمّ نهاهم عن رفع الصّوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته، وقيل: كما يُنادي بعضهم بعضاً باسمه. قال أبو محمّد مكّي: أي لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا له بالخطاب، ولا تنادوه باسمه نداءً بعضكم لبعض، ولكن عظّموه ووقّروه، ونادوه بأشرف ما يُحبُّ أن ينادى به: يا رسول الله، يا نبيّ الله (٤).

وهذا كقوله في الآية الأخرى ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] على أحد التّأويلين. وقال غيره: لا تخاطبوه إلاّ مستفهمين، ثمّ خوفهم الله تعالى بحبّط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك وحذرهم منه.

(٢) تفسير الماوردي المسمى بالنكت والعيون (٣٢٦/٥).

(٣) تفسير السلميّ المسمى بحقائق التفسير (٢٦٠/٢).

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٩٨٧/١١).

تعظيم أمر النبي ﷺ

قيل: نزلت الآية في وفد بني تميم وقيل في غيرهم، أتوا النبي ﷺ فنادوه: يا محمد، يا محمد، اخرج إلينا! فذمهم الله تعالى بالجهل ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون^(٥).

وقيل: نزلت الآية الأولى في مُحاورةٍ كانت بين أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما بين يدي النبي ﷺ واختلافٍ جرى بينهما حتى ارتفعت أصواتهما^(٦).

وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماسٍ رضي الله عنه خطيب النبي ﷺ في منافرة بني تميم، وكان في أذنيه صممٌ فكان يرفع صوته، فلما نزلت هذه الآية أقام في منزله وخشي أن يكون حَبَطَ عَمَلُهُ ثم أتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله لقد خشيتُ أن أكون هلكْتُ، نهانا الله أن نجهر بالقول، وأنا امرؤٌ جهير الصوت، فقال النبي ﷺ: «يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة؟»، فقتل يوم اليمامة^(٧).

وروي أنّ أبا بكرٍ رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار، وأنّ عمر رضي الله عنه كان إذا حدثه حدثته كأخي السرار ما كان يُسمع رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، فأُنزل الله تعالى فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَىٰ

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٩٣/١٢) بإسناد جيد، والطبراني في الكبير (١١٣/١٣)، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٠٢/١٠)، وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٨٥).

(٦) صحيح البخاري (٩٧/٩).

(٧) أخرجه ابن المبارك في الجهاد (ص ١٠٢)، وعبد الرزاق في المصنف (٣٣٩/١١)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٧٠/٦)، وابن حبان في صحيحه (١٢٦/١٦)، وغيرهم، وأصله في صحيح البخاري (١٣٧/٦)، وفيه بدل قول النبي: «أما ترضى.. الخ» قوله: «إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة».

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿ [الحجرات: ٣] (٨) .

وقال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤] .
قال بعض المفسرين: كانت اليهود تعرّض بها للنبي ﷺ بالرّعونة، فنهى المسلمون عن قولها قطعاً للذريعة ومنعاً للتشبه بهم في قولها لمشاركة اللفظة (٩) .

فصل في عادة الصحابة ﷺ في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسولِ الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنتُ أطيقُ أن أَمَلَأُ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أن أَصِفَه ما أَطَقْتُ؛ لأنِّي لم أكن أَمَلَأُ عيني (١٠) .

وروى أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: أتيتُ النَّبِيَّ ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطير (١١) .

وقال عروة بن مسعود رضي الله عنه حين وجهته قريشُ عامَ القضيةِ إلى رسولِ الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصقُ بَصَاقًا ولا يتنخَّم نُخامةً إلا تلقَّوها بأكفهم فدلخوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقطُ منه شعرةٌ إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدِّثون إليه

(٨) صحيح البخاري (٩٧/٩)، دون قوله: «فأنزل الله...» .

(٩) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٣٨٤/١)، تفسير ابن عطية المسمى بالمحجر الوجيز (١٨٩/١) .

(١٠) صحيح مسلم (١١٢/١) .

(١١) أخرجه أبو داود في سننه (٣/٤)، والطيالسي (٥٥٩/٢)، وابن أبي شيبة (٢٨٦/٢)، وأحمد (٣٩٤/٣٠)، كلهم في مسانيدهم، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٤٢/٢)، وغيرهم وإسناده صحيح .

النظر تعظيماً له. فلما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش، إنني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإنني والله ما رأيت ملكاً في قوم قطّ مثل محمد في أصحابه (١٢).

وفي رواية: إن رأيت ملكاً قطّ يعظمه أصحابه ما يعظم محمداً أصحابه، وقد رأيت قومًا لا يسلمونه أبداً (١٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل (١٤).

ومن هذا لما أذنت قريش لعثمان رضي الله عنه في الطواف بالبيت حين وجهه النبي ﷺ إليهم في القضية أبي وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ (١٥).

وفي حديث قيلة رضي الله عنها قالت: فلما رأيت رسول الله ﷺ جالساً القُرُفُصَاءَ أُرْعِدْتُ مِنَ الْفَرْقِ (١٦). وذلك هَيْبَةً لَهُ وَتَعْظِيمًا.

وفي حديث المغيرة رضي الله عنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرعون بابه بالأظافر (١٧).

(١٢) صحيح البخاري (١٩٣/٣) في حديث طويل.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) صحيح مسلم (١٨١٢/٤).

(١٥) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (٢١٦/٣١-٢٢١) وغيره، وإسناده حسن.

(١٦) أخرجه أبو داود (٢٦٢/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٤٠٢)، والترمذي في الشمائل (ص ٨٩)، والطبراني في الكبير (٨/٢٥)، وإسناده حسن.

(١٧) أخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ١٩) مثلاً لما له حكم الرفع، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٧١)، والبخاري في مسنده (١١٠/١٤)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٠٩٢].

تعظيم أمر النبي ﷺ

أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدّعاة والتّبسم، فإذا ذكر عنده النّبي ﷺ اصفرّ، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إمّا مصلياً وإمّا صامتاً وإمّا يقرأ القرآن، ولا يتكلّم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعبّاد الذين يخشون الله عزّ وجلّ، ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النّبي ﷺ، فيُنظرُ إلى لونه كأنّه نَزف منه الدّم وقد جفّ لسانه في فمه هيبةً منه لرسول الله ﷺ، ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزّبير، فإذا ذكّر عنده النّبي ﷺ بكى حتّى لا يبقى في عينيه دموعٌ، ولقد رأيت الزّهريّ وكان من أهلنا وأقربهم، فإذا ذكر عنده النّبي ﷺ فكأنّه ما عرفك ولا عرفته، لقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النّبي ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتّى يقوم النّاس عنه ويتركوه.

وروي عن قتادة أنّه كان إذا سمع الحديث أخذه العويل والزّويل^(٢٠).

ولما كثر على مالك النّاس قيل له: لو جعلت مستملياً يسمعهم، فقال: قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وحرّمته حيّاً وميتاً سواءً^(٢١).

وكان ابن سيرين ربّما يضحك، فإذا ذكّر عنده حديث النّبي ﷺ خشع^(٢٢).

(٢٠) المعرفة والتاريخ (٢٨٢/٢)، المحدث الفاصل (ص ٤٠٢)، حلية الأولياء (٣٣٤/٢). والزويل القلق والانزعاج

بحيث لا يستقر على المكان. النهاية في غريب الحديث (٣٢٠/٢)

(٢١) ترتيب المدارك (٢٦/٢).

(٢٢) أخرجه مسدد (كما في المطالب العالية ١٢/٦٥٥)، ومن طريقه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٤١٢/١).

وكان عبد الرحمن بن مهديّ إذا قرأ حديث النَّبِيِّ ﷺ أمرهم بالسكوت وقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ويتأوّل أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله.

فصل في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته

عن عمرو بن ميمون قال: اختلفت إلى ابن مسعود رضي الله عنه سنة، فما سمعته يقول «قال رسول الله ﷺ» إلا أنه حدّث يوماً، فجرى على لسانه «قال رسول الله ﷺ»، ثم علاه كربٌ حتّى رأيت العرق يتحدّر عن جبهته، ثم قال: هكذا إن شاء الله أو فوق ذا أو ما دون ذا أو ما هو قريبٌ من ذا ^(٢٣).

وفي رواية: فتربّد وجهه ^(٢٤)، وفي رواية: وقد تغرغرت عيناه وانتفخت أوداجه ^(٢٥).

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قريّم الأنصاريّ قاضي المدينة: مرّ مالك بن أنس على أبي حازم وهو يحدث، فجازاه وقال: إنّي لم أجد موضعاً أجلس فيه فكرهت أن أخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم ^(٢٦).

(٢٣) مسند ابن المبارك (ص ١٤٠)، والطيالسي (٢٥٦/١)، والهيثم بن كليب الشاشي (١٢٩/٢)، المعجم الكبير (١٢١/٩).

(٢٤) سنن الدارمي (٣٢٥/١).

(٢٥) علل الدارقطني (٢٦٤/١٣)، وقد طوّّل رحمه الله في إخراج طرق هذا الأثر.

(٢٦) سنن الترمذي (٢٤٦/٦)، الجامع لأخلاق الراوي (٤٠٨/١).

وقال مالكٌ: جاء رجلٌ إلى ابن المسيّب فسأله عن حديثٍ وهو مضطجع، فجلس وحديثه، فقال له الرجل: وَدِدْتُ أَنْك لَمْ تَتَعَنَّ فَقَالَ: إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَحَدَّثَكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مُضْطَجِعٌ (٢٧).

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك بن أنس إذا حدّث عن رسول الله ﷺ تَوْضُأً وَتَهَيُّأً وَلَبَسَ ثِيَابَهُ ثُمَّ يَحْدُثُ. قال مصعب: فسئل عن ذلك فقال: إِنَّهُ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢٨).

قال مطرف: كان إذا أتى الناس مالكا خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل خرج إليهم، وإن قالوا الحديث دخل مغتسله واغتسل وتطيب ولبس ثيابا جديداً ولبس ساجه (٢٩) وتعمّم ووضع على رأسه رداءه وتلقى له منصّة فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ.

قال ابن أبي أويس: فليل مالك في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكّناً. قال: وكان يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم أو مستعجل، وقال: أحب أن أفهم حديث رسول الله ﷺ.

(٢٧) أمالي ابن سمعون (ص ١٦٠)، المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص ٣٩٢).

(٢٨) تعظيم قدر الصلاة (٢/٦٦٩)، حلية الأولياء (٦/٣١٨).

(٢٩) الساج الطيلسان الضخم الغليظ. العين (٦/١٦٠).

قال ضرار بن مرّة: كانوا يكرهون أن يحدثوا على غير وضوء^(٣٠). ونحوه عن قتادة.

وكان الأعمش إذا حدّث وهو على غير وضوء تيمّم^(٣١).

قال ابن مهديّ: مشيتُ يوماً مع مالك إلى العقيق، فسألته عن حديثٍ فانتهرنى وقال لي: كنت في عيني أجلاً من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي^(٣٢).

وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديثٍ وهو قائمٌ فأمر بحبسه، فقليل له: إنه قاضٍ، قال: القاضي أحقُّ من أدب^(٣٣).

فصل

ومن توقيف رسول الله ﷺ وبرّه برُّ آله وذريّته وأمّهات المؤمنين أزواجه كما حضّ عليه ﷺ وسلكه السلف الصالح ﷺ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال تعالى ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ أَطْهَرَهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

(٣٠) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٢١٧)، وفيه (٢/١٢١٨) عن قتادة: «يستحب أن لا تقرأ الأحاديث التي عن رسول الله ﷺ إلا على طهور».

(٣١) المصدر السابق.

(٣٢) ترتيب المدارك (٢/٢٥).

(٣٣) انظر: بهجة المحافل (٢/٤٠٧).

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنشدكم الله أهل بيتي» ثلاثاً، قلنا لزيد: من أهل بيته؟ قال: آل عليٍّ وآل جعفرٍ وآل عقیلٍ وآل العباس ^(٣٤).

قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه.

وعن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ الآية - وذلك في بيت أم سلمة رضي الله عنها - دعا فاطمة وحسناً وحسيناً، فجللهم بكساء وعليٌّ خلف ظهره رضي الله عنه ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» ^(٣٥).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما نزلت آية المباهلة دعا النبي صلى الله عليه وسلم علياً وحسناً وحسيناً وفاطمة وقال: «اللهم هؤلاء أهلي» ^(٣٦).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في عليٍّ رضي الله عنه: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» ^(٣٧).

(٣٤) صحيح مسلم (١٨٧٣/٨).

(٣٥) أخرجه الترمذي (٣٥١/٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٤٣/٢)، وقال الترمذي: «غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة»، ويشهد له ما مرّ في صحيح مسلم من حديث زيد بن أرقم.

(٣٦) صحيح مسلم (١٨٧١/٤).

(٣٧) أخرجه ابن ماجه (٤٥/١)، وأحمد (٧١/٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٠٤/٢)، والبزار في مسنده (٢١١/١٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥/٥)، وابن حبان في صحيحه (٣٧٦/١٥)، وغيرهم، وهو حديث صحيح كثير الطرق، وأفرده الذهبي في جزء (كما في تذكرة الحفاظ ٣/١٦٤)، وأشار في ترجمة المطلب بن زياد من السير (٣٣٥/٨) إلى أنه متواتر المتن.

وقال فيه: «لا يحبُّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»^(٣٨).

وكان يأخذ بيد أسامة بن زيد والحسن رضي الله عنهما ويقول: «اللهم إنِّي أحبُّهما فأحبَّهما»^(٣٩).

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «ارقبوا محمداً في أهل بيته»^(٤٠).

وقال أيضاً: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إليَّ أن أصلَ من قرابتي^(٤١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «أحبُّ الله من أحبَّ حسيناً»^(٤٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «من أهان قريشاً أهانه الله»^(٤٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: «قدموا قريشاً ولا تقدّموها»^(٤٤).

وقال صلى الله عليه وسلم لأم سلمة رضي الله عنها: «لا تؤذيني في عائشة»^(٤٥).

(٣٨) صحيح مسلم (٨٦/١)، ولفظه: «وإنه لعهد النبي الأمي إلى أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق».

(٣٩) صحيح البخاري (٢٤/٥).

(٤٠) صحيح البخاري (٢٠/٥).

(٤١) صحيح البخاري (٢٠/٥)، وصحيح مسلم (١٣٨٠/٣).

(٤٢) في المطبوع «حسناً»، والتصويب من مصادر التخريج، وأخرجه الترمذي (٦٥٨/٥)، وابن ماجه (٥١/١)، وابن أبي شيبه (٣٠٧/٢) في مسنده، وأحمد (١٠٣/٢٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٣٣)، والدولابي في الكنى والأسماء (٢٧٠/١)، وابن حبان في صحيحه (٤٢٨/١٥)، وغيرهم، وأورده الألباني في الصحيحة [١٢٢٧].

(٤٣) أخرجه الشافعي في مسنده (ص ٢٧٨)، وأحمد (٥٠٧/١)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٣٤/٢)، والبخاري (٢٨/٢)، والدينوري في المجالسة (١٩٢/٦)، وابن حبان في صحيحه (١٦٦/١٤)، والطبراني في الكبير

(٢٥٩/١)، والأوسط (١٠٠/٦)، والحاكم في المستدرک (٨٣/٤)، وأورده الألباني في الصحيحة [١١٧٨].

(٤٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٦٢٢/٢)، والبخاري (١١٢/٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٣٧/٢)، وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء (٣٩٥/٢) بمجموع طرقه.

(٤٥) صحيح البخاري (١٥٦/٣).

وعن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: رأيت أبا بكر رضي الله عنه وجعل الحسن على عنقه وهو يقول:

بأبي شبيهٌ بالتّبي ليس شبيهاً بعلي
وعليّ رضي الله عنه يضحك (٤٦).

وروي عن عبد الله بن حسن بن حسين قال: أتيت عمر بن عبد العزيز في حاجة، فقال لي: إذا كان لك حاجة فأرسل إليّ أو اكتب؛ فإنّي أستحيي من الله أن يراك على بابي (٤٧).

وعن الشعبي قال: صلّى زيد بن ثابت على جنازة أمّه ثمّ قرّبت له بغلته ليركبها، فجاء ابن عبّاس، فأخذ بركابه فقال زيد: خلّ عنه يا ابن عمّ رسول الله، فقال: هكذا نفعل بالعلماء، فقبّل زيد يد ابن عبّاس وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا (٤٨).

ولما فرض عمر بن الخطّاب لابنه عبد الله في ثلاثة آلاف ولأسماءة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة قال عبد الله لأبيه: لم فضّلته؟ فوالله ما سبقني إلى مشهد، فقال له: لأنّ زيداً كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وأسماءة أحبّ إليه منك، فأثرت حبّ رسول الله ﷺ على حبّي (٤٩).

(٤٦) صحيح البخاري (٢٦/٥).

(٤٧) انظر: تاريخ دمشق (٢٢٢/٤٥)، الجوهرية في نسب النبي ﷺ لمحمد بن أبي بكر البري (٢١٠/٢).

(٤٨) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٧/٥)، والحاكم في المستدرک (٤٨٤/٣)، والبيهقي في المدخل (١٣٧/١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥١٤/١).

(٤٩) أخرجه الترمذي (٦٧٥/٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (٣٦٤/١)، وابن زنجويه في الأموال (٥٠٧/١)، وابن حبان في صحيحه (٥١٧/١٥)، وغيرهم.

فصل

ومن توقيره وبرّه ﷺ إعظام أمكنته ومعاهدته ﷺ، وتوقير أصحابه ﷺ وبرّهم ومعرفة حقّهم والافتدأ بهم وحسن الثناء عليهم والاستغفار لهم والإمساك عمّا شجر بينهم ومعاداة من عاداهم والإضراب عن أخبار المؤرّخين وجهلة الرّواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن يلتمس لهم فيما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التّأويلات ويخرّج لهم أصوب المخارج؛ إذ هم أهل ذلك، ولا يُذكر أحدٌ منهم بسوء ولا يُعمّص عليه أمرٌ، بل تُذكرُ حسناتهم وفضائلهم وحميدُ سيرهم ويُسكّت عمّا وراء ذلك.

كما قال ﷺ: «إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا» (٥٠).

قال الله تعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ يَعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩] ، وقال تعالى ﴿ وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] ، وقال تعالى ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ﴾

(٥٠) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (ص ٣٥٠)، والطبراني في الكبير (١٠/١٩٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/١٤٢)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٠٨)، وغيرهم، وحسنه بمجموع طرقه الألباني في الصحيحة [٣٤].

اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبِيعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴿ [الفتح: ١٨]، وقال تعالى ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

[الأحزاب: ٢٣].

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكرٍ وعمر» ^(٥١).

وقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مدًّا أحدهم ولا نصيفه» ^(٥٢).

وقال مالك بن أنس وغيره: من أبغض الصحابة وسبهم فليس له في يومئذٍ المسلمون حقٌّ، ونزع بأية الحشر ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر، قال الله تعالى ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩] ^(٥٣).

وقال عبد الله بن المبارك: خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدقُ وحبُّ أصحاب محمد ﷺ ^(٥٤).

(٥١) أخرجه الترمذي (٦٠٩/٥)، وابن ماجه (٣٧/١)، والحميدي في مسنده (٤١٣/١)، وأحمد (٣١٠/٣٨)، وفي فضائل الصحابة (١٨٦/١)، والبيزار في مسنده (٢٤٨/٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٦/٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٢٨/١٥)، وغيرهم، وأورده الألباني في الصحيحة [١٢٣٣].

(٥٢) صحيح البخاري (٨/٥)، وصحيح مسلم (١٩٦٧/٤).

(٥٣) نقل ذلك عن سفيان بن عيينة أيضًا كما في النهي عن سب الأصحاب للضيء المقدسي (ص ٨٦)، وعبد الله بن إدريس الأودي كما في الصارم المسلول (ص ٥٧٩).

(٥٤) الشريعة للأجري (١٦٨٧/٤)، الطيوربات للسلفي (٣٣١/٢).

قال أيوب السخيتاني: من أحبّ أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحبّ عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحبّ عثمان فقد استضاء بنور الله، ومن أحبّ عليًّا فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد ﷺ فقد برئ من النفاق، ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف أن لا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبّهم جميعًا ويكون قلبه سليمًا^(٥٥).

وقال رجل للمعافى بن عمران: أين عمر بن عبد العزيز من معاوية، فغضب وقال: لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحد، معاوية صاحبه وصهره وكتابه وأمينه على وحي الله^(٥٦).

قال مالك: هذا النبيّ مؤدّب الخلق الذي هدانا الله به وجعله رحمة للعالمين يخرج في جوف الليل إلى البقيع، فيدعو لهم ويستغفر كالمودّع لهم، وبذلك أمره الله وأمر النبي ﷺ بحبّهم وموالاتهم ومعاداة من عاداهم.

قال سهل بن عبد الله التستري: لم يؤمن بالرّسول من لم يوقّر أصحابه ولم يُعزّز أوامره^(٥٧).

(٥٥) الورع للإمام أحمد (ص ٩٣)، الشريعة للأجري (٤/١٧٧٣)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٧/١٣١٦)، الحجّة في بيان المحجة للخلال (٢/٣٩٥)، إلى قوله: «فقد برئ من النفاق»، .
 (٥٦) الشريعة للأجري (٥/٢٤٦٦)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٨/١٥٣١).
 (٥٧) نقله القسطلاني في المواهب اللدنية (٢/٧٠٦).

تعظيم أمر النبي ﷺ

وروي عن صفية بنت نجدة قالت: كان لأبي محذورة قصبة في مقدم رأسه إذا قعد وأرسلها أصابت الأرض، فقيل له: ألا تحلقها، فقال: لم أكن بالذي أحلقها وقد مسّها رسول الله ﷺ بيده^(٥٨).

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في المدينة: «من أحدث فيها حدثاً أو أوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»^(٥٩).

وقال ﷺ «من حلف على منبري كاذباً فليتبوأ مقعده من النار»^(٦٠).

(٥٨) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٧٨/٤)، وأبو القاسم البغوي في معجم الصحابة (٢١٥/١)، والطبراني في الكبير (١٧٦/٧)، والحاكم في المستدرک (٥٨٩/٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٤١١/٣).
(٥٩) صحيح البخاري (٢٠/٣)، وصحيح مسلم (٩٩٤/٢).
(٦٠) أخرجه أبو داود (٢٢١/٢)، وابن ماجه (٧٧٩/٢)، ومالك في الموطأ (١٠٥٢/٤)، والشافعي في مسنده (ص ١٥٣)، وأحمد (٥٤/٢٣)، وابن حبان في صحيحه (٢١٠/١٠) وغيرهم، وإسناده قوي.

الباب الثامن في حكم الصلاة عليه ﷺ والتسليم وفرض ذلك وفضيلته

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه أن الله وملائكته يُباركون على النبي، وقال المبرد: وأصل الصلاة الترحم، فهي من الله رحمة ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله^(١).

وقد ورد في الحديث صفة صلاة الملائكة على من جلس ينتظر الصلاة: اللهم اغفر له اللهم ارحمه^(٢)، فهذا دعاء.

وقال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء^(٣).

وقد فرّق النبي ﷺ في حديث تعليم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة ولفظ البركة، فدلّ أنهما بمعنيين.

(١) إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس (٢١٨/٣).

(٢) صحيح مسلم (٤٥٩/١).

(٣) تفسير مجاهد (ص ٥٥٢)، تفسير ابن أبي حاتم (٣١٣٩/٩).

وأما التسليم الذي أمر الله تعالى به عباده فقال القاضي أبو بكر ابن بكير: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ، فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه، وكذلك من بعدهم أمرُوا أن يسلموا على النبي ﷺ عند حضورهم قبره وعند ذكره. وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه:

أحدها: السلامة لك ومعك، ويكون السلام مصدرًا كاللذاذ واللذاذة. الثاني: أي السلام على حفظك ورعايتك متولٍّ له وكفيل به، ويكون هنا السلام اسم الله.

الثالث: أن السلام بمعنى المسالمة له والانقياد، كما قال ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فصل في حكم الصلاة على النبي ﷺ

اعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة غير محدد بوقت؛ لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفر الطبري أن محمل الآية عنده على الندب وادعى فيه الإجماع^(٤)، ولعله فيما زاد على مرة، والواجب منه الذي يسقط به الحرج

(٤) تهذيب الآثار للطبري (ص ٢٤٢، الجزء المفقود، ط. دار المأمون، تحقيق: علي رضا).

ومآثم ترك الفرض مرّةً، كالشهادة له بالنبوة، وما عدا ذلك فمندوب مرغّب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله.

قال القاضي أبو الحسن ابن القصار: المشهور عن أصحابنا أنّ ذلك واجبٌ في الجملة على الإنسان، وفرضٌ عليه أن يأتي بها مرّةً من دهره مع القدرة على ذلك^(٥).

وقال القاضي أبو بكر ابن بكير: افترض الله على خلقه أن يصلّوا على نبيّه ويسلموا تسليمًا ولم يجعل ذلك لوقتٍ معلومٍ، فالواجب أن يُكثِرَ المرءُ منها ولا يَغفَلَ عنها.

وقال أصحاب الشافعيّ: الفرض منها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ هو في الصلاة، وقالوا: وأمّا في غيرها فلا خلاف أنّها غير واجبة^(٦).

فصل في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام على النبي ﷺ

ويرغّب من ذلك في الصلاة كما قدّمناه، وذلك بعد التّشهد وقبل الدّعاء. عن فضالة بن عبّيدٍ رضي الله عنه قال: سمع النبيّ ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصلّ على النبيّ ﷺ فقال النبيّ ﷺ: «عجل هذا»، ثمّ دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ثمّ ليصلّ على النبيّ ﷺ ثمّ ليَدْعُ بعدُ بما شاء»^(٧).

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١١٣/١٠). وانظر: التمهيد (١٩١/١٦).

(٦) انظر: المجموع شرح المهذب (٤٦٧/٣).

(٧) أخرجه الترمذي (٥١٧/٥)، وأحمد (٣٦٣/٣٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٠/٥)، والحاكم في المستدرک

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئاً فليبدأ بمدحه والثناء عليه بما هو أهله، ثم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ليسأل فإنه أجدر أن ينجح ^(٨).

وقال ابن عطاء: للدعاء أركانٌ وأجنحةٌ وأسبابٌ وأوقاتٌ، فإن وافق أركانه قوي وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواعيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح، فأركانه حضور القلب والرقّة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب، وأجنحته الصدق، ومواعيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن مواطن الصلاة عليه عند ذكره وسماع اسمه أو كتابه أو عند الأذان. وقد قال صلى الله عليه وسلم «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذَكَرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ» ^(٩).

وكره ابن حبيب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عند الذبح، وكره سحنون الصلاة عليه عند التّعجب، وقال: لا يصلّي عليه إلا على طريق الاحتساب وطلب الثواب.

(١/٣٥٤)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي

(٨) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠/٤٤١)، وقوّاه الألباني في الصحيحة [٣٢٠٤] بما رواه الترمذي (٢/٤٨٨) وغيره وصححه من طريق زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنت أصلي والنبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر معه، فلما جلست بدأت بالثناء على الله، ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دعوت لنفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «سل تعطه، سل تعطه».

(٩) أخرجه الترمذي (٥/٥٥٠)، وأحمد (١٢/٤٢١)، والبخاري (١٥/١٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٨٩)، والحاكم في المستدرک (١/٧٣٤)، وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء (١/٣٦).

وروى النسائي عن أوس بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ الأمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة^(١٠).

ومن مواطن الصلاة والسلام دخول المسجد. قال أبو إسحاق ابن شعبان: وينبغي لمن دخل المسجد أن يصلي على النبي ﷺ وعلى آله، ويطرح عليه ويبارك عليه وعلى آله ويسلم تسليمًا، ويقول: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فعل مثل ذلك وجعل موضع «رحمتك» «فضلك».

ومن مواطن الصلاة عليه أيضًا الصلاة على الجنائز.

وذكر عن أبي أمامة رضي الله عنه أنها من السنة^(١١).

ومن مواطن الصلاة التي مضى عليها عمل الأمة ولم تنكرها: الصلاة على النبي ﷺ في الرسائل وما يكتب بعد البسملة، ولم يكن هذا في الصدر الأول وأحدث عند ولاية بني هاشم^(١٢)، فمضى به عمل الناس في أقطار الأرض ومنهم من يختم به أيضًا الكتب.

ومن مواطن السلام على النبي ﷺ تشهد الصلاة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله

(١٠) أخرجه أبو داود (٢٧٥/١)، والنسائي (٩١/٣)، وابن ماجه (٣٤٥/١)، والدارمي في سننه (٩٨١/٢)، وابن خزيمة في صحيحه (١١٨/٣)، وابن حبان في صحيحه (١٩١/٣)، وغيرهم، وهو صحيح.

(١١) مصنف ابن أبي شيبة (٤٩٠/٢).

(١٢) يقصد بني العباس من بني هاشم.

وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإنكم إذا قلتموها أصابت كلَّ عبدٍ صالحٍ في السَّماء والأرض^(١٣).

هذا أحد مواطن التسليم عليه، وسنته أول التشهد.

وقد روى مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول ذلك إذا فرغ من تشهدٍ وأراد أن يسلم^(١٤).

واستحبَّ مالك في المبسوط^(١٥) أن يسلم بمثل ذلك قبل السَّلام. قال محمد بن مسلمة: أراد ما جاء عن عائشة وابن عمر رضي الله عنهما أنهما كانا يقولان عند سلامهما: السَّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السَّلام عليكم^(١٦).

واستحبَّ أهل العلم أن ينوي الإنسان حين سلامه كلَّ عبدٍ صالحٍ في السَّماء والأرض من الملائكة وبنِي آدم والجنِّ.

قال مالك في المجموعة^(١٧): وأحبُّ للمأموم إذا سلَّم إمامه أن يقول السَّلام على النَّبيِّ ورحمة الله وبركاته السَّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السَّلام عليكم.

(١٣) صحيح البخاري (١٦٦/١)، وصحيح مسلم (٣٠١/١).

(١٤) الموطأ (ص ٩١)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(١٥) للقاظمي إسماعيل بن إسحاق الأزدي الجهضمي، من حفدة الإمام حماد بن زيد، توفي سنة ٢٨٢هـ، والكتاب مفقود.

(١٦) انظر: معرفة السنن والآثار (٦٠/٣).

(١٧) هو كتاب المجموعة على مذهب مالك وأصحابه للعلامة محمد بن إبراهيم بن عبدوس المالكي. قال ابن فرحون: «كان ثقة إماماً في الفقه صالحاً زاهداً ظاهر الخشوع ذا ورع وتواضع... وكان نظيراً لمحمد بن المواز، وألف كتاباً

فصل في كيفية الصلاة عليه ﷺ والتسليم

عن عمرو بن سُليم الزُرَقِيُّ أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ رضي الله عنه أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نَصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: «قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ»^(١٨).

وفي رواية مالك عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قَالَ: «قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلَّمْتُمْ»^(١٩).

وفي رواية كعب بن عُجرة رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَبَارَكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ»^(٢٠).

وعن عقبة بن عمرو رضي الله عنه فِي حَدِيثِهِ «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»^(٢١).

شريفًا سماه المجموعة على مذهب مالك وأصحابه، أعجلته المنية قبل تمامه»، توفي سنة ٢٦٠هـ. الديباج المذهب (٢٧٤/٢).

(١٨) صحيح البخاري (١٤٦/٤)، وصحيح مسلم (٣٠٦/١).

(١٩) صحيح مسلم (٣٠٥/١).

(٢٠) صحيح البخاري (١٤٦/٤)، وصحيح مسلم (٣٠٥/١).

(٢١) أخرجه أبو داود (٢٥٨/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٤٧/٢)، وأحمد (٣٠٤/٢٨)، والنسائي في الكبرى (٢٠٩/٢)، وفي عمل اليوم والليلة (ص ١٥٩)، وابن خزيمة في صحيحه (٣٥١/١)، والحاكم في المستدرک

وفي رواية زيد بن خارجة الأنصاري رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم كيف نصلي عليك؟ فقال: «صلُّوا واجتهدوا في الدعاء ثم قولوا: اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ» (٢٢).

وعن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى وارفع درجته العليا وآته سُؤله في الآخرة والأولى كما أتيت إبراهيم وموسى (٢٣).

وقوله: «والسلام كما قد علمتم» هو ما علمهم في التَّشَهُد من قوله «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». وقد ذهب أبو عمر ابن عبد البر وغيره إلى أنه لا يدعى للنبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة، وإنما يدعى له بالصلاة والبركة التي تختص به ويدعى لغيره بالرحمة والمغفرة (٢٤).

فصل في فضيلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتسليم عليه والدعاء له

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلُّوا عليّ؛ فإنه من صلى عليّ مرة واحدة صلى الله عليه عشراً، ثم سلُّوا لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة

(٤٠١/١)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢٢) أخرجه أحمد (٢٣٩/٣)، والنسائي في الكبرى (١٤١/٩)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثنائي (٥٦/٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧/٦)، والدولابي في الكنى والأسماء (٨٠٩/٢)، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٧٠٦/٢).

(٢٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢١١/٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٩٠٠/٢)، وإسناده صحيح.

(٢٤) الاستذكار (٣٢٤/٢)، التمهيد (٣٠٤/١٧).

لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة» (٢٥).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من صلى عليّ صلاةً صلى الله عليه عشر صلواتٍ وحطّ عنه عشر خطيئات ورفع له عشر درجاتٍ» (٢٦).
وفي رواية «وكتب له عشر حسنات» (٢٧).

ومن رواية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «لقيت جبريل فقال لي: إنني أبشرك أن الله تعالى يقول: من سلّم عليك سلّمت عليه، ومن صلّى عليك صلّيت عليه» (٢٨).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاةً» (٢٩).
وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صلّى صلاةً صلّت عليه الملائكة ما صلّى عليّ، فليقلّ من ذلك عبدٌ أو ليكثر» (٣٠).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام

(٢٥) صحيح مسلم (٢٨٨/١).

(٢٦) أخرجه النسائي (٥٠/٣)، وأحمد (٢٨٨/٢١)، وابن حبان في صحيحه (١٨٦/٣)، والحاكم في المستدرک (٧٣٥/١) وصححه.

(٢٧) عمل اليوم والليلة للنسائي (١٦٦/١)، ومسند الروياني (١٦٠/٢).

(٢٨) أخرجه أحمد (٢٠٠/٣)، وعبد بن حميد في مسنده (المنتخب ص ٨٢)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٤٩/١)، والحاكم في المستدرک (٣٤٤/١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢٩) أخرجه الترمذي (٣٥٤/٢)، وأبو يعلى في مسنده (٤٢٧/٨)، وابن حبان في صحيحه (١٩٢/٣)، وغيرهم، وضعفه الألباني في تعليقه على المشكاة (٢٩١/١)، لكنه حسنه لغيره في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢٥٨/٢)، وهو أولى.

(٣٠) أخرجه ابن ماجه (٢٩٤/١)، وابن المبارك في الزهد (ص ٣٦٣)، وعلي بن الجعد في مسنده (ص ١٣٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٥٣/٢)، وأحمد (٤٥١/٢٤) وغيرهم، وحسّنه ابن القيم في جلاء الأفهام (ص ٧٥).

فقال: يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءتِ الرَّاجِفَةُ تتبعها الرَّادِفَةُ جاء الموت بما فيه. فقال أبي بن كعب: يا رسول الله، إنني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ما شئت، قال: الربع؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قال: الثلث؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير، قال: النصف؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قال: الثلثين؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قال: يا رسول الله، فأجعل صلاتي كلها لك قال: إذا تكفى ويغفر ذنبك^(٣١).

فصل في ذم من لم يصل على النبي ﷺ وإثمه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَنْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عَنْدهُ أَبْوَاهَ الْكِبَرِ فَلَمْ يُدْخِلْهُ الْجَنَّةَ». قال عبد الرحمن: وأظنه قال: «أو أحدهما»^(٣٢).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «البنخيل الذي ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ»^(٣٣).

(٣١) أخرجه الترمذي (٦٣٦/٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٥٣/٢)، وأحمد (١٦٦/٢٥)، وغيرهم، وحسنه ابن القيم في جلاء الأفهام (ص ٧٨)، وكذا الألباني في تعليقه على المشكاة (٢٩٣/١). وقول السائل: «أجعل لك من صلاتي؟» يعني: من دعائي، انظر: مجموع الفتاوى (٣٤٩/١-٣٥٠).

(٣٢) أخرجه الترمذي (٥٥٠/٥)، وأحمد (٤٢١/١٢)، والبزار (١٤٤/١٥)، وابن الأعرابي في معجمه (٦٦٤/٢)، وابن حبان في صحيحه (١٨٩/٣)، والحاكم في المستدرک (٧٣٤/١) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

(٣٣) أخرجه الترمذي (٥٥١/٥) وقال: «حسن صحيح غريب»، وأحمد (٢٥٨/٣)، والبزار (١٨٥/٤)، والنسائي في الكبرى (٢٩١/٧)، وابن حبان في صحيحه (١٩٠/٣)، والحاكم في المستدرک (٧٣٤/١) وصححه، وكذا الألباني في الإرواء (٣٥/١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم رضي الله عنه: «أيما قوم جلسوا مجلساً ثم تفرّقوا قبل أن يذكروا الله ويصلّوا على النبي ﷺ كانت عليهم من الله ترة، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم» (٣٤).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يجلس قوم مجلساً لا يصلّون فيه على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة، وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب» (٣٥).

فصل في تخصيصه ﷺ بتبليغ صلاة من صلى عليه أو سلم من الأنام

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روي حتى أردّ عليه السلام» (٣٦).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكةً سياحين في الأرض يُبلّغوني عن أمّتي السلام» (٣٧).

(٣٤) أخرجه بلفظ آخر الترمذي (٣٣٣/٥)، وأحمد (٤٧٥/١٥)، وغيرهم وهو حديث صحيح، وهو عند أبي داود

(٣٤/٤)، والنسائي في الكبرى (١٥٥/٩، ١٥٦، ٣٠١) وغيرهم دون ذكر الصلاة على النبي ﷺ.

(٣٥) أخرجه علي بن الجعد في مسنده (ص ١٣٠)، وابن أبي عاصم في الصلاة (ص ٦٥)، والنسائي في الكبرى

(١٥٧/٩)، وعمل اليوم والليلة (ص ٣١٤)، ابن قتيبة في المجالسة (ص ٤٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان

(١٣٣/٣)، وغيرهم، وهو صحيح.

(٣٦) أخرجه أبو داود (٢١٨/٢)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٤٥٢/١)، وأحمد (٤٧٧/١٦)، والطبراني في

الأوسط (٢٦٢/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٩/٣)، وغيرهم، وإسناده جيد.

(٣٧) أخرجه النسائي (٤٣/٣)، وأحمد (١٨٣/٦)، والدارمي في السنن (١٨٢٦/٣)، وابن حبان في صحيحه

(١٩٥/٣)، والحاكم في المستدرک (٤٥٦/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٨٥٣].

وعن الحسن رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «حيثما كنتم فصلوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني» (٣٨).

وفي حديث أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أكثرُوا عليّ من الصّلاة يوم الجمعة؛ فإنّ صلاتكم معروضةٌ عليّ» (٣٩).

فصل في الاختلاف في الصّلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السّلام

الذي ذهب إليه المحقّقون ما قاله مالك وسفيان رحمهما الله، وروي عن ابن عبّاس، واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلّمين أنّه لا يصلّي على غير الأنبياء عند ذكرهم، بل هو شيءٌ يختصُّ به الأنبياء توقيراً وتعزيراً كما يخصُّ الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقدّيس والتعظيم ولا يشاركه فيه غيره، كذلك يجب تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء بالصّلاة والتّسليم ولا يشارك فيه سواهم، كما أمر الله به بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويذكر مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَثَمَةِ وَغَيْرِهِمْ بِالْغَفْرَانِ وَالرَّضَى كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأيضاً فهو أمرٌ لم يكن معروفاً

(٣٨) أخرجه ابن أبي عاصم في الصلاة على النبي (ص ٢٩)، والطبراني في الكبير (٨٢/٣)، والحسن هو ابن علي بن أبي طالب، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤/١). وله شاهد من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ، أخرجه أبو داود (٢١٨/٢)، وأحمد (٤٠٣/١٠).

(٣٩) أخرجه أبو داود (٢٧٥/١)، وابن ماجه (٣٤٥/١)، وأحمد (٨٤/٢٦)، وابن خزيمة في صحيحه (١١٨/٣)، وابن حبان في صحيحه (١٩١/٣)، وغيرهم، والحاكم في المستدرک (٤١٣/١)، وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

في الصدر الأوّل كما قال أبو عمران، وإنّما أحدثه الرافضة والمتشيعة في بعض الأئمة، فشاركوهم عند الذكر لهم بالصلاة وساووهم بالنبي ﷺ في ذلك، وأيضاً فإن التشبه بأهل البدع منهي عنه فتجب مخالفتهم فيما التزموه من ذلك، وذكر الصلاة على الآل والأزواج مع النبي ﷺ بحكم التبعية والإضافة إليه، لا على التخصيص.

وصلاة النبي ﷺ على من صلى عليه مجراها مجرى الدعاء وحسن المواجبة ليس فيها معنى التعظيم والتوقير. قالوا: وقد قال تعالى ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، فكذلك يجب أن يكون الدعاء له مخالفاً لدعاء الناس بعضهم لبعض.

فصل فيما يلزم من دخل مسجد النبي ﷺ من الأدب وفضله وفضل الصلاة فيه

قال الله تعالى ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:

١٠٨].

سئل النبي ﷺ: أي مسجد هو؟ قال: «مسجدي هذا»^(٤٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»^(٤١).

(٤٠) صحيح مسلم (١٠١٥/٢).

(٤١) صحيح البخاري (٦٠/٢)، وصحيح مسلم (١٠١٤/٢).

وعن فاطمة رضي الله عنها بنت النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا دخلت المسجد فصلّ على النبي ﷺ وقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرجت فصلّ على النبي ﷺ وقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك» (٤٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم» (٤٣).

وقال مالك: سمع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه صوتاً في المسجد فدعا بصاحبه فقال: بمن أنت؟ قال: رجل من ثقيف، قال لو كنت من هاتين القريتين لأدبتك؛ إن مسجدنا لا يرفع فيه الصوت (٤٤).

قال محمد بن مسلمة: لا ينبغي لأحد أن يعتمد المسجد برفع الصوت ولا بشيء من الأذى وأن ينزّه عمّا يكره. والعلماء كلّهم متفقون أنّ حكم سائر المساجد هذا الحكم.

(٤٢) أخرجه الترمذي (١٢٧/٢)، وابن ماجه (٢٥٣/١)، وعبد الرزاق في المصنف (٤٢٥/١)، وأحمد (١٣/٤٤)، وأبو يعلى في مسنده (١٢١/١٢)، وفي إسناده ضعف، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٢٨٤/١) بمجموع طرقه.
 (٤٣) أخرجه أبو داود (١٢٧/١)، وحسنه النووي في الأذكار (ص ٨٠)، وأورده الألباني في صحيح أبي داود [٤٨٥].
 (٤٤) ورد معناه في صحيح البخاري (١٠١/١) بلفظ: «عن السائب بن يزيد، قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطّاب، فقال: اذهب فأنتني بهذين، فجئته بهما، قال: من أنتما - أو من أين أنتما؟ - قالوا: من أهل الطائف، قال: «لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ».

وقال مالك في المبسوط: لا بأس لمن قَدِمَ من سفرٍ أو خرج إلى سفرٍ أن يقفَ على قبر النبي ﷺ، فيصلِّي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر، ف قيل له: إن ناسًا من أهل المدينة لا يقدِّمون من سفر ولا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرّة أو أكثر وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرّة أو المرّتين أو أكثر عند القبر، فيسلّمون ويدعون ساعة، فقال: لم يبلغني هذا عن أحدٍ من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسعٌ ولا يصلحُ آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدورها أنهم كانوا يفعلون ذلك. ويكرهه إلا لمن جاء من سفر أو أراد. قال ابن القاسم: ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوها أتوا القبر فسلموا، قال: وذلك رأيي.

وقال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبَد، اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وقال «لا تجعلوا قبري عيداً».

الباب التاسع فيما يجب للنبي ﷺ وما يستحيل في حقه أو يجوز عليه وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] . وقال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾
[المائدة: ٧٥] . وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ
وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠] . وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ
إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

فمحمد ﷺ وسائر الأنبياء من البشر أرسلوا إلى البشر، ولولا ذلك لما
أطاق الناس مقاومتهم والقبول عنهم ومخاطبتهم. قال الله تعالى: ﴿ وَكُوِّ
جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لِّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام: ٩]، أي: لما كان إلا في صورة البشر الذين
يمكنكم مخالطتهم؛ إذ لا تطيقون مقاومة الملك ومخاطبته ورؤيته إذا كان
على صورته.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْسُوكَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ
مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥]، أي: لا يمكن في سنة الله إرسال
الملك إلا لمن هو من جنسه أو من خصه الله تعالى واصطفاه وقواه على

مقاومته، كالأنبياء والرسل؛ فالأنبياء والرسل عليهم السلام وسائط بين الله تعالى وبين خلقه، يبلغونهم أوامره ونواهيه ووعده ووعيده، ويعرفونهم بما لم يعلموه من أمره وخلقهم، وجلاله وسلطانه، وجبروته وملكوته، فظواهرهم وأجسادهم وبنيتهم متصفة بأوصاف البشر، طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام والموت والفناء ونعوت الإنسانية، وأرواحهم وبواطنهم متعلقة بالملا الأعلى متشبهة بصفات الملائكة، سليمة من التغيير والآفات، لا يلحقها غالباً عجز البشري ولا ضعف الإنسانية.

فصل فيما يختص بالأمر الديني والكلام في عصمة نبينا ﷺ

اعلم أن الطوارئ من التغييرات والآفات على أحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه أو على حواسه بغير قصد واختيار كالأمرض والأسقام، أو تطرأ بقصد واختيار.

وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلها، والنبى ﷺ وإن كان من البشر ويجوز على جبلته ما يجوز على جبلته البشر فقد قامت البراهين القاطعة وتمت كلمة الإجماع على خروجه عنهم وتنزيهه عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار وعلى غير الاختيار كما سنبيته إن شاء الله تعالى.

أمّا عصمته ﷺ قبل النبوة فللناس فيه خلاف والصواب أنه معصوم قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم

على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحدٌ من أهل الأخبار أن أحدًا نبئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراكٍ قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل، وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمّن كانت هذه سبيله.

وأنا أقول: إن قريشًا قد رمت نبينا ﷺ بكل ما افتترته، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نصّ الله تعالى عليه أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيءٍ من ذلك تعبيرًا لواحد منهم برفضه ألّهته وتقرّيعه بدمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين وبتلّونه في معبوده محتجّين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أقطع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم ألّهتهم وما كان يعبد أبائهم من قبل، ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنّهم لم يجدوا سبيلًا إليه؛ إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٢]، كما حكاه الله عنهم.

وقد استدل القاضي القشيري على تنزيههم عن هذا بقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال: وطهره الله في الميثاق، وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان به ونصره قبل مولده بدهور، ويجوز عليه الشرك أو غيره من الذنوب، هذا ما لا يجوز إلا ملحدًا، هذا

معنى كلامه، وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عليه السلام وشق قلبه صغيراً واستخرج منه علقه وقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله وملاه حكمة وإيماناً كما تظاهرت به أخبار المبدأ.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؟، قلتُ معناه: لا تعرف الحق فهذاك إليه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتَبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]؟ فالجواب أن السمرقندي قال: معناه ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان^(١). وقال بكر القاضي نحوه، قال: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام، قال: فكان قبل مؤمناً بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدرها قبل، فزاد بالتكليف إيماناً.

فصل

واعلم أن الأمة مُجمِعة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان وكفايته منه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحدٍ إلا وكل به قرينه من الجنّ وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟

(١) بحر العلوم (٣/٢٥٠).

قال: وإيائي، ولكن الله تعالى أعانني عليه فأسلم»^(٣). زاد غيره عن منصور: «فلا يأمرني إلا بخير»^(٤).

روي «فأسلم» بضم الميم، أي: فأسلم أنا منه، وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها، وروي «فأسلم»، يعني القرين، أنه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام، فصار لا يأمر إلا بخير كالملك، وهو ظاهر الحديث، ورواه بعضهم «فاستسلم»^(٥).

فإذا كان هذا حكم شيطانه وقرينه المسلط على بني آدم، فكيف بمن بعد منه ولم يلزم صحبته ولا أقدر على الدنو منه؟

وقد جاءت الآثار بتصدّي الشياطين له في غير موطن رغبة في إطفاء نوره وإماتة نفسه وإدخال شغل عليه إذ يئسوا من إغوائه، فانقلبوا خاسرين كتعرضه له في صلاته، فأخذه النبي ﷺ وأسرّه.

ففي الصحاح قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان عرض لي فشد عليّ يقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فدعته»^(٦)، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا تنظرون إليه، فذكرت قول أخي سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبَغَىٰ لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، فردّه الله خاسئًا»^(٧).

(٣) صحيح مسلم (٤/٢١٦٧، ٢١٦٨).

(٤) المصدر السابق (٤/٢١٦٧).

(٥) لم نقف عليه مسندًا، وأشار إليه النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/١٥٨).

(٦) أي: خنقته. شرح النووي على صحيح مسلم (٥/٢٩).

(٧) صحيح البخاري (٢/٦٤).

ولما لم يقدر على أذاه مباشرة تسبب بالتوسط إلى عداه كقضيته مع قريش في الائتمار بقتل النبي ﷺ وتصوره في صورة الشيخ النجدي^(٨)، ومرة أخرى في غزوة يوم بدر في صورة سراقه بن مالك^(٩)، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ومرة يُنذر بشأنه عند بيعة العقبة^(١٠)، ومع كل هذا فقد كفاه الله أمره وعصمه من ضره وشره.

وقال ﷺ حين لُدَّ في مرضه وقيل له: خشينا أن يكون بك ذاتُ الجنبِ فقال: «إنها من الشيطان، ولم يكن الله لِيُسلطه عليّ»^(١١).

وأما قوله ﷺ: «إن هذا وادٍ به شيطان» فليس فيه ذكر تسلطه عليه ولا وسوسته له، بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بين أمر ذلك الشيطان بقوله: «إن الشيطان أتى بلائاً فلم يزل يهدُّه كما يهدُّ الصَّبِيَّ حتى نام»^(١٢)، فأعلم أنَّ تسلط الشيطان في ذلك الوادي إنما كان على بلال الموكَّل بكلاءة الفجر، هذا إن جعلنا قوله «إن هذا وادٍ به شيطان» تنبيهاً على سبب النَّوم عن الصَّلَاة،

(٨) الطبقات لابن سعد (١/١٧٦).

(٩) سيرة ابن إسحاق (١/٣٠٥)، وسيرة ابن هشام (١/٦١٢).

(١٠) مسند أحمد (٢٥/٩٤)، وأخبار مكة للفاكهي (٤/٢١٥)، والمعجم الكبير للطبراني (١٩/٩٠).

(١١) أخرجه إسحاق بن راهوية في مسنده (٢/٥٧٧)، وأحمد (٤٣/٣٦٦)، والحاكم في المستدرک (٤/٤٤٩)، وقال:

«على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وأصل الحديث في الصحيحين (صحيح البخاري ٦/١٤)، وصحيح مسلم

(٤/١٧٣٣).

(١٢) موطأ مالك (٢/٢٠)، ت: (الأعظمي)، من مرسل زيد بن أسلم.

وأما إن جعلناه تنبيهاً على سبب الرّحيل عن الوادي وعلةً لترك الصّلاة به وهو دليلٌ مساق الحديث، فلا اعتراض به في هذا الباب.

فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما طريقته البلاغ

وأما أقواله ﷺ فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «قلت: يا رسول الله، أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم، قلت: في الرضى والغضب؟ قال: نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً» (١٣).

فإذا قامت المعجزة على صدقه وأنه لا يقول إلا حقاً ولا يبلغ عن الله إلا صدقاً وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له: صدقت فيما تذكره عني، وهو يقول: إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم وأبين لكم ما نزل عليكم، وقال تعالى عنه ﷺ: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقال: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٠]، وقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]، فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبرٌ بخلاف مخبره على أي وجه كان، فلو جوزنا عليه الغلط

(١٣) أخرجه أبو داود (٣١٨/٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣١٣/٥)، وأحمد (٥٨/١١)، والدارمي (٤٢٩/١)، والطبراني في الأوسط (١٥٣/٢)، والحاكم في المستدرک (١٨٦/١) وغيرهم بألفاظ متقاربة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

والسهو لما تميّز لنا من غيره ولا اختلط الحقّ بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملةً واحدةً من غير خصوص، فتنزيه النبي ﷺ عن ذلك كله واجبٌ برهاناً وإجماعاً.

فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما ليس طريقه البلاغ كذلك

هذا القول فيما طريقه البلاغ، وأما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التي لا مستند لها إلى الأحكام ولا أخبار المعاد ولا تُصاف إلى وحي بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه فالذي يجب تنزيه النبي ﷺ عن أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مخبره لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا، وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفي حال سخطه وجده ومزحه وصحته ومرضه.

ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه، وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعاداتهم ومبَادرتهم إلى تصديق جميع أحواله والثقة بجميع أخباره في أي باب كانت وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقّف ولا تردّد في شيء منها، ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهو أم لا.

ولما احتجّ ابن أبي الحقيق اليهودي على عمر حين أجلاهم من خيبر بإقرار رسول الله ﷺ لهم واحتجّ عليه عمر رضي الله عنه بقوله ﷺ: «كيف بك إذا أخرجت من خيبر؟»، فقال اليهودي: كانت هزيلة^(١٤) من أبي القاسم، فقال له عمر: كذبت يا عدوّ الله^(١٥).

(١٤) تصغير هزل، وهو ضد الجدّ. انظر: فتح الباري (٣٢٨/٥).

(١٥) صحيح البخاري (١٩٢/٣).

ما يجب للنبي ﷺ وما يستحيل في حقه

وأيضاً فإن أخباره وأثاره وسيرته وشمائله معتنى بها مستقصى تفاصيلها، ولم يرد في شيء منها استدراكه ﷺ لغلط في قول قاله أو اعترافه بوجه في شيء أخبر به، ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه السلام رجوعه ﷺ عما أشار به على الأنصار في تلقيح النخل، وكان ذلك رأياً لا خبراً، وغير ذلك من الأمور التي ليست من هذا الباب كقوله: «والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا فعلت الذي حلفت عليه وكفرت عن يميني»^(١٦). وقوله: «إنكم تختصمون إلي»^(١٧) - الحديث -، وقوله: «اسق يا زبير حتى يبلغ الماء الجذر»^(١٨).

فصل في المباحات من تصرفاته ﷺ

وأما ما يتعلق بالجوارح من الأعمال ولا يخرج من جملتها القول باللسان فيما عدا الخبر الذي وقع فيه الكلام، ولا الاعتقاد بالقلب فيما عدا التوحيد وما قدمناه من معارفه المختصة به، فأجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات.

وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ؛ لأن كل ذلك يقتضي العصمة منه المعجزة، مع الإجماع على ذلك من الكافة.

(١٦) صحيح البخاري (١٢٧/٨) وصحيح مسلم (١٢٦٨/٣).

(١٧) المصدران السابقان (١٨٠/٣)، (١٣٣٧/٣).

(١٨) المصدران السابقان (١١١/٣)، (١٨٢٩/٤). والجذر بفتح الجيم وكسرهما: الجدار. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٨/١٥).

وقد علم من دين الصحابة قطعاً الاقتداء بأفعال النبي ﷺ كيف توجهت وفي كل فن، كالاقتداء بأمواله، فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ خاتمته، وخلعوا نعالهم حين خلع، واحتجاجهم برؤية ابن عمر رضي الله عنهما إياه جالساً لقضاء حاجته مستقبلاً بيت المقدس، واحتج غير واحد منهم في غير شيء مما بابه العبادة أو العادة بقوله: رأيت رسول الله ﷺ يفعل.

وقال: «هلا خبرتنيها أني أقبل وأنا صائم»^(١٩).

وغضب رسول الله ﷺ على الذي أخبر بمثل هذا عنه فقال: يحل الله لرسوله ما يشاء^(٢٠). وقال: «إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»^(٢١).

والآثار في هذا أعظم من أن تُحيط بها، لكنه يُعلم من مجموعها على القطع اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها، ولو جوزوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتسق هذا ولُنقل عنهم وظهر بحثهم عن ذلك، ولما أنكر ﷺ على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه.

وأما المباحات فجائز وقوعها منهم، إذ ليس فيها قدح، بل هي مأذون فيها، وأيديهم كأيدي غيرهم مسلطة عليها، إلا أنهم بما خصوا به من رفيع المنزلة، وشرحت له صدورهم من أنوار المعرفة، واضطفوا به من تعلق بالهم بالله والدار الآخرة لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات مما يتقوون به على

(١٩) أخرجه مالك في الموطأ (٤١٥/٣) ومن طريقه الشافعي في مسنده (١١٦/٢) مرسلًا، وأسنده عبد الرزاق في المصنف (١٨٣/٤)، وأحمد (٨٧/٣٩)، والطحاوي (٩٤/٢)، وغيرهم. وقد جاء في معناه عدة أحاديث بعضها في الصحيحين، كحديث عائشة (صحيح البخاري ٣٠/٣، وصحيح مسلم ٧٧٦/٢).

(٢٠) حديث «هل خبرتنيها» المتقدم في الموطأ (٤١٥/٣) وغيره.

(٢١) صحيح البخاري (٢/٧)، وصحيح مسلم (٧٧٩/٢).

سلوكِ طريقهم وصلاحِ دينهم وضرورةِ دنياهم، وما أُخِذَ على هذه السبيل صار قربةً، فبان لك عظيمُ فضلِ الله على نبيِّنا ﷺ وعلى سائرِ أنبيائه عليهم السَّلام بأن جعل أفعالهم قُرْبَاتٍ وطاعاتٍ بعيدةً عن وجهِ المخالفةِ ورسمِ المعصية.

فصل فيما يخصه ﷺ في الأمور الدنيوية وما يطرأ عليه من العوارض البشرية

قد قدّمنا أنه ﷺ وسائرُ الأنبياء والرّسل من البشر، وأن جسمه وظاهره خالصٌ للبشر يجوز عليه من الآفاتِ والتغيّيرات والآلام والأسقام وتجرع كأسِ الحِمام ما يجوز على البشر، وهذا كله ليس بنقيصةٍ فيه؛ لأنّ الشيء إنّما يسمّى ناقصًا بالإضافة إلى ما هو أتمُّ منه وأكملُ من نوعه، وقد كتب الله تعالى على أهلِ هذه الدار فيها يحيون وفيها يموتون ومنها يُخرجون، وخلق جميع البشر بدرجة الغيّر، فقد مرّضَ ﷺ واشتكى وأصابه الحرُّ والقرُّ، وأدركه الجوعُ والعطشُ، ولحقه الغضب والضجر، وناله الإعياء والتعب، ومسه الضعفُ والكِبَرُ، وسقطَ فجِحشَ شِقُّه، وشجّه الكفارُ وكسروا رباعيته، وسقي الشّمَّ وسُحر، وتداوى واحتجم، وتعوّذ، ثمّ قضى نَحْبَه فتوفي ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، وتخلّص من دار الامتحان والبلوى، وهذه سماتُ البشر التي لا مَحِيصَ عنها.

وأصاب غيره من الأنبياء ما هو أعظمُ منه، فقتلوا قتلاً، ورُموا في النار، ونُشِرُوا بالمناشير، ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات، ومنهم من

عصمه كما عصم بعد نبينا ﷺ من الناس، فلئن لم يكف نبينا ﷺ ربه يد ابنِ قَمِيَّةَ يومِ أُحُدٍ ولا حجه عن عيونِ عِداه عند دعوته أهلِ الطائف، فلقد أخذ على عيونِ قريشٍ عند خروجه إلى ثورٍ وأمسك عنه سيفَ غورثٍ وحجرَ أبي جهلٍ وفرَسَ سُراقَةَ، ولئن لم يقه من سحرِ ابنِ الأعصمِ فلقد وقاه ما هو أعظمُ من سُمِّ اليهودية، وهكذا سائرُ أنبيائه مبتلى ومعافى، وذلك من تمامِ حكمته ليُظهِرَ شرفهم في هذه المقامات ويبين أمرهم ويُتمِّ كلمته فيهم، وليحقق بامتحانهم بشريتهم ويرتفع الالتباسُ عن أهلِ الضعفِ فيهم، لئلا يضلُّوا بما يظهُرُ من العجائبِ على أيديهم ضلالَ النصرارى بعيسى بنِ مريم، وليكون في محنتهم تسليةٌ لأممهم ووفورٌ لأجورهم عند ربهم، تمامًا على الذي أحسن إليهم.

وهذه الطوارئ والتغيرات المذكورة إنما تختصُّ بأجسامهم البشرية المقصود بها مقاومة البشر ومعاناة بني آدم لمشاكلة الجنس. وأما بواطنهم فمنزهة غالبًا عن ذلك معصومةً منه متعلقةً بالملا الأعلى والملائكة لأخذها عنهم وتلقيها الوحي منهم.

وقد قال ﷺ: «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»^(٢٢)، وقال: «إنني لست كهيتكم إنني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»^(٢٣). فأخبر أن سره وباطنه وروحه خلاف جسمه وظاهره، وأن الآفات التي تحل ظاهره من ضعفٍ وجوعٍ وسهرٍ ونومٍ لا يحل منها شيء باطنه بخلاف غيره من البشر في حكم الباطن؛ لأن

(٢٢) صحيح البخاري (٥٣/٢)، وصحيح مسلم (٥٠٩/١).

(٢٣) صحيح البخاري (٢٩/٣)، وصحيح مسلم (٧٧٦/٢).

غيره إذا نام استغرق النوم جسمه وقلبه وهو ﷺ في نومه حاضر القلب كما هو في يقظته، حتى قد جاء في بعض الآثار أنه كان محروساً من الحدث في نومه لكون قلبه يقظان كما ذكرناه.

وكذلك غيره إذا جاع ضعف لذلك جسمه وخارت قوته، فبطلت بالكليّة جملته، وهو ﷺ قد أخبر أنه لا يعتريه ذلك، وأنه بخلافهم لقوله: «إني لست كهيتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني».

ولم يجر على باطنه ﷺ في هذه الأحوال كلها من وصبٍ ومرضٍ وسحرٍ وغضبٍ ما يُخلُّ به ولا فاض منه على لسانه ﷺ وجوارحه ما لا يليقُ به كما يعترى غيره من البشر.

فصل في الجواب عن كون النبي ﷺ سُحر

فإن قلت: فقد جاءت الأخبار الصحيحة أنه ﷺ سُحر كما قالت عائشة رضي الله عنها: «سحر رسول الله ﷺ حتى إنه ليُخَيَّل إليه أنه فعل الشيء وما فعله» (٢٤).

وفي روايةٍ أخرى: «حتى كان يُخَيَّل إليه أنه كان يأتي النساء ولا يأتيهن».. الحديث (٢٥).

(٢٤) صحيح البخاري (١٣٦/٧)، وصحيح مسلم (١٧١٩/٤).

(٢٥) صحيح البخاري (١٣٧/٧).

وإذا كان هذا من التباس الأمر على المسحور فكيف حال النبي ﷺ في ذلك، وكيف جاز عليه وهو معصوم؟

فاعلم وفقنا الله وإياك أن هذا الحديث صحيحٌ متفقٌ عليه، وقد طعنت فيه الملحدة وتدرّعت به لسُخف عقولها وتلبيسها على أمثالها إلى التشكيك في الشرع، وقد نزه الله الشرع والنبي ﷺ عما يدخل في أمره لبسًا، وإنما السحر مرضٌ من الأمراض وعارضٌ من العلل يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا يُنكر ولا يقدح في نبوته.

وأما ما ورد أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله فليس في هذا ما يدخل عليه داخلَةً في شيءٍ من تبليغه أو شريعته، أو يقدح في صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هذا فيما يجوز طرؤه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث بسببها ولا فضل من أجلها، وهو فيها عرضةٌ للآفات كسائر البشر؛ فغير بعيدٍ أن يُخيّل إليه من أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان.

وأيضًا فقد فسّر هذا الفصل الحديث الآخر من قوله: «حتى يخيل إليه أنى يأتي أهله ولا يأتيهن»، وقد قال سفيان: هذا أشدُّ ما يكون من السحر ولم يأت في خبرٍ منها أنه نُقل عنه في ذلك قولٌ بخلاف ما كان أخبر أنه فعله ولم يفعله، وإنما كانت خواطر وتخييلات.

وقد روى عبد الرزاق هذا الحديث عن ابن المسيّب وعروة بن الزبير، وقال فيه عنهما: «سحر يهود بنى زريقٍ رسول الله ﷺ، فجعلوه في بئرٍ حتى

كاد رسول الله ﷺ أن ينكر بصره، ثم دله الله على ما صنعوا فاستخرجه من البئر» (٢٦).

فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أن السحر إنما تسلط على ظاهره وجوارحه لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما أثر في بصره وحبسه عن وطء نسائه وطعامه، وأضعف جسمه وأمراضه. ويكون معنى قوله: «يخيّل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهن»، أي: يظهر له من نشاطه ومتقدم عاداته القدرة على النساء، فإذا دنا منهن أصابته أخذة السحر، فلم يقدر على إتيانهن كما يعترى من أخذ واعترض.

ولعله لمثل هذا أشار سفيان بقوله: «وهذا أشد ما يكون من السحر»، ويكون قول عائشة في الرواية الأخرى: «إنه ليخيّل إليه أنه فعل الشيء وما فعله» من باب ما اختل من بصره كما ذكر في الحديث، فيظن أنه رأى شخصاً من بعض أزواجه أو شاهد فعلاً من غيره ولم يكن، على ما يخيّل إليه لما أصابه في بصره وضعف نظره لا لشيء طرأ عليه في مآزره، وإذا كان هذا لم يكن فيما ذكر من إصابة السحر له وتأثيره فيه ما يدخل لبساً، ولا يجد به الملحد المعترض أنساً.

(٢٦) مصنف عبد الرزاق (١٤/١١)، ورجاله أئمة، لكنه مرسل.

فصل فيما يعتقده ﷺ في أمور أحكام البشر الجارية على يديه

وأما ما يعتقده ﷺ في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ومعرفة المحق من المبطل وعلم المصلح من المفسد، فهذه السبيل لقوله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَن يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْءٌ فَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ» (٢٧).

وفي رواية الزهري عن عروة: «فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَن يَكُونَ أْبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسَبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ» (٢٨).

وتجري أحكامه ﷺ على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد وبمين الحالف ومُراعاة الأُشبهِ ومعرفة العِفاص (٢٩) والوكاء مع مقتضى حكمة الله في ذلك؛ فإنه تعالى لو شاء لأُطلعه على سرائر عباده ومخبات ضمائر أمته، فتولَّى الحكمَ بينهم بمجرد يقينه وعلمه دون حاجةٍ إلى اعترافٍ أو بينةٍ أو يمينٍ أو شبهةٍ.

ولكن لما أمر الله أمته باتباعه والافتداء به في أفعاله وأحواله وقضاياه وسيره، وكان هذا - لو كان - مما يختص بعلمه ويؤثره الله به لم يكن للأمة سبيلٌ إلى الافتداء به في شيءٍ من ذلك، ولا قامت حجةٌ بقضيةٍ من قضاياه لأحدٍ في

(٢٧) صحيح البخاري (١٨٠/٣)، وصحيح مسلم (١٣٣٧/٣).

(٢٨) صحيح البخاري (٧٣/٩)، وصحيح مسلم (١٣٣٧/٣).

(٢٩) وعاء من جلد أو خرقة أو غير ذلك. المحكم لابن سيدة (٤٤٩/١).

شريعته؛ لأننا لا نعلم ما أطلع عليه هو في تلك القضية بحكمه بما أطلعه عليه من سرائرهم، وهذا ما لا تعلمه الأمة.

فأجرى الله تعالى أحكامه على ظواهرهم التي يستوي في ذلك هو وغيره من البشر لِيَتَمَّ اقتداء أُمَّته به في تعيينِ قضاياها وتنزيلِ أحكامها، ويأتوا ما أتوا من ذلك على علم ويقينٍ من سنَّته، إذ البيانُ بالفعل أَوْقَعُ منه بالقول وأرفعُ لاحتمال اللّفظ وتأويل المتأول، وكان حكمه على الظاهر أجلى في البيان وأوضح في وجوه الأحكام وأكثر فائدة لموجبات التشاجر والخصام، وليقتدي بذلك كله حكّام أُمَّته ويستوثق بما يؤثر عنه وينضبط قانون شريعته، وطئ ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثر به عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فيعلمه منه بما شاء ويستأثر بما شاء، ولا يقدح هذا في نبوته ولا يفصم عروّة من عصمته.

فصل في الإجابة على بعض الشبه في ذلك

فإن قيل: فما وجه حديثه أيضاً الذي عن سالم مولى النصريين قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنّما محمدٌ بشرٌ يغضب كما يغضب البشر، وإنّي قد اتّخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيّما مؤمنٍ أذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفّارةً وقربةً تقرّبه بها إليك يوم القيامة» (٣٠).

(٣٠) صحيح مسلم (٤/٢٠٠٨)، وأخرجه البخاري (٧٧/٨) مختصراً.

وفي رواية: «فأيما أحدٍ دعوت عليه دعوة»^(٣١)، وفي رواية: «ليس لها بأهل»^(٣٢)، وفي رواية: «فأيما رجلٍ من المسلمين سببته أو لعنته أو جلده فاجعلها له زكاةً وصلاةً ورحمةً»^(٣٣)، وكيف يصحُّ أن يلعنَ النبي ﷺ من لا يستحقُّ اللعن، ويسبُّ من لا يستحقُّ السب، ويجلدُ من لا يستحقُّ الجلد أو يفعلَ مثل ذلك عند الغضب وهو معصوم من هذا كله؟

فاعلم شرح الله صدرك أن قوله ﷺ أولاً: «ليس لها بأهل» أي: عندك يا ربِّ في باطن أمره؛ فإنَّ حكمه ﷺ على الظاهر كما قال وللحكمة التي ذكرناها، فحكَمَ ﷺ بجلده أو أدبه بسبِّه أو لعنَه بما اقتضاه عنده حالُ ظاهره، ثمَّ دعا له ﷺ لشفقته على أمته ورأفته ورحمته للمؤمنين التي وصفه الله بها، وحذره أن يتقبَّلَ الله فيمن دعا عليه دعوته أن يجعلَ دعاءه وفعله له رحمة، وهو معنى قوله «ليس لها بأهل»، لا أنه ﷺ يحمله الغضب ويستنزفه الضَّجْر لأن يفعلَ مثل هذا بمن لا يستحقُّه من مسلم، وهذا معنى صحيح.

ولا يفهم من قوله «أغضب كما يغضب البشر» أن الغضبَ حمله على ما لا يجب، بل يجوز أن يكون المرادُ بهذا أن الغضبَ لله حمله على معاقبته بلعنه أو سبِّه، وأنه ممَّا كان يحتمل ويجوز عفوُه عنه، أو كان ممَّا خيَّر بين المعاقبة فيه والعفو عنه.

(٣١) صحيح مسلم (٤/٢٠٠٩).

(٣٢) المصدر السابق (٤/٢٠٠٩).

(٣٣) المصدر السابق (٤/٢٠٠٧).

وقد يحمل على أنه خرج منخرج الإشفاق وتعليم أمته الخوف والحذر من تعدي حدود الله، وقد يُحمَل ما ورد من دعائه هنا ومن دعواته على غير واحد في غير موطن على غير العقد والقصد، بل بما جرت به عادة العرب وليس المرادُ بها الإجابة كقوله: «تربَّتْ يمينُك»^(٣٤)، و«لا أشبع الله بطنك»^(٣٥)، و«عقرى حلقى»^(٣٦)، وغيرها من دعواته.

وقد ورد في صفته في غير حديث أنه ﷺ لم يكن فحاشاً.

وقال أنس رضي الله عنه: «لم يكن سبباً ولا فاحشاً ولا لعاناً، وكان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له؟ تربَّ جبينه»^(٣٧).

فيكون حمل الحديث على هذا المعنى، ثم أشفق رضي الله عنه من موافقة أمثالها إجابةً فعاهد ربه، كما قال في الحديث أن يجعل ذلك للمقول له زكاةً ورحمةً وقربةً، وقد يكون ذلك إشفاقاً على المدعو عليه وتأنيساً له لئلا يلحقه من استشعار الخوف والحذر من لعن النبي ﷺ وتقبُّل دعائه ما يحمله على اليأس والقنوط، وقد يكون ذلك سؤالاً منه لربه لمن جلده أو سبه على حقٍّ وبوجهٍ صحيحٍ أن يجعل ذلك له كفارةً لما أصابه وتمحيهً لما اجترم وأن تكون

(٣٤) صحيح البخاري (٢٨/١، ١٢٠/٦، ٢٧/٨)، وصحيح مسلم (١٠٦٩/٢، ١٠٧٠).

(٣٥) صحيح مسلم (٢٠١٠/٤) بلفظ: «لا أشبع الله بطنه».

(٣٦) صحيح البخاري (١٤١/٢)، وصحيح مسلم (٨٧٧/٢). ومعناها: عقرها الله وحلقها. انظر: تهذيب اللغة (١٤٥/١).

(٣٧) صحيح البخاري (١٣/٨).

عقوبته له في الدنيا سبب العفو والغفران كما جاء في الحديث الآخر: «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة»^(٣٨).

فإن قلت: فما معنى حديث الزبير وقول النبي ﷺ له حين تخاصمه مع الأنصاري في شراج^(٣٩) الحرّة: «اسقِ يا زُبَيْرُ حتّى يبلغ الكعيبين، فقال له الأنصاري: أن كان يا رسول الله ابن عمّتك؟ فتلّون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسقِ يا زُبَيْرُ ثمّ احبس حتّى يبلغ الجدر» الحديث^(٤٠)؟

فالجواب أن النبي ﷺ مُنَزَّهُ أَنْ يَقَعَ بِنَفْسِ مُسْلِمٍ منه في هذه القصة أمرٌ يريب، ولكنه ﷺ نذب الزبير أولاً إلى الاقتصار على بعض حقه على طريق التوسّط والصلح، فلمّا لم يرض بذلك الآخر ولجّ وقال ما لا يجب استوفى النبي ﷺ للزبير حقه ولهذا ترجم البخاريّ على هذا الحديث: «باب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم عليه بالحكم»، وذكر في آخر الحديث: فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقه.

وقد جعل المسلمون هذا الحديث أصلاً في قضيتته، وفيه الاقتداء به ﷺ في كلّ ما فعله في حال غضبه ورضاه وأنه وإن نهى أن يقضي القاضي وهو غضبان فإنّه في حكمه في حال الغضب والرّضى سواء لكونه فيها معصوماً، وغضب النبي ﷺ في هذا إنّما كان لله تعالى لا لنفسه كما جاء في الحديث الصحيح.

(٣٨) صحيح البخاري (١٢/١)، وصحيح مسلم (٣/١٣٣٣).

(٣٩) هي مسایل الماء، واحدها شرجة. شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/١٠٧).

(٤٠) المصدران السابقان (٣/١١١)، (٤/١٨٢٩).

فصل في أفعاله ﷺ الدنيوية

وأما أفعاله ﷺ الدنيوية فعلى السداد والصواب، بل أكثرها أو كلها جارية مجرى العبادات والقرب على ما بيننا؛ إذ كان ﷺ لا يأخذ منها لنفسه إلا ضرورته وما يقيم رَمَقَ جسمه وفيه مصلحة ذاته التي بها يعبد ربه ويقيم شريعته ويسوس أمته، وما كان فيما بينه وبين الناس من ذلك فبين معروف يصنعه أو برُّ يوسعه أو كلام حسنٍ يقوله أو يسمعه، أو تألفٍ شاردٍ أو قهرٍ مُعاندٍ أو مُداراةٍ حاسدٍ، وكلُّ هذا لاحقٌ بصالح أعماله منتظمٌ في زاكي وظائف عباداته.

وقد كان يُخالف في أفعاله الدنيوية بحسب اختلاف الأحوال ويُعدُّ للأمر أشباهها فيركب الحمارَ لما قُرب، وفي أسفاره الرَّاحلة، ويركب البغلة في معارك الحرب دليلاً على الثبات، ويركب الخيلَ ويعدها ليوم الفزع وإجابة الصَّارخ.

وكذلك في لباسه ﷺ وسائر أحواله بحسب اعتبار مصالحه ومصالح أمته، وكذلك يفعل الفعل من أمور الدنيا، وإن كان قد يرى غيره خيراً منه، كما يترك الفعل لهذا وقد يرى فعله خيراً منه.

وقد يفعل هذا في الأمور الدنيوية ممَّا له الخيرةُ في أحد وجهيه، كخروجه من المدينة لأحدٍ وكان مذهبه التَّحصنَ بها، وتركه قتلَ المنافقين وهو على يقينٍ من أمرهم مؤالفةً لغيرهم ورعايةً للمؤمنين من قرابتهم وكرهه لأن يقول النَّاسُ: إنَّ محمداً يقتل أصحابه كما جاء في الحديث، وتركه بناءَ الكعبة

على قواعد إبراهيم مراعاةً لقلوب قريشٍ وتعظيمهم لتغيّرها وحذرًا من نِفار قلوبهم لذلك، وتحريكٍ متقدّمٍ عدوتهم للدين وأهله، فقال لعائشة رضي الله عنها في الحديث الصّحيح: «لولا حَدَثَانُ قَوْمِكَ بالكفرِ لَأَتَمَّتْ البيتَ على قواعدِ إبراهيم»^(٤١).

ويفعل الفعل ثم يتركه لكون غيره خيرًا منه، كانتقاله من أدنى مياه بدرٍ إلى أقربها للعدو من قريش، وكقوله: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سقتُ الهدى»^(٤٢).

ويبسط وجهه للكافر والعدو رجاءً استتلافه ويصبر للجاهل ويقول: «إنَّ من شرِّ النَّاسِ مَنْ اتَّقاه النَّاسَ لِشَرِّهِ»^(٤٣). ويبدلُ له الرَّغَائِبَ لِيَحَبِّبَ إِلَيْهِ شريعته ودينَ ربِّه، ويتولى في منزله ما يتولى الخادم من مهنته، ويتسمت في ملاءته^(٤٤) حتّى لا يبدو منه شيءٌ من أطرافه وحتى كأنَّ على رؤوس جلسائه الطَّيرَ، ويتحدّث مع جلسائه بحديث أولهم^(٤٥)، ويتعجب بما يتعجبون منه، ويضحك بما يضحكون منه، وقد وسع النَّاسَ بشرُّه وعدله، لا يستفزُّه

(٤١) صحيح البخاري (١٤٦/٢)، وصحيح مسلم (٩٦٩/٢).

(٤٢) المصدران السابقان (٨٣/٩)، (٨٨٣/٢).

(٤٣) المصدران السابقان (١٣/٨)، (٢٠٢/٤)، وساقه المؤلف بالمعنى.

(٤٤) أي: يقصد نحو المجلس والجلساء، والملاءة هي الربطة، والشقة نصف الملاءة في العرض، فإذا وصلت نصفًا بنصفٍ فهي ملاءة، فإن كانت الملاءة قطعة واحدة فهي ربطة. انظر: تهذيب اللغة (٢٧٠/١٢)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٣٩١/١).

(٤٥) قال الملا علي قاري: «أي: بحكاية أوائلهم وما جرى لهم تأنسًا بمقالهم وتلطّفًا بحالهم، أو بحديث أول متكلم منهم فيبني عليه كلامه إلى أن ينتهي مرامه، أو يتحدّث مع آخرهم بحديث أولهم من جهة النشاط وطريق الانبساط من غير انقباض عن بعضهم وملاة». شرح الشفا (٢٦٨/٢).

الغضبُ ولا يقصّر عن الحقّ، ولا يبطن على جلسائه، يقول: «ما كان لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعين».

فإن قلت: فما معنى قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها في الداخل عليه: «بئس ابن العشيرة»، فلمّا دخل ألان له القول وضحك معه، فلمّا خرج سألته عن ذلك قال: «إنّ من شرّ الناس من اتّقاء الناس لشرّه»، وكيف جاز أن يُظهر له خلاف ما يبطن ويقول في ظهره ما قال؟

فالجواب أنّ فعله ﷺ كان استتلافًا لمثله وتطبيعًا لنفسه ليتمكن إيمانه ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه، ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام، ومثل هذا على هذا الوجه قد خرج من حدّ مداراة الدنيا إلى السّياسة الدّينيّة، وقد كان يستألفهم بأموال الله العريضة فكيف بالكلمة اللّينة؟

قال صفوان رضي الله عنه: لقد أعطاني وهو أبغض الخلق إليّ فما زال يعطيني حتّى صار أحبّ الخلق إليّ ^(٤٦).

وقوله فيه: «بئس ابن العشيرة» هو غير غيبة، بل هو تعريف ما علمه منه لمن لم يعلم ليحذر حاله ويحترز منه، ولا يُوثق بجانبه كلّ الثقة لا سيما وكان مُطاعًا متبوعًا، ومثل هذا إذا كان لضرورةٍ ودفع مضرّةٍ لم يكن بغيبة، بل كان جائزًا بل واجبًا في بعض الأحيان كعادة المحدثين في تجريح الرّواة، والمزكّين في الشهود.

(٤٦) صحيح مسلم (٤/١٨٠٦).

فصل في الكلام على الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه ﷺ وعلى غيره من الأنبياء من قبل

فإن قيل : فما الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم السلام، وما الوجه فيما ابتلاهم الله به من البلاء وامتحانهم بما امتحنوا به كأيوب ويعقوب ودانيال ويحيى وزكريا وعيسى وإبراهيم ويوسف وغيرهم صلوات الله عليهم، وهم خيرته من خلقه وأحباؤه وأصفياءه؟

فاعلم وقفنا الله وإياك أن أفعال الله تعالى كلها عدلٌ وكلماته جميعاً صدقٌ لا مبدلٌ لكلماته، يتلى عباده كما قال لهم ﴿لِنُنظَرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] [الملك: ١]، وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال: ﴿وَلِمَا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلِنَبْلُوَنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فامتحانه إيّاهم بضروب المحن زيادة في مكانتهم ورفعة في درجاتهم وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرّضى والشكر والتّسليم والتّوكل والتّفويض والدعاء والتّضرّع منهم، وتأكيد لبصائرهم في رحمة الممتحنين والشفقة على المبتليين، وتذكّرة لغيرهم وموعظة لسواهم ليتأسّوا في البلاء بهم ويتسلّوا في المحن بما جرى عليهم ويقعدوا بهم في الصبر ليلقوا الله طيبين مهذبين وليكون أجرهم أكمل وثوابهم أوفر وأجزل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله وما عليه خطيئة^(٤٧).

وكما قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ مِنْهُ ثَوَابٌ كَثِيرَةٌ وَأَنَّ لَهُمْ فِيهَا أَجْرًا كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وعن سعد رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة^(٤٨)».

قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت الوجع على أحدٍ أشد منه على النبي ﷺ^(٤٩).

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ في مرضه يُوعك ووعكاً شديداً فقلت: إنك لتوعك ووعكاً شديداً، قال: أجل إنني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك أن لك الأجر مرتين؟ قال: أجل، ذلك كذلك^(٥٠).

(٤٧) أخرجه الترمذي (١٨٠/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٥١)، والبيزار في مسنده (٣٢٩/١٤)، وأبو يعلى في مسنده (٣١٩/١٠)، والحاكم في المستدرک (٣٥٠/٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤٨) أخرجه أحمد (٨٧/٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٤٣/٢)، والطحاوي في شرح المشكل (٤٥٥/٥)، وابن حبان في صحيحه (١٦١/٧)، والحاكم في المستدرک (٣٥٠/٤)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤٩) صحيح البخاري (١١٥/٧)، وصحيح مسلم (١٩٩٠/٤).

(٥٠) المصدران السابقان (١١٥/٧)، (١٩٩١/٤).

وحكمة أخرى أنّ الأمراض نذيرُ الممات، وبقدر شدتها شدةُ الخوفِ من نزول الموت، فيستعدُّ مَنْ أصابته وَعَلِمَ تعهدها له للقاء ربه ويُعرض عن دار الدنيا الكثيرة الأتكاذ، ويكون قلبه معلقًا بالمعاد، فيتصلّ من كلِّ ما يخشى تبعته من قِبَلِ الله وقِبَلِ العباد، ويؤدّي الحقوقَ إلى أهلها، وينظر فيما يحتاج إليه من وصيةٍ فيمن يُخلفه أو أمرٍ يعهده.

وهذا نبينا ﷺ المغفورُ له ما تقدّم وما تأخر قد طلب التنصل في مرضه ممّ كان له عليه مالٌ أو حقٌّ في بدنٍ، وأقاد من نفسه وماله وأمكن من القصاص منه على ما ورد في حديث الفضل رضي الله عنه، وحديث الوفاة، وأوصى بالثقلين بعده: كتاب الله وعترته، وبالأنصار عيبتة.

وهكذا سيرة عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقين، وهذا كله يُحرّمه غالبًا الكفار لإملاءِ الله لهم ليزدادوا إثمًا وليستدرجهم من حيث لا يعلمون، قال الله تعالى ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٤٩-٥٠].

الباب العاشر في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه أو سبه ﷺ

قد تقدّم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ، وما يتعيّن له من برّ وتوقير وتعظيم وإكرام، وبحسب هذا حرّم الله تعالى أذاه في كتابه، وأجمعت الأمة على قتل من تنقصه من المسلمين وسابه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا آيَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ۗ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال تعالى في تحريم التعريض له: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا نَنْظُرْنَا ۚ وَأَسْمَعُوا ﴾ [البقرة: ١٠٤] الآية، وذلك أنّ اليهود كانوا يقولون: راعنا يا محمّد، أي أرعنا سمعك واسمع منا، ويعرّضون بالكلمة يريدون الرعونة، فهي الله المؤمنين عن التشبّه بهم، وقطع الذريعة بنهي المؤمنين عنها لئلا يتوصّل بها الكافر والمنافق إلى سبه والاستهزاء به.

وقيل: بل لما فيه من مشاركة اللفظ لأنها عند اليهود بمعنى اسمع لا سمعت، وقيل: بل لما فيها من قلة الأدب وعدم توقير النبي ﷺ وتعظيمه

لأنها في لغة الأنصار بمعنى: ارعنا نرعك، فنهوا عن ذلك؛ إذ مضمونه أنهم لا يرعون إلا برعايته لهم وهو ﷺ واجب الرعاية بكل حال.

هذا وهو ﷺ قد نهى عن التكني بكنيته فقال: «سَمُوا باسمي ولا تَكْنُوا بكنيتي»^(١)، صيانةً لنفسه وحماية عن أذاه؛ إذ كان ﷺ استجاب لرجل نادى: يا أبا القاسم، فقال: لم أعنك، إنما دعوتُ هذا، فنهى حينئذ عن التكني بكنيته لئلا يتأذى بإجابة دعوة غيره لمن لم يدعه، ويجد بذلك المنافقون والمستهزؤون ذريعةً إلى أذاه والإضرار به فينادونه، فإذا التفت قالوا: إنما أردنا هذا، لسواه، تعنيًا له واستخفافًا بحقه على عادة المُجَّان والمستهزئين، فحمى ﷺ حمى أذاه بكل وجه، فحمل محققو العلماء نهيه عن هذا على مدة حياته وأجازوه بعد وفاته لارتفاع العلة.

وللناس في هذا الحديث مذاهبٌ ليس هذا موضعها، وما ذكرناه هو مذهب الجمهور والصواب إن شاء الله أن ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل الندب والاستحباب لا على التحريم، ولذلك لم ينه عن اسمه لأنه قد كان الله منعه من ندائه به بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] وإما كان المسلمون يدعونه: يا رسول الله، يا نبي الله، وقد يدعونه بكنيته «أبا القاسم»، بعضهم في بعض الأحوال.

وحكى محمد بن سعد أن عمر رضي الله عنه نظر إلى رجل اسمه محمد ورجل يسبّه ويقول له: فعل الله بك يا محمد وصنع، فقال عمر لابن أخيه محمد

(١) صحيح البخاري (١/١)، وصحيح مسلم (٣/١٦٨٢).

بن زيد بن الخطاب: لا أرى محمداً ﷺ يُسبُّ بك والله لا تدعى محمداً ما دمت حيّاً وسماه عبد الرحمن، وأراد أن يمنع لهذا أن يسمّى أحدٌ بأسماء الأنبياء إكراماً لهم بذلك وغير أسماءهم وقال: لا تسمّوا بأسماء الأنبياء ثم أمسك^(٢).

والصواب جواز هذا كله بعده ﷺ بدليل إطباق الصحابة على ذلك، وقد سمى جماعة منهم ابنه محمداً وكناه بأبي القاسم.

فصل في بيان ما هو في حقه ﷺ سبٌ أو نقصٌ من تعريض أو نص

اعلم وفقنا الله وإياك أنّ جميع مَنْ سبَّ النَّبِيَّ ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصاً في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به أو شبهه بشيءٍ على طريق السبِّ له أو الإزراء عليه أو التّصغير لشأنه أو الغضّ منه والعيب له فهو سابٌّ له، والحكم فيه حكم السابِّ يُقتل كما نبيّنه، ولا يمتري فيه تصريحاً كان أو تلويحاً.

وكذلك مَنْ لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرةً له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسُخفٍ من الكلام وهُجْر

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤٠/٥)، وأحمد (٤٢٧/٢٩)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٧٥٢/٢)، وغيرهم من مرسل عبد الرحمن بن أبي ليلى، وفي آخره: «فأرسل إلى بني طلحة، وهم سبعة وسيدهم وكبيرهم محمد بن طلحة، ليغير أسماءهم، فقال محمد: أذكرك الله يا أمير المؤمنين، فوالله لمحمد ﷺ سماني محمداً، فقال: قوموا لا سبيل إلى شيء سماه رسول الله ﷺ». قال الحافظ في الفتح (٥٧٣/١٠): «فهذا يدل على رجوعه عن ذلك»..

ومنكر من القول وزور أو غيرَه بشيءٍ مما جرى من البلاء والمحنة عليه أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه.

وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلمَّ جرًّا.

قال أبو بكر ابن المنذر: أجمع عوامُّ أهل العلم على أن من سبَّ النبي ﷺ يُقتل، ومَن قال ذلك مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي^(٣). وهو مقتضى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٤)، ولا تُقبل توبته عند هؤلاء، وبمثله قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري وأهل الكوفة والأوزاعي في المسلمين، لكنهم قالوا: هي ردّة^(٥).

وروى مثله الوليد بن مسلم عن مالك، وحكى الطبري مثله عن أبي حنيفة وأصحابه فيمن تنقصه رضي الله عنه أو برئ منه أو كذبه.

وقال سحنون فيمن سبّه: ذلك ردّة كالزندقة، وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته وتكفيره، وهل قتله حدٌّ أو كفرٌ كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

ولا نعلم خلافاً في استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمة، وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره، وأشار بعض الظاهريّة وهو أبو محمد

(٣) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٢٦/٤).

(٤) يشير إلى ما أخرجه أبو داود (١٢٩/٤) والنسائي (١٠٨/٧) وأحمد (٢٢٢/١) وغيرهم بإسناد صحيح أن رجلاً أغلظ لأبي بكر فقال أبو برزة له: ألا أضرب عنقه؟ فانتهره وقال: ما هي لأحد بعد رسول الله ﷺ، وسيورده المؤلف بعد قليل.

(٥) انظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق (١٣٥/٥)، الدر المختار (٢٣١/٤).

عليّ بن أحمد الفارسيّ^(٦) إلى الخلاف في تكفير المستخفّ به والمعروف ما قدّمناه.

قال محمّد بن سحنون: أجمع العلماء أنّ شاتم النبيّ ﷺ المتنقّص له كافراً والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة قتلٌ، ومن شكّ في كفره وعذابه كفر.

واحتجّ إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد رضي الله عنه مالك بن نويرة لقوله عن النبيّ ﷺ: صاحبكم^(٧). وقال أبو سليمان الخطّابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً^(٨).

وقال ابن القاسم عن مالك في كتاب ابن سحنون والمبسوط والعُتبيّة^(٩)، وحكاه مطرف عن مالك في كتاب ابن حبيب: من سبّ النبيّ ﷺ من المسلمين قُتِلَ ولم يُستتَب.

قال ابن القاسم في العتبيّة: من سبّه أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يقتل وحكمه عند الأمة القتل كالزندق، وقد فرض الله تعالى توقيره ﷺ وبرّه.

(٦) هو ابن حزم، وما ذكره في المحلى (٤٤٢-٤٣٦/١٢) يدل على عدم وجود خلاف في ذلك.

(٧) تاريخ الطبري (٢٨٠/٣).

(٨) معالم السنن (٢٩٦/٣).

(٩) هو كتاب ألفه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة، الأموي مولاهم، المشهور بالعتبي، قال ابن الفرضي: «كان حافظاً للمسائل، جامعاً لها، عالماً بالنوازل»، توفي سنة ٢٥٥هـ. وكتابه هذا يسمى «المستخرجة» أيضاً. انظر: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (٨/٢)، ترتيب المدارك (٢٥٢/٤-٢٥٣).

وفي المبسوط عن عثمان بن كنانة: من شتم النبي ﷺ من المسلمين قتل أو صلب حيًّا ولم يستتب، والإمام مخير في صلبه حيًّا أو قتله.
ومن رواية أبي المصعب وابن أبي أويس: سمعنا مالكا يقول: من سب رسول الله ﷺ أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل، مسلماً كان أو كافراً، ولا يستتاب.

وفي كتاب محمد أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب النبي ﷺ أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب، وقال أصبغ: يقتل على كل حالٍ أسراً ذلك أو أظهره، ولا يستتاب لأن توبته لا تعرف.
وحكى الطبري مثله عن أشهب عن مالك، وروى ابن وهب عن مالك: من قال إن رداء النبي ﷺ - ويروى: زر النبي ﷺ - وسخ أراد به عيبه قتل (١٠).

وقال بعض علمائنا: أجمع العلماء على أن من دعا على نبي من الأنبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة.
وأفتى أبو الحسن القاسمي فيمن قال في النبي ﷺ: الجمال يتيم أبي طالب بالقتل، وأفتى أبو محمد ابن أبي زيد بقتل رجل سمع قومًا يتذاكرون صفة النبي ﷺ إذ مرَّ بهم رجلٌ قبيحُ الوجهِ واللحية، فقال لهم: تريدون تعرفون صفته، هي في صفة هذا المارِّ في خلقه ولحيته. قال: ولا تقبل توبته، وقد كذب لعنه الله وليس يخرج من قلب سليم الإيمان.

(١٠) النوادر والزيادات لابن أبي زيد (٥٢٩/١٤).

قال حبيب بن الربيع: لأنّ ادّعاء التأويل في لفظٍ صُراحٍ لا يُقبَلُ، إنه استهان وهو غير معزّر لرسول الله ﷺ ولا موقّر له فوجب إباحتُ دمه. وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقه الطلّيطيّ وصلبه بما شهد عليه به من استخفافه بحقّ النبيّ ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم وختن حيدرة وزعمه أنّ زهده لم يكن قصداً، ولو قدر على الطيّبات أكلها إلى أشباه لهذا.

وأفتى فقهاء القيروان وأصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزاريّ، وكان شاعراً متفنناً في كثيرٍ من العلوم، وكان ممن يحضر مجلس القاضي أبي العباس ابن طالب للمناظرة، فرُفِعَتْ عليه أمورٌ مُنكَرَةٌ من هذا الباب في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبيّنا ﷺ، فأحضر له القاضي يحيى بن عمر وغيره من الفقهاء وأمر بقتله وصلبه، فطعن بالسكّين وصلب منكبّاً، ثمّ أنزل وأحرق بالنار. وحكى بعض المؤرخين أنّه لما رفعت خشبته وزالت عنها الأيدي استدارت وحوّلت عن القبلة، فكان آية للجميع وكبر للناس.

وقال القاضي أبو عبد الله ابن المرابط: من قال: إنّ النبيّ ﷺ هزم يستتاب، فإنّ تاب وإلا قتل، لأنه تنقّص، إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصّته، إذ هو على بصيرةٍ من أمره ويقين من عصمته.

وقال ابن عتّاب: الكتاب والسنة موجبان أنّ من قصد النبيّ ﷺ بأذى أو نقص معرّضاً أو مصرّحاً وإن قلّ فقتله واجب.

فهذا الباب كله مما عدّه العلماء سبًّا أو تنقُّصًا يجب قتل قائله، لم يختلف في ذلك متقدّمهم ولا متأخرهم، وإن اختلفوا في حكم قتله على ما أشرنا إليه ونبيّنه بعد.

وكذلك حكم من غمّصه أو عبّره برعاية الغنم أو السّهو أو النسيان أو السحر أو ما أصابه من جرح أو هزيمة لبعض جيوشه أو أذى من عدوه أو شدة من زمنه أو بالميل إلى نساته فحكم هذا كله لمن قصد به نقصه القتل، وقد مضى من مذاهب العلماء في ذلك ويأتي ما يدل عليه.

فصل في الحجة في إيجاب قتل من سبه أو عابه ﷺ

فمن القرآن لعنه تعالى لمؤذيه في الدنيا والآخرة وقرانه تعالى أذاه بأذاه ولا خلاف في قتل مَنْ سبَّ الله، وأنَّ اللّعن إنّما يستوجبهُ مَنْ هو كافرٌ، وحكمُ الكافر القتلُ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال في قاتل المؤمن مثل ذلك، فمن لعنته في الدنيا القتلُ، قال الله تعالى ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتِلُوا قَتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]، وقال في المحاربين وذكر عقوبتهم ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد يقع القتل بمعنى اللّعن، قال ﴿قِيلَ الْخُرْصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]، و﴿قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَفَّ يُوْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] [المنافقون: ٤]، أي لعنهم الله.

ولأنه فرّق بين أذاهما وأذى المؤمنين، وفي أذى المؤمنين ما دون القتل من الضرب والتكال، فكان حكم مؤذي الله ونبيّه أشدّ من ذلك وهو القتل.

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فسلب اسم الإيمان عمن وجد في صدره حرجًا من قضائه ولم يسلم له، ومن تنقصه فقد ناقض هذا.

وقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، ولا يحبط العمل إلا الكفر، والكافر يقتل.

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ [المجادلة: ٨]، ثم قال ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئَئِسَ الْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، قال أهل التفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله ﷺ.

وأما الإجماع فقد ذكرناه.

وأما الآثار ففي الحديث الصحيح أمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف وقوله: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١١)، ووجه إليه من

(١١) صحيح البخاري (١٤٢/٣)، وصحيح مسلم (١٤٢٥/٣).

قتله غيلةً دون دعوةٍ بخلاف غيره من المشركين وعلل بأذاه له، فدل أن قتله إياه لغير الإشراف بل للأذى.

وكذلك قتلَ أبا رافع. قال البراء: وكان يؤذي رسول الله ﷺ ويُعين عليه^(١٢).

وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خَطَلٍ وجاريتيه اللتين كانتا تغنيان بسبّه ﷺ^(١٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أعمى كانت له أمٌ ولدٍ تسبُّ النبي ﷺ فيزجرها فلا تنزجر، فلما كانت ذات ليلةٍ جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فقتلها وأعلم النبي ﷺ بذلك، فأهدر دمها^(١٤).

وفي حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت يوماً جالساً عند أبي بكر الصديق، فغضب على رجلٍ من المسلمين - وحكى القاضي إسماعيل وغير واحد من الأئمة في هذا الحديث أنه سبَّ أبا بكر، ورواه النسائي: أتيت أبا بكر وقد أغلظ لرجل -، فرد عليه. قال: فقلت: يا خليفة رسول الله، دعني أضرب عنقه فقال: اجلس فليس ذلك لأحد إلا رسول الله ﷺ^(١٥).

(١٢) صحيح البخاري (٩١/٥).

(١٣) صحيح البخاري (١٧/٣)، وصحيح مسلم (٩٨٩/٢).

(١٤) أخرجه أبو داود (١٢٩/٤)، والدارقطني في السنن (١٦٦/٤)، والحاكم في المستدرک (٣٩٤/٤)، وصححه ووافقه الذهبي.

(١٥) أخرجه أبو داود (١٢٩/٤) والنسائي (١٠٨/٧) وأحمد (٢٢٢/١) وغيرهم بإسناد صحيح.

قال القاضي أبو محمد ابن نصر: ولم يخالف عليه أحد، فاستدل الأئمة بهذا الحديث على قتل مَنْ أغضب النبي ﷺ بكل ما أغضبه أو آذاه أو سبه. ومن ذلك كتابُ عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة وقد استشاره في قتل رجلٍ سبَّ عمر رضي الله عنه، فكتب إليه عمر: إنه لا يحلُّ قتل امرئٍ مسلم بسبِّ أحدٍ من الناس إلا رجلاً سبَّ رسول الله ﷺ، فمن سبه فقد حلَّ دمه (١٦).

ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار أن مَنْ سبه أو تنقصه ﷺ فقد ظهرت علامة مَرَضِ قلبه، وبرهانُ سِرِّ طَوَيْتِهِ وكُفْرِهِ، ولهذا حكم عليه كثيرٌ من العلماء بالردَّة، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي وقول الثوري وأبي حنيفة والكوفيين، والقول الآخر أنه دليلٌ على الكفر، فيقتل حداً وإن لم يحكم له بالكفر، إلا أن يكون متمادياً على قوله غير مُنكِرٍ له ولا مُقْلِعٍ عنه فهذا كافر.

وقوله إما صريحٌ كفرٍ كالتكذيب ونحوه، أو من كلمات الاستهزاء والذم؛ فاعترافه بها وترك توبته عنها دليل استحلاله لذلك، وهو كفر أيضاً، فهذا كافر بلا خلاف.

قال الله تعالى في مثله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، قال أهل التفسير: هي قولهم: إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شرٌّ من الحمير، وقيل: بل قول بعضهم: ما مثلنا ومثل

(١٦) السنن الكبرى للبيهقي (٣١٩/٨).

محمد إلا قول القائل سمن كلبك يأكلك وقولهم: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، وقد قيل: إن قائل مثل هذا إن كان مستتراً به أن حكمه حكم الزنديق يُقتل، ولأنه قد غير دينه، وقد قال ﷺ: «من غير دينه فاضربوا عنقه»^(١٧)، ولأن لحكم النبي ﷺ في الحرمة مزية على أمته، وساب الحر من أمته يحد، فكانت العقوبة لمن سبه ﷺ القتل لعظيم قدره وشُفوف منزلته على غيره.

فصل في أسباب عدم قتل النبي ﷺ لبعض من سبه أو تنقصه

فإن قلت: فلم لم يقتل النبي ﷺ اليهودي الذي قال له: السام عليكم، وهذا دعاء عليه، ولا قتل الآخر الذي قال له: إن هذه لقسمه ما أريد بها وجه الله، وقد تأذى النبي ﷺ من ذلك، وقال: قد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر، ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه في أكثر الأحيان؟

فاعلم وفقنا الله وإياك أن النبي ﷺ كان أول الإسلام يستألف عليه الناس ويميل قلوبهم ويحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويدارئهم ويقول لأصحابه: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ ميسرين ولم تُبْعَثُوا منفرين»^(١٨)، ويقول: «يسرّوا ولا تعسّروا وسكنوا ولا تنفروا»^(١٩)، ويقول: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(٢٠).

(١٧) صحيح البخاري (٦١/٤)، بلفظ: «من بدل دينه فاقتلوه».

(١٨) صحيح البخاري (٥٤/١).

(١٩) صحيح البخاري (٢٥/١)، وصحيح مسلم (١٣٥٨/٣).

(٢٠) المصدران السابقان (١٥٤/٦)، (١٩٩٨/٤).

وكان ﷺ يُداري الكفارَ والمنافقين ويُجملُ صحبتهم ويُغضي عنهم ويحتمل من أذاهم ويصبر على جفائهم ما لا يجوز لنا اليوم الصبر لهم عليه، وكان يُرفقهم بالعطاء والإحسان، وبذلك أمره الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وذلك لحاجة الناس للتألف أول الإسلام وجمع الكلمة عليه.

فلما استقر وأظهره الله على الدين كله قتل من قدر عليه واشتهر أمره، كفعله بابن خطل ومن عهد بقتله يوم الفتح ومن أمكنه قتله غيلة من يهود وغيرهم أو غلبة من لم ينظمه قبل سلك صحبتته والانخراط في جملة مظهري الإيمان به ممن كان يؤذيه كابن الأشرف وأبي رافع والنضر وعقبة.

وكذلك نذر دم جماعة سواهم ككعب بن زهير وابن الزبير وغيرهما ممن آذاه حتى ألقوا بأيديهم ولقوه مسلمين.

وبواطن المنافقين مُستترّة، وحكمه ﷺ على الظاهر، وأكثر تلك الكلمات إنما كان يقولها القائل منهم خفية ومع أمثاله، ويحلفون عليها إذا نُميت ويُنكرونها، ويحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر، وكان مع هذا يطمع في فيأتهم ورجوعهم إلى الإسلام وتوبتهم، فيصبر ﷺ على هزاتهم وجفوتهم كما صبر أولو العزم من الرسل، حتى فاء كثير منهم باطنًا كما فاء ظاهراً،

وأخلص سرًّا كما أظهر جهراً، ونفع الله بعدُ بكثيرٍ منهم، وقام منهم للدين وزراءٌ وأعوانٌ وحُماةٌ وأنصارٌ كما جاءت به الأخبار.

وبهذا أجاب بعضُ أئمتنا رحمهم الله عن هذا السؤال، قال: ولعله لم يثبت عنده عليه السلام من أقوالهم ما رُفِعَ، وإمّا نقله الواحدُ ومن لم يصلِ رتبةَ الشهادة في هذا البابِ من صبيٍّ أو عبدٍ أو امرأةٍ، والدماءُ لا تُستباح إلا بعدلين، وعلى هذا يحمل أمر اليهوديِّ في السلام وأنهم لوَّوا به ألسنتهم ولم يبيِّنوه، ألا ترى كيف نبَّهت عليه عائشةُ رضي الله عنها، ولو كان صرَّح بذلك لم تنفرد بعلمه.

ولهذا نبَّه النبيُّ عليه السلام أصحابه على فعلهم، وقلة صدقهم في فعلهم، وقلة صدقهم في سلامهم، وخيانتهم في ذلك، لئلاَّ بألسنتهم وطعنًا في الدين، فقال عليه السلام: «إنَّ اليهود إذا سلَّم أحدهم فإمَّا يقول: السَّام عليكم فقولوا: عليكم» (٢١). وكذلك قال بعض أصحابنا البغداديين: إنَّ النبيَّ عليه السلام لم يقتل المنافقين بعلمه فيهم ولم يأت أنه قامت بينة على نفاقهم، فلذلك تركهم.

وأيضاً فإنَّ الأمر كان سرًّا وباطناً وظاهرهم الإسلام والإيمان، وإن كان من أهل الذمَّة بالعهد والجوار، والناس قريب عهدهم بالإسلام لم يتميِّز بعدُ الخبيث من الطيب.

وقد شاع عن المذكورين في العرب كونُ مَنْ يُتَّهم بالنِّفاق من جملة المؤمنين وصحابة سيِّد المرسلين وأنصار الدين بحكم ظاهرهم، فلو قتلهم

(٢١) صحيح البخاري (٥٧/٨)، وصحيح مسلم (١٧٠٥/٤)، بلفظ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: عليكم».

النَّبِيِّ ﷺ لِنِفَاقِهِمْ وَمَا يَبْدُرُ مِنْهُمْ وَعِلْمِهِ بِمَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ جَدَّ الْمُنْفِرُ مَا يَقُولُ وَلَا رَتَابَ الشَّارِدِ وَأَرْجَفَ الْمُعَانِدِ، وَارْتَاعَ مِنْ صَحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالِدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَلَزَعَمَ الزَّاعِمُ وَظَنَّ الْعَدُوَّ الظَّالِمُ أَنَّ الْقَتْلَ إِنَّمَا كَانَ لِلْعِدَاوَةِ، وَطَلَبَ أَخْذَ التَّرَةِ.

وقد رأيتُ معنى ما حررته منسوباً إلى مالك بن أنس، ولهذا قال ﷺ: «لا يتحدثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، وقال: «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم» (٢٢).

وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حدود الزنا والقتل وشبهه لظهورها واستواء الناس في علمها، وقد قال محمد بن المَوَاز: لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النبي ﷺ، وقاله القاضي أبو الحسن ابن القصار.

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنْهَ الْأَمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتَلُوا نَفْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦١]، قال: معناه إذا أظهروا النفاق (٢٣).

وقال بعض مشايخنا: لعلَّ القائل: «هذه قسمة ما أريد بها وجه الله» وقوله «اعدل» لم يفهم النبي ﷺ منه الطعن عليه والتهمة له وإنما رآها من وجه

(٢٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٢٣٩ ط. الأعظمي)، والشافعي في مسنده (ص ٣٢٠)، وأحمد (٧٣/٣٩)، وغيرهم وإسناده صحيح.

(٢٣) تفسير الطبري (٢٠/٣٢٨).

الغلط في الرأى وأمور الدنيا والاجتهاد في مصالح أهلها، فلم ير ذلك سباً ورأى أنه من الأذى الذي له العفو عنه والصبر عليه، فلذلك لم يعاقبه.

وكذلك يقال في اليهود إذ قالوا: السام عليكم ليس فيه صريح سب ولا دعاء إلا بما لا بد منه من الموت الذي لا بد من لحاقه جميع البشر.

وقيل: بل المراد تسأمون دينكم، والسام والسامة الملال، وهذا دعاء على سامة الدين ليس بصريح سب، ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث «باب إذا عرّض الذمّي أو غيره بسب النبي ﷺ» (٢٤).

قال بعض علمائنا: وليس هذا بتعريض بالسب وإنما هو تعريض بالأذى.

وقد قدّمنا أن الأذى والسب في حقه ﷺ سواء، وقال القاضي أبو محمد ابن نصر مجيباً عن هذا الحديث ببعض ما تقدم، ثم قال: ولم يُذكر في الحديث هل كان هذا اليهودي من أهل العهد والذمة أو الحرب ولا يُترك موجب الأدلة للأمر المحتمل، والأولى في ذلك كله والأظهر من هذه الوجوه مقصد الاستتلاف والمداراة على الدين لعلهم يؤمنون، ولذلك ترجم البخاري على حديث القسمة والخوارج «باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه» (٢٥)، ولما ذكرنا معناه عن مالك وقرنناه قبل، وقد صبر لهم ﷺ على سحره وسُمّه، وهو أعظم من سبه إلى أن نصره الله عليهم وأذن له في قتل من عينه منهم وإنزالهم من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب،

(٢٤) صحيح البخاري (١٥/٩).

(٢٥) المصدر السابق (١٧/٩).

وكتب على مَنْ شاء منهم الجلاء وأخرجهم من ديارهم وخرَّب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وحكَّم فيهم سيوفَ المسلمين وأجلاهم من جوارهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم لتكونَ كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى (٢٦).

فإن قلت: فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ «ما انتقم لنفسه في شيءٍ يُؤتَى إليه قطُّ إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله»، فاعلم أن هذا لا يقتضي أنه لم ينتقم ممن سبَّه أو آذاه أو كذَّبه، فإن هذه من حُرُماتِ الله التي انتقم لها، وإنما يكون ما لا ينتقم له فيما تعلق بسوء أدبٍ أو معاملةٍ من القول والفعل بالنفس والمال بما لم يقصد فاعله به آذاه، لكن بما جُبلت عليه الأعراب من الجفاء والجهل أو جُبل عليه البشر من السفه، كجذب الأعرابي رداءه حتى أثر في عنقه، وكرفع صوت الآخر عنده، وكجحد الأعرابي شراءه منه فرسه التي شهد فيها خزيمة رضي الله عنه، وكما كان من تظاهر زوجته عليه وأشباه هذا مما يحسن الصفح عنه.

وقد قال بعض علمائنا: إن أذى النبي ﷺ حرامٌ لا يجوز بفعلٍ مباحٍ ولا غيره، وأما غيره فيجوز بفعلٍ مباحٍ مما يجوز للإنسان فعله وإن تأذى به غيره، واحتج بعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وبقوله ﷺ في حديث فاطمة رضي الله عنها: «إنها

(٢٦) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٦٧/٥)، والحاكم في المستدرک (٣٧/٣)، والبيهقي في الدلائل (٩/٤)، وغيرهم.

بضعةً منِّي يؤذيني ما يؤذيها، ألا وإنِّي لا أحرم ما أحلَّ اللهُ، ولكن لا تجتمع ابنةُ رسولِ اللهِ وابنةُ عدوِّ اللهِ عند رجلٍ أبدًا»^(٢٧).

أو يكون هذا مما آذاه به كافرٌ رجلاً ﷺ بعد ذلك إسلامه كعفوه عن اليهودي الذي سحره وعن الأعرابي الذي أراد قتله، وعن اليهودية التي سمَّته، وقد قيل: قتلها، ومثل هذا مما يبلغه من أذى أهل الكتاب والمنافقين فصفح عنهم رجاء استئلافهم واستئلاف غيرهم كما قررناه قبل، وبالله التوفيق.

فصل

تقدم الكلام في قتل القاصد لسببه والإضرار به وغمصه بأي وجه كان من ممكن أو محال، فهذا وجه بين لا إشكال فيه

والوجه الثاني لاحقٌ به في البيان والجلء، وهو أن يكون القائل لما قال في جهته ﷺ غير قاصدٍ للسبِّ والإضرار ولا معتقدٍ له، ولكنه تكلم في جهته ﷺ بكلمة الكفر من لعنه، أو سبه، أو تكذيبه، أو إضافة ما لا يجوز عليه، أو نفي ما يجب له مما هو في حقه ﷺ نقيصة، مثل أن ينسب إليه إتيان كبيرة، أو مدهانة في تبليغ الرسالة، أو في حكم بين الناس، أو يغض من مرتبته، أو شرفٍ نسبه، أو وفور علمه، أو زهده، أو يكذب بما اشتهر من أمورٍ أخبر بها ﷺ وتواتر الخبر بها عن قصدٍ لردِّ خبره، أو يأتي بسفه من القول أو قبيح من الكلام ونوع من السبِّ في جهته، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يعتمد ذمه ولم

(٢٧) صحيح البخاري (٢٢/٥)، وصحيح مسلم (٤/١٩٠٢).

يقصد سبّه، إمّا لجهالة حملته على ما قاله، أو لضجّر أو سُكرٍ اضطرّه إليه، أو قلة مراقبة وضبط اللسان، وعجرفة وتهوّر في كلامه، فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول القتل دون تلّعثهم، إذ لا يُعذر أحدٌ في الكفر بالجهالة، ولا بدعوى زلل اللسان، ولا بشيءٍ ممّا ذكرناه إذا كان عقله في فطرته سليماً، إلّا من أكرهه وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

وبهذا أفتى الأندلسيون على ابن حاتم في نفيه الزّهد عن رسول الله ﷺ الذي قدّمناه.

وعن أبي محمد ابن أبي زيد: لا يعذر بدعوى زلل اللسان في مثل هذا^(٢٨). وأفتى أبو الحسن القابسي فيمن شتم النبي ﷺ في سُكره يقتل؛ لأنّه يُظنُّ به أنّه يعتقد هذا ويفعله في صحّوه، وأيضاً فإنّه حدٌّ لا يسقطه السُّكر كالقذف والقتل وسائر الحدود، لأنّه أدخله على نفسه؛ لأنّ من شرب الخمر على علم من زوال عقله بها وإتيان ما يُنكر منه فهو كالعامد لما يكون بسببه، وعلى هذا ألزمناه الطلاق والعتاق والقصاص والحدود، ولا يعترض على هذا بحديث حمزة رضي الله عنه وقوله للنبي ﷺ: «وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبي، قال: فعرف النبي ﷺ أنّه ثملٌ فانصرف»^(٢٩)، لأنّ الخمر كانت حينئذ غير محرّمة.

(٢٨) انظر: النوادر والزيادات لابن أبي زيد (١٤/٥٢٥-٥٢٨).

(٢٩) صحيح البخاري (٣/١١٤)، وصحيح مسلم (٣/١٥٦٨).

الوجه الثالث أن يقصد إلى تكذيبه فيما قاله أو أتى به أو ينفي نبوته أو رسالته - انتقل بقوله ذلك إلى دينٍ آخر غير ملته أم لا - فهذا كافرٌ بإجماعٍ يجب قتله.

ثم ينظر: فإن كان مصرحاً بذلك كان حكمه أشبه بحكم المرتد وقوي الخلاف في استتابته، وعلى القول الآخر: لا تُسقط القتل عنه توبته لحق النبي ﷺ إن كان ذكره بنقيصة فيما قاله من كذب أو غيره. وإن كان متسراً بذلك فحكمه حكم الزنديق لا تُسقط قتله التوبة عندنا كما سنبينه.

قال أبو حنيفة وأصحابه: من برئ من محمد ﷺ أو كذب به فهو مرتد حلال الدم إلا أن يرجع (٣٠).

وقال ابن القاسم في المسلم إذا قال: «إن محمداً ليس بنبي أو لم يرسل أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيء تقوله»: يقتل، وقال: ومن كفر برسول الله ﷺ وأنكره من المسلمين فهو بمنزلة المرتد، وكذلك من أعلن بتكذيبه أنه كالمرتد يستتاب، وكذلك قال فيمن تنبأ وزعم أنه يوحى إليه، وقاله سحنون. وقال ابن القاسم: دعا إلى ذلك أو جهر.

وقال أشهب في يهودي تنبأ أو زعم أنه أرسل إلى الناس أو قال: بعد نبيكم نبي أنه يستتاب إن كان معلناً بذلك، فإن تاب وإلا قتل، وذلك لأنه مكذب

(٣٠) البحر الرائق (١٣٥/٥)، الدر المختار (٢٣٢/٤).

للنَّبِيِّ ﷺ في قوله: «لا نبِيَّ بعدي»، مُفْتَرٍ على الله في دعواه عليه الرسالة والنبوة^(٣١).

وقال محمد بن سحنون: مَنْ شكَّ في حرفٍ مما جاء به محمد ﷺ عن الله فهو كافرٌ جاحدٌ، وقال: مَنْ كَذَبَ النَّبِيَّ ﷺ كان حكمه عند الأمة القتل.

قال حبيب بن ربيع: تبديلُ صفته ﷺ ومواضعه كفرٌ، والمظهر له كافرٌ، وفيه الاستتابة والمسرُّ له زنديقٌ يُقتلُ دون استتابة.

الوجه الرابع أن لا يقصد نقصاً ولا يذكر عيباً ولا سباً، لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه أو يستشهد ببعض أحواله ﷺ الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل والحجة لنفسه أو لغيره أو على التشبه به أو عند هزيمة نالته أو غضاضة لحقته ليس على طريق التأسّي وطريق التحقيق، بل على مقصد الترفيع لنفسه أو لغيره أو على سبيل التمثيل وعدم التوقير لنبية ﷺ، أو قصد الهزل والتندير بقوله، كقول القائل: إن قيل في السوء فقد قيل في النبِيّ، أو إن كُذِّبْتُ فقد كُذِّبَ الأنبياء، أو إن أذنبْتُ فقد أذنبوا، أو أنا أسلمُ مِنْ ألسنة النَّاسِ ولم يَسَلَمْ منهم أنبياءُ الله ورسله؟ أو قد صبرتُ كما صبر أولو العزم، أو كصبر أيوب، أو قد صبر نبِيّ الله عن عداه وحلم على أكثر مما صبرتُ، وكقول المتنبي:

أنا في أمة تداركها الله غريبٌ كصالحٍ في ثمود^(٣٢)

(٣١) النوادر والزيادات لابن أبي زيد (٥٣٢/١٤).

(٣٢) البيت من الخفيف، من قصيدة قالها في صباه، مطلعها:

كم قتيلٍ كما قتلت شهيدٍ ببياض الطلى وورد الحدود

ونحوه من أشعار المتعجرفين في القول، المتساهلين في الكلام.

وجاءت فتياً إمام مذهبنا مالك بن أنس وأصحابه في النوادر من رواية ابن أبي مريم في رجل عير رجلاً بالفقر، فقال: تُعيرني بالفقر، وقد رعى النبي ﷺ الغنم، فقال مالك: قد عرض بذكر النبي ﷺ في غير موضعه أرى أن يؤدب، قال: ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا عوتبوا أن يقولوا: قد أخطأت الأنبياء قبلنا (٣٣).

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: انظر لنا كاتباً يكون أبوه عربياً، فقال كاتب له: قد كان أبو النبي كافرًا. فقال: جعلت هذا مثلاً؟! فعزله وقال: لا تكتب لي أبداً (٣٤).

وقد كره سحنون أن يصلى على النبي ﷺ عند التعجب إلا على طريق الثواب والاحتساب، توقيراً له وتعظيماً كما أمرنا الله (٣٥).

وقال أبو الحسن القاسبي في شاب معروف بالخير قال لرجل شيئاً فقال له الرجل: اسكت فإنك أمي فقال الشاب: أليس كان النبي ﷺ أمياً؟ فشنع عليه مقاله وكفره الناس وأشفق الشَّابُّ بما قال وأظهر الندم عليه، فقال أبو الحسن: أما إطلاق الكفر عليه فخطأ، لكنه مُخْطِئٌ في استشهاده بصفة النبي ﷺ، وكون النبي أمياً آية له وكون هذا أمياً نقيصة فيه وجهالة، ومن

ديوان المنتبي (ص ١٦)، تحقيق: عبد الوهاب عزام، مجلة الذخائر، المجلد الأول.

(٣٣) النوادر والزيادات (٥٢٩/١٤).

(٣٤) المصدر السابق (٥٢٩/١٤)، البيان والتحصيل لابن رشد القرطبي (٣٩٨/١٦).

(٣٥) النوادر والزيادات (٥٣٠/١٤).

جهالتِه احتجَّاهُ بصفة النَّبيِّ ﷺ، لكنه إذا استغفر وتاب واعترف ولجأ إلى الله فيترك، لأنَّ قوله لا ينتهي إلى حدِّ القتل، وما طريقُه الأدبُ فَطَوَّعُ فاعله بالندم عليه يُوجب الكفَّ عنه.

ونزلت أيضاً مسألة استفتى فيها بعضُ قضاةِ الأندلسِ شيخنا القاضي أبا محمَّد ابن منصور في رجلٍ تنقَّصه آخرُ بشيءٍ، فقال له: إنما تريد نقصي بقولك، وأنا بشرٌ وجميعُ البشرِ يلحقهم النقص حتى النَّبيِّ ﷺ، فأفتاه بإطالةِ سَجِنِه وإيجاعِ أدبه إذ لم يقصد السبَّ، وكان بعضُ فقهاءِ الأندلسِ أفتى بقتله.

الوجه الخامس أن يقول القائل ذلك حاكياً عن غيره وأثرًا له عن سواه، فهذا يُنظر في صورةِ حكايته وقرينةِ مقالته، ويختلف الحكمُ باختلاف ذلك على أربعةٍ وجوهٍ: الوجوب، والتدب، والكرهية، والتَّحريم.

فإن كان أخبر به على وجه الشَّهادة والتَّعريف بقائله والإنكار والإعلام بقوله والتَّنفيير منه والتَّجريح له، فهذا ممَّا ينبغي امتثاله ويحمد فاعله، وكذلك إن حكاه في كتابٍ أو في مجلسٍ على طريق الردِّ له والنقص على قائله والفتيا بما يلزمه.

وهذا منه ما يجب، ومنه ما يستحب بحسب حالات الحاكي لذلك والمحكي عنه، فإن كان القائلُ لذلك ممَّن تصدَّى لأنَّ يُؤخَذَ عنه العلمُ أو روايةُ الحديث أو يُقَطَّع بحكمه أو شهادته أو فتياه في الحقوقِ وجب على سامعه الإشادةُ بما سمع منه والتَّنفيير للنَّاس عنه والشَّهادةُ عليه بما قاله،

ووجب على مَنْ بلغه ذلك مِنْ أئمة المسلمين إنكاره وبيان كفره وفساد قوله بقطع ضرره عن المسلمين وقيامًا بحق سيّد المرسلين ﷺ.

وكذلك إن كان مَنْ يَعِظُ العامّة أو يُؤدّب الصّبيان فإنّ مَنْ هذه سريرته لا يُؤمّن على إلقاء ذلك في قلوبهم فيتأكّد في هؤلاء الإيجاب لحقّ النبي ﷺ ولحقّ شريعته.

وإن لم يكن القائل بهذه السبيل فالقيام بحقّ النبي ﷺ واجبٌ وحمايةٌ عَرَضِهِ متعيّنٌ ونصرته على الأذى حيّاً وميتاً مستحقٌّ على كلِّ مؤمن، لكنه إذا قام بهذا مَنْ ظهر به الحقُّ وفصلت به القضية وبان به الأمر سقط عن الباقي الفرض، وبقي الاستحبابُ في تكثيرِ الشّهادة عليه وعضد التّحذير منه، وقد أجمع السّلف على بيان حال المتّهم في الحديث فكيف بمثل هذا؟ وقد سئل أبو محمّد ابن أبي زيد عن الشّاهد يسمع مثل هذا في حقّ الله تعالى: أيسّعه أن لا يؤدّي شهادته؟ قال: إن رجا نفاذ الحكم بشهادته فليشهد، وكذلك إن علم أنّ الحاكم لا يرى القتل بما شهد به ويرى الاستتابة والأدب فليشهد ويلزمه ذلك.

وأما الإباحة لحكاية قوله لغير هذين المقصدين فلا أرى لها مدخلاً في هذا الباب، فليس التفكّه بعرض رسول الله ﷺ والتمضمضُ بسوء ذكره لأحدٍ لا ذاكرًا ولا أثرًا لغير عَرَضٍ شرعيٍّ بمباح. وأما للأغراض المتقدمة فمتردّد بين الإيجاب والاستحباب.

وقد حكى الله تعالى مقالاتِ المفتريين عليه وعلى رُسُلِهِ في كتابه على وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من كفرهم، والوعيد عليه والرد عليهم بما تلاه الله علينا في محكم كتابه، وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث النبي ﷺ الصحيحة على الوجوه المتقدمة، وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم لبيئتها للناس وينقضوا شُبَهَها عليهم.

فأما ذكرها على غير هذا من حكاية سبِّه والإزراءِ بمنصبه على وجه الحكايات والأسمار والطَّرَفِ وأحاديثِ النَّاسِ ومقالاتهم في الغثِّ والسمينِ ومضاحكِ المُجَّانِ ونوادِرِ السُّخْفَاءِ والخَوْضِ في قِيلَ وقال وما لا يعني فكلُّ هذا ممنوعٌ، وبعضه أشدُّ في المنع والعقوبة من بعض.

فما كان من قائله الحاكي له على غير قصدٍ أو معرفة بمقدار ما حكاه أو لم تكن عادته أو لم يكن الكلام من البشاعة حيث هو ولم يظهر على حاكبه استحسانه واستصوابه زجر عن ذلك ونهيه عن العودة إليه، وإن قوم ببعض الأدب فهو مستوجب له، وإن كان لفظه من البشاعة حيث هو كان الأدب أشدَّ.

وقد حكى أن رجلاً سأل مالكا عمَّن يقول: القرآن مخلوق فقال مالك: كافر فاقتلوه، فقال: إنما حكيتُه عن غيري، فقال مالك: إنما سمعناه منك. وهذا من مالك على طريق الزجر والتغليظ بدليل أنه لم ينفذ قتله^(٣٦).

(٣٦) شرح أصول الاعتقاد (٢/٢٧٥).

وإن اتهم هذا الحاكي فيما حكاه أنه اختلقه ونسبه إلى غيره أو كانت تلك عادةً له أو ظهر استحسانه لذلك أو كان مولعاً بمثله والاستخفاف له أو التحفظ لمثله وطلبه ورواية أشعار هجوه ﷺ وسبه فحكم هذا حكم الساب نفسه، يُؤاخذُ بقوله ولا تنفعه نسبتُه إلى غيره، فَيُبادرُ بقتله ويُعجلُ إلى الهاوية أمه.

ورحم الله أسلافنا المتقين المتحرزين لدينهم، فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسير ما كان هذا سبيله، وتركوا روايته إلا أشياء ذكروها يسيرةً وغير مُستبشعةً على نحو الوجه الأول ليُروا نعمة الله من قائلها وأخذ المفتري عليه بذنبه.

وهذا أبو عبيد القاسم بن سلام قد تحرى فيما اضطرَّ إلى الاستشهاد به من أهاجي أشعار العرب في كتبه، فكنى عن اسم المهجور بوزن اسمه استبراءً لدينه وتحفظاً من المشاركة في ذم أحد بروايته أو نشره، فكيف بما يتطرق إلى عرض سيد البشر ﷺ.

الوجه السادس أن يذكر ما يجوز على النبي ﷺ أو يختلف في جوازه عليه وما يطرأ من الأمور البشرية به ويمكن إضافتها إليه، أو يذكر ما امتحن به وصبر في ذات الله على شدته من مقاساة أعدائه وأذاهم له ومعرفة ابتداء حاله وسيرته وما لقيه من بؤس زمنه ومر عليه من معاناة عيشته، كل ذلك على طريق الرواية ومذاكرة العلم، ومعرفة ما صحَّت منه العصمة للأنبياء وما

يجوز عليهم، فهذا فنٌ خارجٌ عن هذه الفنون الخمسة؛ إذ ليس فيه غمصٌ ولا نقصٌ ولا إزراءٌ ولا استخفافٌ لا في ظاهر اللفظ ولا في مقصد الالفاظ.

فقد قال ﷺ مُخبراً عن نفسه باستتجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله وقال: «ما من نبيٍّ إلا وقد رعى الغنم»^(٣٧)، وأخبرنا الله تعالى بذلك عن موسى عليه السلام، وهذا لا غضاضة فيه جملةً واحدةً لمن ذكره على وجهه بخلاف مَنْ قَصَدَ به الغضاضة والتحقير، بل كانت عادةً جميع العرب، نعم في ذلك للأنبياءِ حكمةٌ بالغةٌ وتدریجٌ لله تعالى لهم إلى كرامته وتدريبٌ برعايتها لسياسةٍ أمهم من خليفته بما سبق لهم من الكرامة في الأزل ومتقدم العلم.

وكذلك قد ذكر الله يُتَمِّمَهُ وعيلته على طريق المنة عليه والتعريف بكرامته له، فذكر الذاکر لها على وجه تعريف حاله والخبر عن مبتدئه والتعجب من منَحِ الله قِبَلَهُ وعظيم منته عنده ليس فيه غضاضة، بل فيه دلالةٌ على نبوته وصحة دعوته، إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب، ومن ناوأه من أشرافهم شيئاً فشيئاً ونمى أمره، حتى قهرهم وتمكن من ملك مقاليدهم واستباحة ممالك كثيرٍ من الأمم غيرهم بإظهار الله تعالى له، وتأييده بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم، وإمداده بالملائكة المسومين، ولو كان ابن مَلِكٍ أو ذا أشياخ متقدمين لحسب كثيرٌ من الجهال أن ذلك مُوجِبٌ ظهوره ومقتضى علوه.

(٣٧) صحيح البخاري (٨٨/٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحيح مسلم (١٦٢١/٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

ولهذا قال هِرْقُلُ حين سأل أبا سفيان رضي الله عنه عنه: هل في أبائه من مَلِكٍ؟ ثم قال: ولو كان في أبائه ملكٌ لقلنا: رجلٌ يطلب مُلْكَ أبيه ^(٣٨).

ووجودٌ مثل ذلك من رجلٍ لم يقرأ ولم يكتب ولم يُدارس ولا لقن مُقتضى العجبِ ومنتهى العبرِ ومعجزة البشر، وليس في ذلك نقيصةٌ؛ إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنما هي آلة لها وواسطةٌ موصلةٌ إليها غيرُ مرادةٍ في نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوبُ استغنيَ عن الوساطة والسبب.

كلُّ هذا من فضائله ومآثره وشرفه كما ذكرناه، فمن أورد شيئاً منها مؤردَه وقصد بها مقصده كان حسناً، ومن أورد ذلك على غير وجهه وعلم منه بذلك سوء قصدِه لحق بالفصول التي قدّمنا.

وكذلك ما ورد من أخباره وأخبار سائر الأنبياء عليهم السلام في الأحاديث ممّا في ظاهره إشكالٌ يقتضي أموراً لا تليقُ بهم بحالٍ وتحتاج إلى تأويلٍ وتردّد احتمال، فلا يجب أن يتحدّث منها إلا بالصحيح، ولا يروى منها إلا المعلوم الثابت.

ورحم الله مالكا، فلقد كره التحدّث بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى، وقال: ما يدعو الناس إلى التحدّث بمثل هذا؟ فقيل

(٣٨) صحيح البخاري (٨/١)، وصحيح مسلم (٣/١٣٩٣).

له: إن ابن عجلان يحدث بها، فقال: لم يكن من الفقهاء، وليت الناس وافقوه على ترك الحديث بها وساعده على طيها، فأكثرها ليس تحته عمل^(٣٩).

وقد حكي عن جماعة من السلف بل عنهم على الجملة أنهم كانوا يكرهون الكلام فيما ليس تحته عمل، والنبي ﷺ أوردها على قوم عرب يفهمون كلام العرب على وجهه وتصرفاتهم في حقيقته ومجازه واستعارته وبلغه وإيجازه، فلم تكن في حقهم مشكلة.

ثم جاء من غلبت عليه العجمة وداخلته الأمية، فلا يكاد يفهم من مقاصد العرب إلا نصها وصريحها، ولا يتحقق إشاراتها إلى غرض الإيجاز ووحيتها وتبليغها وتلويحها، فتفرقوا في تأويلها أو حملها على ظاهرها شذراً مذكراً، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر.

فأما ما لا يصح من هذه الأحاديث فواجب أن لا يذكر منها شيء في حق الله ولا في حق أنبيائه ولا يتحدث بها ولا يتكلف الكلام على معانيها، والصواب طرحها وترك الشغل بها إلا أن تذكر على وجه التعريف بأنها ضعيفة المقاد واهية الإسناد.

فصل فيما يجب على المتكلم عند ذكر أحواله ﷺ المختلفة

ومما يجب على المتكلم فيما يجوز على النبي ﷺ وما لا يجوز، والذاكر من حالاته ما قدمناه على طريق المذاكرة والتعليم أن يلتزم في كلامه عند ذكره

(٣٩) انظر: سير أعلام النبلاء (١٠٤/٨).

ﷺ وذكر تلك الأحوال الواجب من توقيره وتعظيمه، ويُراقب حال لسانه ولا يُهمله، وتظهر عليه علامات الأدب عند ذكره.

فإذا ذكر ما قاساه من الشدائد ظهر عليه الإشفاق والارتماض والغيط على عدوه ومودة الفداء للنبي ﷺ لو قدر عليه والنصرة لو أمكنته.

وإذا أخذ في أبواب العصمة وتكلم على مجاري أعماله وأقواله ﷺ تحرى أحسن اللفظ وأدب العبارة ما أمكنه، واجتنب بشيع ذلك وهجر من العبارة ما يقبح.

وإذا كان مثل هذا بين الناس مستعملاً في آدابهم وحسن معاشرتهم وخطابهم فاستعماله في حقه ﷺ أوجب والتزامه أكد، فجودة العبارة تقبح الشيء أو تحسنه، وتحريرها وتهذيبها يعظم الأمر أو يهونه. ولهذا قال ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا»^(٤٠).

فأما ما أورده على جهة النفي عنه والتنزيه فلا حرج في تسريح العبارة وتصريحها فيه، كقوله: لا يجوز عليه الكذب جملة، ولا إتيان الكبائر بوجه، ولا الجور في الحكم على حال، ولكن مع هذا يجب ظهور توقيره وتعظيمه وتعزيزه عند ذكره مجرداً، فكيف عند ذكر مثل هذا!.

(٤٠) صحيح البخاري (١٩/٧).

فصل في حكم سابه ﷺ وشأنه ومنتقصه ومؤذيه وعقوبته وذكر استتابته ووراثته

قد قدّمنا ما هو سبٌّ وأذى في حقّه ﷺ، وذكرنا إجماع العلماء على قتلِ فاعل ذلك وقائله، وتخيير الإمام في قتله أو صلبه على ما ذكرناه، وقرّنا الحجج عليه.

وبعد، فاعلم أنّ مشهور مذهب مالك وأصحابه وقول السلف وجمهور العلماء قتله حدًّا لا كُفْرًا إن أظهر التوبة منه^(٤١)، ولهذا لا تُقبلُ عندهم توبته ولا تنفعه استقالته ولا فيأته كما قدّمناه قبلُ، وحكمه حكم الزنديق ومُسرِّ الكفر في هذا القول، وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه والشهادة على قوله، أو جاء تائبًا من قبل نفسه، لأنّه حدٌّ وجب لا تُسقطه التوبة كسائر الحدود.

قال أبو الحسن القاسبي: إذا أقرَّ بالسبِّ وتاب منه وأظهر التوبة قُتِلَ بالسبِّ لأنّه هو حدّه. وقال أبو محمّد ابن أبي زيد مثله^(٤٢). وأمّا ما بينه وبين الله فتوبته تنفعه.

وقال ابن سحنون: مَنْ شتم النبي ﷺ من الموحدّين ثمّ تاب عن ذلك لم تُزلْ توبته عنه القتل^(٤٣).

(٤١) انظر: البحر الرائق (١٣٥/٥)، الذخيرة للقرافي (٤٦٠/٣)، البيان (٢٨٨/١٢).

(٤٢) انظر: النوادر والزيادات (٥١٩/١٤).

(٤٣) النوادر والزيادات (٥٢٦/١٤).

وكذلك قد اختلف في الزنديق إذا جاء تائبًا، فحكى القاضي أبو الحسن ابن القصار في ذلك قولين، قال: من شيوخنا من قال: أقتله بإقراره لأنه كان يقدر على ستر نفسه، فلما اعترف خفنا أنه خشي الظهور عليه فبادر لذلك، ومنهم من قال: أقبل توبته لأنني أستدلُّ على صحتها بمجيئه، فكأننا وقفنا على باطنه بخلاف من أسرته البيئة^(٤٤).

ومسألة سب النبي ﷺ أقوى، لا يتصور فيها الخلاف على الأصل المتقدم؛ لأنه حق متعلق للنبي ﷺ ولأمته بسببه، لا تسقطه التوبة كسائر حقوق الأدميين.

والزنديق إذا تاب بعد القدرة عليه فعند مالك والليث وإسحاق وأحمد لا تُقبل توبته، وعند الشافعي تُقبل، واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف^(٤٥).

وقال أبو عمران الفاسي: من سب النبي ﷺ ثم ارتد عن الإسلام قُتل ولم يُستتب، لأن السب من حقوق الأدميين التي لا تسقط عن المرتد. هذا حكم من ثبت عليه ذلك بما يجب ثبوته من إقرار أو عدول لم يدفع فيهم.

(٤٤) النوادر والزيادات (٥١٩/١٤)، البيان والتحصيل (٤٤٤/١٦).

(٤٥) انظر: فتح باب العناية (١٢٩/٣)، النوادر والزيادات (٥١٨/١٤)، المجموع (٢٢٢/١٩)، المغني (٦/٩).

فصل

فَأَمَّا مَنْ لَمْ تَتَمَّ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ بِمَا شَهِدَ عَلَيْهِ الْوَاحِدُ أَوْ اللَّفِيفُ مِنَ النَّاسِ أَوْ ثَبِتَ قَوْلُهُ لَكِنْ اِحْتَمَلَ وَلَمْ يَكُنْ صَرِيحًا، وَكَذَلِكَ إِنْ تَابَ عَلَى الْقَوْلِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ، فَهَذَا يُدْرَأُ عَنْهُ الْقَتْلُ وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِ اجْتِهَادُ الْإِمَامِ بِقَدْرِ شُهْرَةِ حَالِهِ وَقُوَّةِ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِ وَضَعْفِهَا، وَكَثْرَةِ السَّمَاعِ عَنْهُ وَصُورَةِ حَالِهِ مِنَ التَّهْمَةِ فِي الدِّينِ وَالنَّبْزِ بِالسَّفَهَةِ وَالْمَجُونِ، فَمَنْ قَوِيَ أَمْرُهُ أَذَاقَهُ مِنْ شَدِيدِ النَّكَالِ مِنَ التَّضْيِيقِ فِي السَّجْنِ وَالشَّدِّ فِي الْقَيْودِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي هِيَ مِنْتَهَى طَاقَتِهِ تَمَّا لَا يَمْنَعُهُ الْقِيَامَ لِمَنْعِهِ لِمَنْعِهِ وَلَا يُقْعِدُهُ عَنْ صَلَاتِهِ. وَهُوَ حَكْمٌ كُلٌّ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ، لَكِنْ وَقَفَ عَنْ قَتْلِهِ لِمَعْنَى أَوْجِبَهُ وَتُرْبِصَ بِهِ لِإِشْكَالِ وَعَائِقِ اقْتِضَاءِ أَمْرِهِ، وَحَالَاتُ الشَّدَّةِ فِي نِكَالِهِ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ حَالِهِ.

وقال القابسي في مثل هذا ومن كان أقصى أمره القتل فعاق عائق أشكل في القتل: لم ينبغ أن يطلق من السجن، ويستطال سجنه ويحمل عليه من القيد ما يطيق. وقال في مثله من أشكل أمره: يشد في القيود شداً، ويضيق عليه في السجن حتى ينظر فيما يجب عليه.

فصل

فَأَمَّا الذَّمِّيُّ إِذَا صَرَّحَ بِسَبِّهِ أَوْ عَرَّضَ أَوْ اسْتَخَفَّ بِقَدْرِهِ ﷺ أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ فَلَا خِلَافَ عِنْدَنَا فِي قَتْلِهِ إِنْ لَمْ يُسَلِّمْ، لِأَنَّا لَمْ نُعْطِهِ الذَّمَّ أَوْ الْعَهْدَ عَلَى هَذَا، وَهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ إِلَّا أَبَا حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيَّ وَأَتْبَاعَهُمَا

مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: لَا يُقْتَلُ لِأَنَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِكِ أَعْظَمُ، وَلَكِنْ يُؤَدَّبُ وَيُعْزَرُ.

وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ شُيُوخِنَا عَلَى قَتْلِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢].

وَيُسْتَدَلُّ أَيْضًا عَلَيْهِ بِقَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِ الْأَشْرَفِ وَأَشْبَاهِهِ، وَلِأَنَّا لَمْ نَعَاهِدْهُمْ وَلَمْ نُعْطِهِمِ الذِّمَّةَ عَلَى هَذَا، وَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ مَعَهُمْ، فَإِذَا أَتَوْا مَا لَمْ يُعْطُوا عَلَيْهِ الْعَهْدَ وَلَا الذِّمَّةَ فَقَدْ نَقَضُوا ذِمَّتَهُمْ وَصَارُوا كُفْرًا أَهْلَ حَرْبٍ يُقْتَلُونَ لِكُفْرِهِمْ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ ذِمَّتَهُمْ لَا تُسْقِطُ حُدُودَ الْإِسْلَامِ عَنْهُمْ مِنْ الْقَطْعِ فِي سَرِقَةٍ أَمْوَالِهِمْ وَالْقَتْلِ مَنْ قَتَلُوهُ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَلَالًا عِنْدَهُمْ فَكَذَلِكَ سَبُّهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ يُقْتَلُونَ بِهِ.

وَاخْتَلَفُوا إِذَا سَبَّهُ ثُمَّ أَسْلَمَ، فَقِيلَ: يُسْقِطُ إِسْلَامُهُ قَتْلَهُ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ بِخِلَافِ الْمُسْلِمِ إِذَا سَبَّهُ ثُمَّ تَابَ، لِأَنَّا نَعْلَمُ بَاطِنَةَ الْكَافِرِ فِي بُغْضِهِ لَهُ وَتَنْقِصِهِ بِقَلْبِهِ، لَكِنَّا مَنَعْنَاهُ مِنْ إِظْهَارِهِ، فَلَمْ يَزِدْنَا مَا أَظْهَرَهُ إِلَّا مُخَالَفَةً لِلْأَمْرِ وَنَقْضًا لِلْعَهْدِ، فَإِذَا رَجَعَ عَنْ دِينِهِ الْأَوَّلِ إِلَى الْإِسْلَامِ سَقَطَ مَا قَبْلَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعَفَّرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وَالْمُسْلِمُ بِخِلَافِهِ؛ إِذْ كَانَ ظَنُّنَا بِبَاطِنِهِ حَكْمَ ظَاهِرِهِ وَخِلَافَ مَا بَدَأَ مِنْهُ الْآنَ، فَلَمْ نَقْبَلْ بَعْدَ رَجُوعِهِ وَلَا اسْتَنْمَنَا إِلَى بَاطِنِهِ، إِذْ قَدْ بَدَتْ سِرَائِرُهُ وَمَا ثَبَتَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ بَاقِيَةٌ عَلَيْهِ لَمْ يُسْقِطْهَا شَيْءٌ.

وقيل: لا يُسْقَطُ إسلامُ الذمِّي السابِّ قَتْلَهُ لَأَنَّهُ حَقٌّ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَجِبَ عَلَيْهِ لانتهاكه حرمة وقصده إلحاق النقيصة والمعرة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يسقطه كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه من قتلٍ وقذفٍ، وإذا كنا لا نقبل توبة المسلم فإن لا نقبل توبة الكافر أولى.

قال مالك وابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصنغ فيمن شتم نبينا من أهل الذمة أو أحدا من الأنبياء عليهم السلام: قُتِلَ إِلَّا أَنْ يَسْلَمَ (٤٦).

وقد روى ابن وهب عن ابن عمر رضي الله عنهما أن راهبا تناول النبي ﷺ، فقال ابن عمر: فهلا قتلتموه (٤٧).

وروى عيسى عن ابن القاسم في ذمِّي قال: إن محمداً لم يُرْسَلْ إلينا إنما أُرْسِلَ إليكم وإنما نبينا موسى أو عيسى ونحو هذا لا شيء عليهم لأن الله تعالى أقرهم على مثله، وأما إن سبّه فقال: ليس بنبيٍّ أو لم يُرْسَلْ أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيءٌ تقوله أو نحو هذا فيُقْتَلُ (٤٨).

قال محمد بن سحنون: فإن قيل: لم قتلته في سبِّ النبي ﷺ ومن دينه سبُّه وتكذيبه؟ قيل: لأننا لم نعطهم العهد على ذلك، ولا على قتلنا وأخذ أموالنا، فإذا قتل واحداً منا قتلناه وإن كان من دينه استحلاله، فكذلك

(٤٦) انظر في كل ذلك: النوادر (١٤/٥٢٨-٥٢٩).

(٤٧) أخرجه ابن وهب في كتاب المحاربة من موطئه، وانظر: النوادر والزيادات (١٤/٥٢٠)، البيان والتحصيل (٤٤٥/١٦).

(٤٨) النوادر والزيادات (١٤/٥٣٠).

إظهاره لسبِّ نبينا ﷺ. قال سحنون: كما لو بذل لنا أهل الحرب الجزية على إقرارهم على سبِّه لم يجز لنا ذلك في قول قائل، كذلك ينتقض عهد مَنْ سبَّ منهم ويحلُّ لنا دمه. وكما لم يحصن الإسلام مَنْ سبَّه مِنَ القتل كذلك لا تحصنه الذمَّة (٤٩).

وحكى أبو المصعب الزهري قال: أتيتُ بنصرانيٌّ قال: والذي اصطفى عيسى على محمد، فاختلف عليّ فيه فضربته حتى قتلتته أو عاش يوماً وليلة، وأمرتُ مَنْ جرَّ برجله وطرح على مذبلةٍ فأكلته الكلاب. وسئل أبو المصعب عن نصرانيٍّ قال: عيسى خلق محمدًا فقال: يُقتلُ (٥٠).

وقال ابن القاسم: سألتُ مالكا عن نصرانيٍّ بمصر شهد عليه أنه قال: مسكينٌ محمدٌ يُخبركم أنه في الجنة، ماله لم ينفع نفسه إذ كانت الكلاب تأكل ساقيه؟ لو قتلوه استراح منه الناس، قال مالك: أرى أن تُضربَ عنقه، قال: ولقد كدتُ أن لا أتكلّم فيها بشيءٍ ثم رأيتُ أنه لا يسعني الصمتُ (٥١).

قال ابن كنانة في المبسوطة: مَنْ شتم النبي ﷺ من اليهود والنصارى فأرى للإمام أن يحرقه بالنار، وإن شاء قتله ثم حرق جثته، وإن شاء أحرقه بالنار حيًّا إذا تهافتوا في سبِّه، ولقد كتبتُ إلى مالكٍ من مصر - وذكر مسألة ابن القاسم المتقدمة - قال: فأمرني مالكٌ فكتبتُ بأن يقتلَ وتضربَ عنقه، فكتبتُ ثم قلت: يا أبا عبد الله، وأكتب: ثم يحرق بالنار؟ فقال: إنه لحقيق

(٤٩) النوادر والزيادات (٥٢٨/١٤).

(٥٠) نقله المقرئ في إمتاع الأسماع (٤٠٥/١٤).

(٥١) النوادر والزيادات (٥٢٧/١٤).

بذلك، وما أولاه به! فكتبت بيدي بين يديه، فما أنكره ولا عابه، ونفدت الصحيفة بذلك فقتل وحرق.

وقال أبو القاسم ابن الجلاب: مَنْ سَبَّ الله ورسوله من مسلمٍ أو كافرٍ قُتِلَ ولا يستتاب (٥٢).

وحكى القاضي أبو محمد في الذمي يسب ثم يسلم روايتين في ذرء القتل عنه بإسلامه، وقال ابن سحنون: وحد القذف وشبهه من حقوق العباد لا يسقطه عن الذمي إسلامه، وإنما يسقط عنه بإسلامه حدود الله، فأما حد القذف فحق للعباد كان ذلك لنبي أو غيره، فأوجب على الذمي إذا قذف النبي ﷺ ثم أسلم حد القذف.

فصل في ميراث من قتل في سب النبي ﷺ وغسله والصلاة عليه

اختلف العلماء في ميراث من قتل بسب النبي ﷺ، فذهب سحنون إلى أنه لجماعة المسلمين من قبل أن شتم النبي ﷺ كفر يشبه كفر الزنديق. وقال أصبغ: ميراثه لورثته من المسلمين إن كان مستسراً بذلك، وإن كان مظهرًا له مستهلاً به فميراثه للمسلمين، ويُقتل على كل حال ولا يستتاب (٥٣).

قال أبو الحسن القاسمي: إن قتل وهو منكراً للشهادة عليه فالحكم في ميراثه على ما أظهر من إقراره، يعني لورثته، والقتل حد ثبت عليه ليس من الميراث في شيء، وكذلك لو أقر بالسب وأظهر التوبة لقتل؛ إذ هو حد،

(٥٢) التفريع لابن الجلاب (٢/٢٣٢).

(٥٣) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٤).

وحكمه في ميراثه وسائر أحكامه حكم الإسلام، ولو أقرَّ بالسبِّ وتمادى عليه وأبى التوبة منه فقتلَ على ذلك كان كافراً وميراثه للمسلمين، ولا يُغسلُ ولا يُصلَّى عليه ولا يُكفَّنُ وتُسترُّ عورته ويؤارى كما يفعلُ بالكفار.

وقول الشيخ أبي الحسن في المجاهر المتماذي بيِّنٌ لا يُمكِنُ الخلافُ فيه؛ لأنَّه كافرٌ مرتدٌّ غيرُ تائبٍ ولا مُقلِّعٍ، وهو مثل قول أصبغ.

وكذلك في كتاب ابن سحنون في الزنديق يتمادى على قوله، ومثله لابن القاسم في العتبية، ولجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كفره مثله.

قال ابن القاسم: وحكمه حكم المرتدِّ لا ترثه ورثته من المسلمين ولا من أهل الدين الذي ارتدَّ إليه، ولا تجوز وصاياه ولا عتقه، وقاله أصبغ، قُتلَ على ذلك أو مات عليه (٥٤).

وقال أبو محمد ابن أبي زيد: وإنما يختلف في ميراث الزنديق الذي يستهلُّ بالتوبة فلا تُقبَلُ منه، فأما المتماذي فلا خلاف أنه لا يورث (٥٥).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود رضي الله عنه وابن المسيب والحسن والشعبي وعمر بن عبد العزيز والحكم والأوزاعي والليث وإسحاق وأبو حنيفة: يرثه ورثتهم المسلمين (٥٦).

(٥٤) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٠-٥٢١).

(٥٥) المصدر السابق (١٤/٥٢٣).

(٥٦) المبسوط للسرخسي (١٠/١٠١)، بدائع الصنائع (٧/١٣٨)، وانظر: التمهيد (٩/١٦٤-١٦٧).

وروى أصبغ عن ابن القاسم في كتاب ابن حبيب فيمن كذب برسول الله ﷺ أو أعلن ديناً مما يفارق به الإسلام أن ميراثه للمسلمين .

وقال بقول مالك: إن ميراث المرتد للمسلمين ولا ترثه ورثته ربعة والشافعي وأبو ثور وابن أبي ليلى واختلف فيه عن أحمد (٥٧) .

وسئل أبو القاسم ابن الكاتب عن النصراني يسب النبي ﷺ فيقتل: هل يرثه أهل دينه أم المسلمون؟ فأجاب أنه للمسلمين ليس على جهة الميراث لأنه لا توارث بين أهل ملتين، ولكن لأنه من فيئهم لنقضه العهد، هذا معنى قوله واختصاره (٥٨) .

(٥٧) النوادر والزيادات (٥٠٨/١٤)، الأم (٨٧/٤)، الحاوي الكبير (١٤٥/٨)، الكافي في فقه الإمام أحمد (٣١١/٢) .

(٥٨) انظر: النوادر والزيادات (٥٠٨/١٤) .

هنا انتهى القول بنا فيما حررناه وانتجز الغرض الذي انتحناه، واستوفي الشرط الذي شرطناه، مما أرجو أن في كل قسم منه للمريد مقنعا، وفي كل باب منهجا إلى بُعَيْتِهِ وَمَنْزَعًا.

وقد سمرت فيه عن نكتٍ تُسْتَعْرَبُ وتُسْتَبَدَعُ، وكرعت في مشارب من التحقيق لم يورد لها قبل في أكثر التصانيف مشرع، وأودعته غير ما فصل وددت لو وجدت من بسط قبلي الكلام فيه، أو مُقْتَدَى يُفِيدُنِيهِ عن كتابه أو فيه لأكتفي بما أرويه عما أرويه.

والى الله تعالى جزيل الصّراعةِ والمنّة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تزئين وتصنع لغيره، وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه، لما أودعناه من شرف مصطفاه وأمين وحيه، وأسهرنا به جفوننا لتتبع فضائله، وأعملنا فيه خواطرنا من إبراز خصائصه ووسائله، ويحمي أعراضنا عن نارهِ الموقدة لحمايتنا كريم عريضه، ويجعلنا ممن لا يُذاد إذا ذيد المبدل عن حوضه، ويجعله لنا ولمن تهّم باكتتابه واكتسابه، سببا يصلنا بأسبابه، وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، نحوز بها رضاه وجزيل ثوابه، ويخصنا بخصيصى زمرة نبينا وجماعته، ويحشرنا في الرّعيّل الأول وأهل الباب الأيمن من أهل شفاعته.

ونحمده تعالى على ما هدى إليه من جمعه وألهم، وفتح البصيرة لدرك حقائق ما أودعناه وفهّم، ونستعيذه جلّ اسمه من دعاء لا يُسمع، وعلم لا ينفع، وعمَل لا يُرْفَع، فهو الجواد الذي لا يُخيب

مَنْ أَمَّلَهُ، وَلَا يَنْتَصِرُ مَنْ خَذَلَهُ، وَلَا يَرُدُّ دَعْوَةَ الْقَاصِدِينَ، وَلَا يُصْلِحُ
عَمَلَ الْمَفْسِدِينَ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَصَلَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا
مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

محتوى الكتاب

- الباب الأول في ثناء الله عليه ﷺ وإظهاره عظيم قدره لديه ٧
- فصلٌ فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وتعداد المحاسن ٧
- فصلٌ في وصفه تعالى له ﷺ بالشهادة وما يتعلّق بها من الثناء والكرامة ١٢
- فصل فيما ورد من خطابه تعالى مورد الملاحظة والمبرّة ١٤
- فصل في قسّمه تعالى بعظيم قدره ﷺ ١٦
- فصل في قسّمه تعالى له ﷺ لتحقّق مكانته عنده ١٦
- فصلٌ فيما ورد من قوله تعالى في جهته ﷺ مورد الشفقة والإكرام ٢٠
- فصل فيما أخبر الله تعالى به من عظيم قدره ﷺ
- وشريف منزلته على الأنبياء عليهم السلام ٢١
- فصلٌ في إعلام الله تعالى خلقه
- بصلاته عليه ﷺ وولايته له ورفع العذاب بسببه ٢٣
- فصلٌ فيما تضمّنته سورة الفتح من كراماته ﷺ ٢٥
- فصلٌ فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز
- من كرامته ﷺ عليه ومكانته عنده وما خصّه به ٢٧
- الباب الثاني في تكميل الله تعالى له ﷺ المحاسن خلقًا وخلقًا
- وقرانه جميع الفضائل الدنيوية والدنيوية فيه نسقًا ٢٩
- فصلٌ فيه أنه اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال ما يشرف غيره بواحدة منها ٣٠
- فصلٌ في صفاته ﷺ الخلقية ٣١
- فصل في نظافة جسمه ﷺ وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن عورات الجسد ٣٤

- فصل في وفور عقله ﷺ وقوة حواسه ٣٥
- فصل في فصاحة لسانه ﷺ وبلاغة قوله ٣٦
- فصل ٣٨
- فصل ٤٠
- فصل ٤٢
- فصل في أخلاقه ﷺ ٤٤
- فصل في حلمه ﷺ وعفوه وصبره ٤٥
- فصل في جوده ﷺ وكرمه وسماحته ٤٨
- فصل في شجاعته ﷺ ونجدته ٥٠
- فصل في حياته ﷺ وإغضائه ٥٢
- فصل في حسن عشرته ﷺ وأدبه ٥٣
- فصل في شفقته ﷺ ورأفته ورحمته لجميع الخلق ٥٦
- فصل في وفائه ﷺ وحسن عهده وصلة رحمه ٥٩
- فصل في تواضعه ﷺ ٦٠
- فصل في عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته ٦٢
- فصل في وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه ٦٤
- فصل في زهده ﷺ في الدنيا ٦٥
- فصل في خوفه ﷺ ربه وطاعته له وشدة عبادته ٦٧

الباب الثالث فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها

- بعظيم قدره ﷺ عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته ٧١
- فصل في تفضيله ﷺ بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية
وإمامة الأنبياء والعروج به إلى سدرة المنتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى .. ٧٤
- فصل في تفضيله ﷺ بالمحبة والخلة ٧٨
- فصل في ذكر تفضيله ﷺ في القيامة بخصوص الكرامة ٧٩

- فصل في تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود ٨٠
- فصل في تفضيله ﷺ في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة... ٨٥
- فصل في أسمائه ﷺ وما تضمنته من فضيلته ٨٧

الباب الرابع فيما أظهره الله تعالى على يديه ﷺ من المعجزات

- وشرفه به من الخصائص والكرامات ٩١
- فصل في معنى النبوة والرسالة والوحي ٩٢
- فصل في معنى المعجزة ٩٣
- فصل في إعجاز القرآن ٩٥
- فصل ٩٩
- فصل ١٠١
- فصل ١٠٣
- فصل ١٠٥
- فصل ١٠٦
- فصل ١٠٩
- فصل وجوه أخرى للإعجاز ١١٠
- فصل انشقاق القمر ١١٢
- فصل في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته ﷺ ١١٣
- فصل ١١٧
- فصل في كلام الشجر وشهادتها له ﷺ بالنبوة وإجابتها دعوته ١٢٠
- فصل في قصة حنين الجذع ١٢١
- فصل فيما جاء في الطعام والشجر والحجر ١٢٢
- فصل في الآيات في ضروب الحيوانات ١٢٣
- فصل في إبراء المرضى وذوي العاهات ١٢٤
- فصل في إجابة دعائه ﷺ ١٢٥

- ١٢٨ فصل في كرامته ﷺ وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره.
- ١٣١ فصل
- ١٣٩ فصل في عصمة الله تعالى له ﷺ من الناس وكفايته من أذاه
- ١٤٣ الباب الخامس في فرض الإيمان به ﷺ ووجوب طاعته واتباع سنته
- ١٤٥ فصل في وجوب طاعته ﷺ
- فصل فيما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته ﷺ
- ١٥٠ والاقْتداء بهديه وسيرته
- ١٥٣ فصل
- ١٥٥ الباب السادس في لزوم محبته ﷺ
- ١٥٦ فصل في ثواب محبته ﷺ
- ١٥٧ فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم له
- ١٥٧ فصل في علامة محبته ﷺ
- ١٦١ فصل في معنى المحبة للنبي ﷺ وحقيقتها
- ١٦٢ فصل في وجوب مناصحته ﷺ
- ١٦٥ الباب السابع في تعظيم أمره ﷺ ووجوب توقيره وبره
- ١٦٨ فصل في عادة الصحابة رضي الله عنهم في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله
- ١٧٠ فصل في أن حرمة ﷺ وتوقيره بعد موته لازم كما كان حال حياته
- ١٧٢ فصل في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته
- ١٧٤ فصل
- ١٧٨ فصل
- ١٨٣ الباب الثامن في حكم الصلاة عليه ﷺ والتسليم وفرض ذلك وفضيلته
- ١٨٤ فصل في حكم الصلاة على النبي ﷺ
- ١٨٥ فصل في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام على النبي ﷺ

- ١٨٩ فصل في كيفية الصلاة عليه ﷺ والتسليم
- ١٩٠ فصل في فضيلة الصلاة على النبي ﷺ والتسليم عليه والدعاء له
- ١٩٢ فصل في ذم من لم يصل على النبي ﷺ وإثمه
- ١٩٣ فصل في تخصيصه ﷺ بتبليغ صلاة من صلى عليه أو سلم من الأنام
فصل في الاختلاف في الصلاة على غير النبي ﷺ
- ١٩٤ وسائر الأنبياء عليهم السلام
- فصل فيما يلزم من دخل مسجد النبي ﷺ من الأدب
- ١٩٥ وفضله وفضل الصلاة فيه

الباب التاسع فيما يجب للنبي ﷺ وما يستحيل في حقه أو يجوز عليه

- ١٩٩ وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه
- ٢٠٠ فصل فيما يختص بالأمور الدينية والكلام في عصمة نبينا ﷺ
- ٢٠٢ فصل
- ٢٠٥ فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما طريقه البلاغ
- ٢٠٦ فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما ليس طريقه البلاغ كذلك
- ٢٠٧ فصل في المباحات من تصرفاته ﷺ
فصل فيما يخصه ﷺ في الأمور الدنيوية
- ٢٠٩ وما يطرأ عليه من العوارض البشرية
- ٢١١ فصل في الجواب عن كون النبي ﷺ سحر
- ٢١٤ فصل فيما يعتقد ﷺ في أمور أحكام البشر الجارية على يديه
- ٢١٥ فصل في الإجابة على بعض الشبه في ذلك
- ٢١٩ فصل في أفعاله ﷺ الدنيوية
- فصل في الكلام على الحكمة في إجراء الأمراض
- ٢٢٢ وشدتها عليه ﷺ وعلى غيره من الأنبياء من قبل
- ٢٢٥ الباب العاشر في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه أو سبه ﷺ

٢٢٧	فصل في بيان ما هو في حقه ﷺ سَبُّ أو نَقْصٌ من تعريض أو نص
٢٣٢	فصل في الحجّة في إيجاب قتل من سبه أو عابه ﷺ
٢٣٦	فصل في أسباب عدم قتل النبي ﷺ لبعض من سبه أو تنقّصه
٢٤٢	فصل
٢٥٣	فصل فيما يجب على المتكلم عند ذكر أحواله ﷺ المختلفة
	فصل في حكم سابه ﷺ وشانئه ومنتقصه ومؤذيه
٢٥٥	وعقوبته وذكر استتابته ووراثته
٢٥٧	فصل
٢٥٧	فصل
٢٦١	فصل في ميراث مَنْ قُتِلَ في سبِّ النبي ﷺ وغسله والصلاة عليه
٢٦٧	محتوى الكتاب

